

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مِنْ سُورَةِ الْمُلْكِ

إِلَى سُورَةِ الْمُرْسَلَاتِ

## (٦٧) سُورَةُ الْمُلْكِ مَكِّيَّةٌ وَأَيَّاتُهَا ثَلَاثُونَ

### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ① الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ② الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوتٍ ۚ فَأَرْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ③ ثُمَّ أَرْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ④

وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ⑤ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَإِنَّهُمْ فِيهَا لَمَصِيرٌ ⑥ إِذَا الْفُجَاءُ فِيهَا سَمِعُوا هَٰذَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ⑦ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ ۖ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ⑧ قَالُوا بَلَىٰ ۖ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ ۖ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ⑨ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ⑩

فَاعْرِفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ⑪

إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ⑫

وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ ۖ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ⑬ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ⑭ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ۖ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ⑮ ءَأَمِنْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ⑯ أَمْ أَمِنْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرٍ ⑰ وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ⑱

أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُوَفَّقَهُمْ صَوْتٌ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ يَكْبِلُ شَيْءٌ بَصِيرٌ ﴿١٨﴾ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصَرُّكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴿١٩﴾ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢٠﴾ أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢١﴾ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٢﴾ قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٣﴾

وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٤﴾ قُلْ إِنَّمَا أَعْلِمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيِّئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكْنِي أَلَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٢٧﴾ قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ ﴿٢٩﴾

هذا الجزء كله من السور المكية . كما كان الجزء الذي سبقه كله من السور المدنية . ولكل منهما طابع مميز ، وطعم خاص .. وبعض مطالع السور في هذا الجزء من بواكير ما نزل من القرآن كمطلع سورة « المدثر » ومطلع سورة « المزمل » . كما أن فيه سوراً يحتمل أن تكون قد نزلت بعد البعثة بحوالي ثلاث سنوات كسورة « القلم » . وبحوالي عشر سنوات كسورة « الجن » التي يروى أنها نزلت في عودة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من الطائف ، حيث أودى من ثقيف . ثم صرف الله إليه نقرأ من الجن فاستمعوا إليه وهو يرتل القرآن ، مما حكته سورة الجن في هذا الجزء . وكانت هذه الرحلة بعد وفاة خديجة وأبي طالب قبيل الهجرة بعام أو عامين . وإن كانت هناك رواية أخرى هي الأرجح بأن السورة نزلت في أوائل البعثة .

والقرآن المكي يعالج - في الغالب - إنشاء العقيدة . في الله وفي الوحي ، وفي اليوم الآخر . وإنشاء التصور المنبثق من هذه العقيدة لهذا الوجود وعلاقته بخالقه . والتعريف بالخالق تعريفاً يجعل الشعور به حياً في القلب ، مؤثراً موجهاً موحياً بالمشاعر اللائقة بعبد يتجه إلى رب ، وبالآداب الذي يلزمه العبد مع الرب ، وبالقيم والموازين التي يزن بها المسلم الأشياء والأحداث والأشخاص . وقد رأينا نماذج من هذا في السور المكية السابقة ، وسرى نماذج منه في هذا الجزء .

والقرآن المدني يعالج - في الغالب - تطبيق تلك العقيدة وذلك التصور وهذه الموازين في الحياة الواقعية ؛

وحمل النفوس على الاضطلاع بأمانة العقيدة والشريعة في معترك الحياة ، والنهوض بتكليفها في عالم الضمير وعالم الظاهر سواء . وقد رأينا تماذج من هذا في السور المدنية السابقة ومنها سور الجزء الماضي .

\* \* \*

وهذه السورة الأولى - سورة تبارك - تعالج إنشاء تصور جديد للوجود وعلاقاته بخالق الوجود . تصور واسع شامل يتجاوز عالم الأرض الضيق وحيز الدنيا المحدود ، إلى عوالم في السماوات ، وإلى حياة في الآخرة . وإلى خلائق أخرى غير الإنسان في عالم الأرض كالجن والطير ، وفي العالم الآخر كجهنم وخزنتها . وإلى عوالم في الغيب غير عالم الظاهر تعلق بها قلوب الناس ومشاعرهم ، فلا تستغرق في الحياة الحاضرة الظاهرة ، في هذه الأرض . كما أنها تثير في حسهم التأمل فيما بين أيديهم وفي واقع حياتهم وذواتهم مما يمررون به غافلين .

وهي تهز في النفوس جميع الصور والانطباعات والرواسب الجامدة الهامدة المتخلفة من تصور الجاهلية وركودها ؛ وتفتح المنافذ هنا وهناك ، وتنفض الغبار ، وتطلق الحواس والعقل والبصيرة ترتاد آفاق الكون ، وأغوار النفس ، وطباق الجو ، ومسارب الماء ، وخفايا الغيوب ، قترى هناك يد الله المبدعة ، وتحس حركة الوجود المنبثقة من قدرة الله . وتتوَّب من الرحلة وقد شعرت أن الأمر أكبر ، وأن المجال أوسع . وتحولت من الأرض - على سعتها - إلى السماء . ومن الظواهر إلى الحقائق . ومن الجمود إلى الحركة . مع حركة القدر ، وحركة الحياة ، وحركة الأحياء .

الموت والحياة أمران مألوفان مكروران . ولكن السورة تبعث حركة التأمل فيها وراء الموت والحياة من قدر الله وبلائه ، ومن حكمة الله وتديبره : « الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً ، وهو العزيز الغفور » .

والسواء خلق ثابت أمام الأعين الجاهلة لا تتجاوزه إلى اليد التي أبدعته ، ولا تلتفت لما فيه من كمال . ولكن السورة تبعث حركة التأمل والاستغراق في هذا الجمال والكمال وما وراءها من حركة وأهداف : « الذي خلق سبع سموات طباقاً . ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ؟ ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير .. ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين .. » .

والحياة الدنيا تبدو في الجاهلية غاية الوجود ، ونهاية المطاف . ولكن السورة تكشف الستار عن عالم آخر هو حاضر للشياطين وللكافرين . وهو خلق آخر حافل بالحركة والتوفز والانتظار : « وأعدنا لهم عذاب السعير . وللذين كفروا برهم عذاب جهنم وبئس المصير . إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقاً وهي تفور . تكاد تميز من الغيظ . كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها : ألم يأتكم نذير ؟ قالوا : بلى ! قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا : ما نزل الله من شيء ؛ إن أنتم إلا في ضلال كبير وقالوا : لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير . فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير ! » .

والنفوس في الجاهلية لا تكاد تتجاوز هذا الظاهر الذي تعيش فيه ، ولا تلتقي بالآ إلى الغيب وما يحتويه . وهي مستغرقة في الحياة الدنيا مجبوسة في قصص الأرض الثابتة المستقرة . فالسورة تشد قلوبهم وأنظارهم إلى الغيب وإلى السماء وإلى القدرة التي لم ترها عين ، ولكنها قادرة تفعل ما تشاء حيث تشاء وحين تشاء ؛ وتهز في حسهم هذه الأرض الثابتة التي يطمثون إليها ويستغرقون فيها « إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير . وأسروا قولكم أو أجهروا به ، إنه علم بذات الصدور . ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ؟ هو الذي جعل لكم الأرض



ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور. أأنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور؟ أم أأنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصبا؟ فستعلمون كيف نذير..

والطير. إنه خلق يرونه كثيرا ولا يتدبرون معجزته إلا قليلا. ولكن السورة تمسك بأبصارهم لتنظر وبقلوبهم لتنتدبر، وترى قدرة الله الذي صور وقدر: «أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن؟ ما يسكهن إلا الرحمن، إنه بكل شيء بصير».

وهم آمنون في دارهم، مطمئنون إلى مكانهم، طمأنينة الغافل عن قدرة الله وقدره. ولكن السورة تهزم من هذا السبات النفسي، بعد أن هزت الأرض من تحتهم وأثارت الجومن حولهم، تهزم على قهر الله وجبروته الذي لا يحسبون حسابه: «أم من هذا الذي هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن؟ إن الكافرون إلا في غرور».

والرزق الذي تناله أيديهم، إنه في حسم قريب الأسباب، وهي بينهم تنافس وغلاب. ولكن السورة تمد أبصارهم بعيدا هنالك في السماء، ووراء الأسباب المعلومة لهم كما يظنون: «أم من هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه؟ بل لجوا في عتو ونفور»..

وهم سادرون في غيهم يحسبون أنهم مهتدون وهم ضالون. فالسورة ترسم لهم حقيقة حالهم وحال المهتدين حقاً، في صورة متحركة موحية: «أفمن يمشي مكباً على وجهه أهدى؟ أم من يمشي سوياً على صراط مستقيم؟».

وهم لا ينتفعون بما رزقهم الله في ذوات أنفسهم من استعدادات ومدارك، ولا يتجاوزون ما تراه حواسهم إلى التدبر فيما وراء هذا الواقع القريب. فالسورة تذكرهم بنعمة الله فيهم، وتوجههم إلى استخدام هذه الهبة في تنوير المستقبل المغيب وراء الحاضر الظاهر، وتدبر الغاية من هذه البداية: «قل: هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة، قليلاً ما تشكرون. قل: هو الذي ذرأكم في الأرض وإليه تحشرون»..

وهم يكذبون بالبعث والحشر، ويسألون عن مواعده. فالسورة تصوره لهم واقعاً مفاجئاً قريباً يسوؤهم أن يكون: «ويقولون: متى هذا الوعد إن كنتم صادقين؟ قل إنما العلم عند الله، وإنما أنا نذير مبين. فلما رأوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا، وقيل: هذا الذي كنتم به تدعون!..».

وهم يترصون بالنبي - صلى الله عليه وسلم - ومن معه أن يهلكوا فيسترحوا من هذا الصوت الذي يقض عليهم مضجعهم بالتذكير والتحذير والإيقاظ من راحة الجمود! فالسورة تذكرهم بأن هلاك الحفنة المؤمنة أو بقاءها لا يؤثر فيها ينتظرهم هم من عذاب الله على الكفر والتكذيب، فأول لهم أن يتدبروا أمرهم وحالهم قبل ذلك اليوم العصيب: «قل: أرأيتم إن أهلكني الله ومن معي أورشنا فمن ينجي الكافرين من عذاب أليم؟ قل: هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا فستعلمون من هو في ضلال مبين».

وتنذرهم السورة في ختامها بتوقع ذهاب الماء الذي به يعيشون، والذي يجريه هو الله الذي به يكفرون! «قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماء معين؟»..

إنها حركة. حركة في الحواس، وفي الحس، وفي التفكير، وفي الشعور.

\*\*\*

ومفتاح السورة كلها، ومحورها الذي تشد إليه تلك الحركة فيها، هو مطلعها الجامع الموجي:

« تبارك الذي بيده الملك ، وهو على كل شيء قدير » ..

وعن حقيقة الملك وحقيقة القدرة تنفر سائر الصور التي عرضتها السورة ، وسائر الحركات الغيبية والظاهرة التي نبهت القلوب إليها ..

فمن الملك ومن القدرة كان خلق الموت والحياة ، وكان الابتلاء بهما . وكان خلق السماوات وتزيينها بالمصابيح وجعلها رجوماً للشياطين . وكان إعداد جهنم بوصفها وهيتها وخزنها . وكان العلم بالسروا والجهر . وكان جعل الأرض ذلولاً للبشر . وكان الخسف والحاصب والتكبر على المكذبين الأولين . وكان إمساك الطير في السماء . وكان القهر والاستعلاء . وكان الرزق كما يشاء . وكان الإنشاء وهبة السمع والأبصار والأفئدة . وكان الذرة في الأرض والحشر . وكان الاختصاص بعلم الآخرة . وكان عذاب الكافرين . وكان الماء الذي به الحياة وكان الذهب به عندما يريد ..

فكل حقائق السورة وموضوعاتها ، وكل صورها وإيحاءاتها مستمدة من إيحاء ذلك المطلع ومدلوله الشامل الكبير : « تبارك الذي بيده الملك ، وهو على كل شيء قدير » !!  
وحقائق السورة وإيحاءاتها تتوالى في السياق ، وتتدفق بلا توقف ، مفسرة مدلول المطلع المجمل الشامل ، مما يصعب معه تقسيمها إلى مقاطع ! ويستحسن معه استعراضها في سياقها بالتفصيل :

\* \* \*

« تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير » ..

هذه التسيحية في مطلع السورة توحى بزيادة بركة الله ومضاعفها ، وتمجيد هذه البركة الراهبة الفائضة . وذكر الملك بجوارها يوحي بفيض هذه البركة على هذا الملك ، وتمجيدها في الكون بعد تمجيدها في جناب الذات الإلهية . وهي ترنمة تتجاوب بها أرجاء الوجود ، ويعمر بها قلب كل موجود . وهي تنطلق من النطق الإلهي في كتابه الكريم ، من الكتاب المكنون ، إلى الكون المعلوم .

« تبارك الذي بيده الملك » .. فهو المالك له ، المهيمن عليه ، القابض على ناصيته ، المتصرف فيه .. وهي حقيقة . حين تستقر في الضمير تحدد له الوجهة والمصير ؛ وتخليه من التوجه أو الاعتماد أو الطلب من غير المالك المهيمن المتصرف في هذا الملك بلا شريك ؛ كما تخليه من العبودية والعبادة لغير المالك الواحد ، والسيد الفريد !  
« وهو على كل شيء قدير » .. فلا يعجزه شيء ، ولا يفوته شيء ، ولا يحول دون إرادته شيء ، ولا يحد مشيئته شيء . يخلق ما يشاء ، ويفعل ما يريد ، وهو قادر على ما يريده غالب على أمره ؛ لا تتعلق بإرادته حدود ولا قيود .. وهي حقيقة حين تستقر في الضمير تطلق تصوره لمشئته الله وفعله من كل قيد يرد عليه من مألوف الحس أو مألوف العقل أو مألوف الخيال ! فقدرته الله وراء كل ما يخطر للبشر على أي حال .. والقيود التي ترد على تصور البشر بحكم تكوينهم المحدود تجعلهم أسرى لما يألفون في تقدير ما يتوقعون من تغيير وتبدل فيما وراء اللحظة الحاضرة والواقع المحدود . فهذه الحقيقة تطلق حسهم من هذا الإسار . فيتوقعون من قدرة الله كل شيء بلا حدود . ويكونون لقدرة الله كل شيء بلا قيود . وينطلقون من أسر اللحظة الحاضرة والواقع المحدود .

\* \* \*

« الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً ، وهو العزيز الغفور » ..

ومن آثار تمكنه المطلق من الملك وتصريفه له ، وآثار قدرته على كل شيء وطلاقه إرادته .. أنه خلق الموت

والحياة . والموت يشمل الموت السابق على الحياة والموت اللاحق لها . والحياة تشمل الحياة الأولى والحياة الآخرة . وكلها من خلق الله كما تقرر هذه الآية ، التي تنشئ هذه الحقيقة في التصور الإنساني ، وتثير إلى جانبها البقطة لما وراءها من قصد وابتلاء . فليست المسألة مصادفة بلا تدبير . وليست كذلك جزافاً بلا غاية . إنما هو الابتلاء لإظهار المكون في علم الله من سلوك الأناسي على الأرض ، واستحقاقهم للجزاء على العمل : « ليلوكم أيكم أحسن عملاً » . واستقرار هذه الحقيقة في الضمير يدعه أبداً يقطاً حذراً متلفتاً واعياً للصغيرة والكبيرة في النية المستمرة والعمل الظاهر . ولا يدعه يغفل أو يلهو . كذلك لا يدعه يطمئن أو يستريح . ومن ثم يجيء التعقيب : « وهو العزيز الغفور » ليسكب الطمأنينة في القلب الذي يرضى الله ويخشاه . فالله عزيز غالب ولكنه غفور مسامح . فإذا استيقظ القلب ، وشعر أنه هنا للابتلاء والاختبار ، وحذر وتوقى ، فإن له أن يطمئن إلى غفران الله ورحمته وأن يقر عندها ويستريح !

إن الله في الحقيقة التي يصورها الإسلام لتستقر في القلوب ، لا يطارد البشر ، ولا يعتهم ، ولا يحب أن يعذبهم . إنما يريد لهم أن يتيقظوا لغاية وجودهم ؛ وأن يرتفعوا إلى مستوى حقيقتهم ؛ وأن يحققوا تكرم الله لهم بنفخة روحه في هذا الكيان وتفضيله على كثير من خلقه . فإذا تم لهم هذا فهناك الرحمة السابعة والعون الكبير والساحة الواسعة والعفو عن كثير .

\*\*\*

ثم يربط هذه الحقيقة بالكون كله في أكبر وأرفع مجاليه ؛ كما يربط به من الناحية الأخرى حقيقة الجزاء في الآخرة ، بعد الابتلاء بالموت والحياة :

« الذي خلق سبع سموات طباقاً ، ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت ، فارجع البصر هل ترى من فطور ؟ ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير . ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح ، وجعلناها رجوماً للشياطين ، وأعتدنا لهم عذاب السعير . وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم ، وبئس المصير . إذا ألقوا فيها سمعوا لها شقيقاً وهي تفور . تكاد تميز من الغيظ ، كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها : ألم يأتكم نذير ؟ قالوا : بلى ! قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا : ما نزل الله من شيء ، إن أنتم إلا في ضلال كبير . وقالوا : لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير . فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير ! » .

وكل ما في هذه الآيات آثاراً لمداول الآية الأولى ، ومظاهر للهيمنة المتصرفة في الملك ، وللقدرة التي لا يقيدھا قيد . ثم هي بعد ذلك تصديق للآية الثانية من خلق الموت والحياة للابتلاء ، ثم الجزاء ..

والسماوات السبع الطباق التي تشير إليها الآية لا يمكن الجزم بمدلولها ، استقاء من نظريات الفلك ، فهذه النظريات قابلة للتعديل والتصحيح ، كلما تقدمت وسائل الرصد والكشف . ولا يجوز تعليق مدلول الآية بمثل هذه الكشوف القابلة للتعديل والتصحيح . ويكفي أن نعرف أن هناك سبع سموات . وأنها طباق بمعنى أنها طبقات على أبعاد متفاوتة .

والقرآن يوجه النظر إلى خلق الله ، في السماوات بصفة خاصة وفي كل ما خلق بصفة عامة . يوجه النظر إلى خلق الله ، وهو يتحدى بكماله كما لا يرد البصر عاجزاً كليلاً مهوراً مدهوشاً .

« ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت » .. فليس هناك خلل ولا نقص ولا اضطراب .. « فارجع البصر » .. وانظر مرة أخرى للتأكد والتثبت « هل ترى من فطور ؟ » .. وهل وقع نظرك على شق أو صدع أو خلل ؟ ثم

ارجع البصر كرتين « فرما فانك شيء في النظرة السابقة لم تتبينه ، فأعد النظر ثم أعده » ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حير ..

وأسلوب التحدي من شأنه أن يثير الاهتمام والجد في النظر إلى السماوات وإلى خلق الله كله . وهذه النظرة الحادة الفاحصة التامة المتدبرة هي التي يريد القرآن أن يثيرها وأن يبعثها . فبلادة الألفة تذهب بروعة النظرة إلى هذا الكون الرائع العجيب الجميل الدقيق ، الذي لا تشبع العين من تحلي جماله وروعته ، ولا يشبع القلب من تلقي إحياءاته وإيماءاته ؛ ولا يشبع العقل من تدبر نظامه ودقته . والذي يعيش منه من يتأمل بهذه العين في مهرجان إلهي باهر رائع ، لا تخلق بدائعه ، لأنها أبداً متجددة للعين والقلب والعقل .

والذي يعرف شيئاً عن طبيعة هذا الكون ونظامه - كما كشف العلم الحديث عن جوانب منها - يدركه الدهش والذهول . ولكن روعة الكون لا تحتاج إلى هذا العلم . فمن نعمة الله على البشر أن أودعهم القدرة على التجاوب مع هذا الكون بمجرد النظر والتأمل ؛ فالقلب يتلقى إيقاعات هذا الكون الهائل الجميل تلقياً مباشراً حين يفتح ويستشرف . ثم يتجاوب مع هذه الإيقاعات بتجاوب الحي مع الحي ؛ قبل أن يعلم بفكره وبأرصاده شيئاً عن هذا الخلق الهائل العجيب .

ومن ثم بكل القرآن الناس إلى النظر في هذا الكون ، وإلى تحلي مشاهدته وعجائبه . ذلك أن القرآن يخاطب الناس جميعاً ، وفي كل عصر . يخاطب ساكن الغابة وساكن الصحراء ، كما يخاطب ساكن المدينة ورائد البحار . وهو يخاطب الأمي الذي لم يقرأ ولم يخط حرفاً ، كما يخاطب العالم الفلكي والعالم الطبيعي والعالم النظري سواء . وكل واحد من هؤلاء يجد في القرآن ما يصله بهذا الكون ، وما يثير في قلبه التأمل والاستجابة والمتاع . والجمال في تصميم هذا الكون مقصود كالكمال . بل إنهما اعتباران لحقيقة واحدة . فالكمال يبلغ درجة الجلال . ومن ثم يوجه القرآن النظر إلى جمال السماوات بعد أن وجه النظر إلى كمالها :

« ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح » ..

وما السماء الدنيا ؟ لعلها هي الأقرب إلى الأرض وسكانها المخاطبين بهذا القرآن . ولعل المصابيح المشار إليها هنا هي النجوم والكواكب الظاهرة للعين ، التي نراها حين ننظر إلى السماء . فذلك يتسق مع توجيه المخاطبين إلى النظر في السماء . وما كانوا يملكون إلا عيونهم ، وما تراه من أجرام مضيئة تزين السماء .

ومشهد النجوم في السماء جميل . ما في هذا شك . جميل جداً يأخذ بالقلوب . وهو جمال متجدد تتعدد ألوانه بتعدد أوقاته ؛ ويختلف من صباح إلى مساء ، ومن شروق إلى غروب ، ومن الليلة القمرء إلى الليلة الظلماء . ومن مشهد الصفاء إلى مشهد الضباب والسحاب .. بل إنه ليختلف من ساعة لساعة . ومن مرصد لمرصد . ومن زاوية لزاوية .. وكله جمال وكله يأخذ بالألباب .

هذه النجمة الفريدة التي توصف هناك ، وكأنها عين جميلة ، تلمع بالمحبة والتداء !

وهاتان النجمتان المفردتان هناك ، وقد خلصتا من الزحام تتناجيان !

وهذه المجموعات المتضامسة المتناثرة هنا وهناك ، وكأنها في حلقة سمر في مهرجان السماء . وهي تجتمع وتفترق كأنها رفاق ليلة في مهرجان !

وهذا القمر الحالم الساهي ليلة . والزاهي المزهو ليلة . والمنكسر الخفيض ليلة . والوليد المتفتح للحياة ليلة . والفاني الذي يدلف للفناء ليلة .. !

وهذا الفضاء الواسع الذي لا يمل البصر امتداده ، ولا يبلغ البصر آماده .  
إنه الجمال . الجمال الذي يملك الإنسان أن يعيشه ويتملاه ، ولكن لا يجد له وصفاً فيما يملك من الألفاظ  
والعبارات !

والقرآن يوجه النفس إلى جمال السماء ، وإلى جمال الكون كله ، لأن إدراك جمال الوجود هو أقرب وأصدق  
وسيلة لإدراك جمال خالق الوجود . وهذا الإدراك هو الذي يرفع الإنسان إلى أعلى أفق يمكن أن يبلغه ، لأنه  
حينئذ يصل إلى النقطة التي يتبأ فيها للحياة الخالدة ، في عالم طليق جميل ، بريء من شوائب العالم الأرضي  
والحياة الأرضية . وإن أسعد لحظات القلب البشري هي اللحظات التي يتقبل فيها جمال الإبداع الإلهي في  
الكون . ذلك أنها هي اللحظات التي تهبط وتمهد له ليتصل بالجمال الإلهي ذاته ويتملاه .

\* \* \*

ويذكر النص القرآني هنا أن هذه المصاييح التي زين الله السماء الدنيا بها هي كذلك ذات وظيفة أخرى :  
« وجعلناها رجوماً للشياطين » .

وقد جربنا في هذه الظلال على قاعدة ألا نتزيد بشيء في أمر الغيبات التي يقص الله علينا طرفاً من خبرها ،  
وأن نقف عند حدود النص القرآني لا نتعده . وهو كاف بذاته لإثبات ما يعرض له من أمور .

فنحن نؤمن أن هناك خلقاً اسمهم الشياطين ، وردت بعض صفاتهم في القرآن ، وسبقت الإشارة إليها في  
هذه الظلال ، ولا نزيد عليها شيئاً ونحن نؤمن أن الله جعل من هذه المصاييح التي تزين السماء الدنيا رجوماً  
للشياطين ، في صورة شهب كما جاء في سورة أخرى : « وحفظاً من كل شيطان مارد » ... « إلا من خطف الخطفة  
فأتبعه شهاب ثاقب » .. كيف ؟ من أي حجم ؟ في أية صورة ؟ كل ذلك لم يقل لنا الله عنه شيئاً ، وليس  
لنا مصدر آخر يجوز استفتاؤه في مثل هذا الشأن . فلنعلم هذا وحده ولثوّن بوقوعه . وهذا هو المقصود . ولو علم  
الله أن هناك خيراً في الزيادة أو الإيضاح أو التفصيل لفصل سبحانه . قلنا نحن نحاول ما لم يعلم الله أن فيه  
خيراً ؟ : في مثل هذا الأمر . أمر رجم الشياطين ؟ !

ثم يستطرد فيما أعده الله للشياطين غير الرجوم :

« وأعدنا لهم عذاب السعير » .

فالرجوم في الدنيا وعذاب السعير في الآخرة لأولئك الشياطين . ولعل مناسبة ذكر هذا ، الذي أعده الله للشياطين  
في الدنيا والآخرة هي ذكر السماء أولاً ، ثم ما يجيء بعد من ذكر الذين كفروا . والعلاقة بين الشياطين والذين  
كفروا علاقة ملحوظة . فلما ذكر مصاييح السماء ذكر اتخاذها رجوماً للشياطين . ولما ذكر ما أعد للشياطين  
من عذاب السعير ذكر بعده ما أعده للذين كفروا من أتباع هؤلاء الشياطين :

« وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير » .

ثم يرسم مشهداً لجهنم هذه ، وهي تستقبل الذين كفروا في غيظ وحقن شديد :

« إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقاً وهي تفور . تكاد تميز من الغيظ ! » .

وجهنم هنا مخلوقة حية ، تكظم غيظها ، فترتفع أنفاسها في شهيق وتفور ؛ ويملاً جوانحها الغيظ فتكاد تتمزق  
من الغيظ الكظيم وهي تنطوي على بغض وكره يبلغ إلى حد الغيظ والحقن على الكافرين !  
والتعبير في ظاهره يبدو مجازاً تصويرياً لحالة جهنم . ولكنه - فيما نحس - يقرر حقيقة . فكل خلقة من خلقات

الله حية ذات روح من نوعها . وكل خليفة تعرف ربها وتسبح بحمده ؛ وتدهش حين ترى الإنسان يكفر بخالقه ، وتغنيظ لهذا الجحود المنكر الذي تنكره فطرته وتنفر منه روحها . وهذه الحقيقة وردت في القرآن في مواضع شتى تشعر بأنها تقرر حقيقة مكونة في كل شيء في هذا الوجود .

فقد جاء بصريح العبارة في القرآن : « تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن ، وإن من شيء إلا يسبح بحمده ، ولكن لا تفقهون تسبيحهم » . . وورد كذلك : « يا جبال أوبي معه والطير » . . وهي تعبيرات صريحة مباشرة لا مجال فيها للتأويل .

كذلك ورد « ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض : ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا : أتينا طائعين » . . مما يحتمل أن يقال فيه إنه مجاز تصويري لحقيقة خضوع السماء والأرض لناموس الله . ولكن هذا التأويل لا ضرورة له . بل هو أبعد من المعنى المباشر الصريح .

ووردت صفة جهنم هذه . كما ورد في موضع آخر تعبير عن دهشة الكائنات وغيظها للشرك بربها : « لقد جئتم شيئاً إداً . تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض ، وتخرب الجبال هداً ، أن دعوا للرحمن ولداً ، وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً » . .

وكل هذه النصوص تشير إلى حقيقة ، حقيقة إيمان الوجود كله بخالقه ، وتسبيح كل شيء بحمده . ودهشة الخلائق وارتياعها لشذوذ الإنسان حين يكفر ، ويشذ عن هذا الموكب ؛ وتحفز هذه الخلائق للانقضاض على الإنسان في غيظ وحنق ؛ كالذي يقطع في عزيز عليه كريم على نفسه ، فيغتاض ويحنق ، ويكاد من الغيظ يتمزق . كما هو حال جهنم وهي : « تفور . تكاد تميز من الغيظ ! » .

كذلك نلمح هذه الظاهرة في خزنة جهنم :

« كلما أتني فيها فوج سألهم خزنتها . ألم يأتكم نذير ؟ » . .

وواضح أن هذا السؤال في هذا الموضع هو للتأنيب والترذيل . فهي مشاركة لجهنم في الغيظ والحنق . كما هي مشاركة لها في التعذيب ، وليس أمر من الترذيل والتأنيب للضائق المكروب !

والجواب في ذلة وانكسار واعتراف بالحق والغفلة ، بعد التبجح والإنكار واتهام الرسل بالضللال :

« قالوا : بلى ! قد جاءنا نذير فكذبنا ، وقلنا : ما نزل الله من شيء . إن أنتم إلا في ضلال كبير . وقالوا : لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير ! » . .

فالذي يسمع أو يعقل ، لا يورد نفسه هذا المورد الوبيء . ولا يجحد بمثل ما جحد به أولئك المناكيد . ولا يسارع باتهام الرسل بالضللال على هذا النحو المتبجح الوقح ، الذي لا يستند في الإنكار إلى دليل . ثم ينكر ويديعي ذلك الادعاء العريض على رسل الله الصادقين يقول : « ما نزل الله من شيء » : إن أنتم إلا في ضلال كبير ! « فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير » . .

والسحق البعد . وهو دعاء عليهم من الله بعد اعترافهم بذنبهم في الموقف الذي لم يؤمنوا به ولم يصدقوا بوقوعه . والدعاء من الله قضاء . فهم مبعدون من رحمته . لا رجاء لهم في مغفرة ، ولا إقالة لهم من عذاب . وهم أصحاب السعير الملائمون له . ويا لها من صحبة ! ويا له من مصير !

وهذا العذاب ، عذاب السعير ، في جهنم التي تشق بأنفاسها وهي تفور ، عذاب شديد مروع حقاً . والله لا يظلم أحداً . ونحسب - والله أعلم - أن النفس التي تكفر بربها - وقد أودع فطرته حقيقة الإيمان ودليله - هي

نفس فرغت من كل خير . كما فرغت من كل صفة تجعل لها اعتباراً في الوجود ، فهي كالحجر الذي توقد به جهنم . وقد انتهت إلى نكسة وارتكاس مكانها هذه النار ، إلى غير نجاة منها ولا فرار !

والنفس التي تكفر بالله في الأرض تظل تنتكس وترتكس في كل يوم تعيشه ، حتى تنتهي إلى صورة بشعة مسيخة شنيعة ، صورة منكرة جهنمية نكرة . صورة لا يماثلها شيء في هذا الكون في بشاعتها ومسختها وشاعتها . فكل شيء روحه مؤمنة ، وكل شيء يسبح بحمده ، وكل شيء فيه هذا الخير ، وفيه هذه الوشيعة التي تشده إلى محور الوجود . ما عدا هذه النفوس الشاردة المفلتة من أواصر الوجود ، الآبدة الشريرة ، الجاسية الممسوخة النفور . فأى مكان في الوجود كله تنتهي إليه ، وهي مبتوة الصلة بكل شيء في الوجود ؟ إنها تنتهي إلى جهنم المتغيطة المتلظطة ، الحارقة ، المهذرة لكل معنى ولكل حق ولكل كرامة ؛ بعد أن لم يعد لتلك النفوس معنى ولا حق ولا كرامة !

والمألوف في سياق القرآن أن يعرض صفحتين متقابلتين في مشاهد القيامة . فهو يعرض هنا صفحة المؤمنين في مقابل صفحة الكافرين ، تمتة لمدلول الآية الثانية في السورة : « ليلوكم أيكم أحسن عملاً » .. بذكر الجزاء بعد ذكر الابتلاء :

« إن الذين يخشون ربهم بالغيب ، لهم مغفرة وأجر كبير » ..

والغيب المشار إليه هنا يشمل خشيتهم لربهم الذي لم يروه ، كما يشمل خشيتهم لربهم وهم في خفية عن الأعين ، وكلاهما معنى كبير ، وشعور نظيف ، وإدراك بصير . يؤهل لهذا الجزاء العظيم الذي يذكره السياق في إجمال : وهو المغفرة والتكفير ، والأجر الكبير .

ووصل القلب بالله في السر والخفية ، وبالغيب الذي لا تطلع عليه العيون ، هو ميزان الحساسية في القلب البشري وضمانة الحياة للضمير . قال الحافظ أبو بكر البزار في مسنده : حدثنا طالوت بن عباد ، حدثنا الحارث بن عبيد ، عن ثابت ، عن أنس ، قال : قالوا : يا رسول الله إنا نكون عندك على حال ، فإذا فارقتك كنا على غيره . قال : « كيف أنتم وربكم ؟ » قالوا : الله ربنا في السر والعانية . قال : « ليس ذلكم التفاق » ..

فالصلة بالله هي الأصل . فتى انعقدت في القلب فهو مؤمن صادق موصول .

• • •

وهذه الآية السابقة تربط ما قبلها في السياق بما بعدها ، في تقرير علم الله بالسر والجهر ، وهو يتحدث البشر وهو الذي خلق نفوسهم ، ويعلم مداخلها ومكانها ، التي أودعها إياها :

« وأسروا قولكم أو أجهروا به ، إنه علم بذات الصدور . ألا يعلم من خلق ؛ وهو اللطيف الخبير ؟ » . أسروا أو أجهروا فهو مكتشف لعلم الله سواء . وهو يعلم ما هو أخفى من الجهر والسر . « إنه علم بذات الصدور » التي لم تقارق الصدور ! علم بها ، فهو الذي خلقها في الصدور ، كما خلق الصدور ! « ألا يعلم من خلق ؟ » ألا يعلم وهو الذي خلق ؟ « وهو اللطيف الخبير ؟ » الذي يصل علمه إلى الدقيق الصغير والخفي المستور .

إن البشر وهم يحاولون التخفي من الله بحركة أوسر أو نية في الضمير ، بيدون مضحكين ! فالضمير الذي يخفون فيه نيته من خلق الله ، وهو يعلم دروبه وخفياه . والنية التي يخفونها هي كذلك من خلقه وهو يعلمها ويعلم أين تكون . فإذا يخفون ؟ وأين يستخفون ؟

والقرآن يعنى بتقرير هذه الحقيقة في الضمير . لأن استقرارها فيه ينشئ له إدراكاً صحيحاً للأمر . فوق ما يودعه هناك من بقطة وحساسة وتقوى ، تناط بها الأمانة التي يحملها المؤمن في هذه الأرض . أمانة العقيدة وأمانة العدالة ، وأمانة التجرد لله في العمل والنية . وهو لا يتحقق إلا حين يستيقظ القلب أنه هو وما يكمن فيه من سرورية هومن خلق الله الذي يعلمه الله . وهو اللطيف الخبير .

عندئذ يتقي المؤمن النية المكنونة ، والمهاجس الدفين ، كما يتقي الحركة المنظورة ، والصوت الجهر . وهو يتعامل مع الله الذي يعلم السر والجهر ، الله الذي خلق الصدور فهو يعلم ما في الصدور .

° ° °

ثم ينتقل بهم السياق من ذوات أنفسهم التي خلقها الله ، إلى الأرض التي خلقها لهم ، وذلكها وأودعها أسباب الحياة :

« هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً ، فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه ، وإليه النشور » ..

والناس لطول ألفتهم لحياتهم على هذه الأرض ، وسهولة استقرارهم عليها ، وسيرهم فيها ، واستغلالهم لثربتها ومائها وهوائها وكنوزها وقواها وأرزاقها جميعاً .. ينسون نعمة الله في تذليلها لهم وتسخيرها . والقرآن يذكرهم هذه النعمة الهائلة ، ويصبرهم بها ، في هذا التعبير الذي يدرك منه كل أحد وكل جيل بقدر ما ينكشف له من علم هذه الأرض الذلول .

والأرض الذلول كانت تعني في أذهان المخاطبين القدامى ، هذه الأرض المذلة للسير فيها بالقدم وعلى الدابة ، وبالفلك التي تمخر البحار . والمذلة للزرع والجني والحصاد . والمذلة للحياة فيها بما تحويه من هواء وماء وتربة تصلح للزرع والإنبات .

وهي مدلولات مجملة يفصلها العلم – فيما اهتدى إليه حتى اليوم – تفصيلاً يمد في مساحة النص القرآني في الإدراك .

فما يقوله العلم في مدلول الأرض الذلول : إن هذا الوصف : « ذلولاً » .. الذي يطلق عادة على الدابة ، مقصود في إطلاقه على الأرض ! فالأرض هذه التي نراها ثابتة مستقرة ساكنة ، هي دابة متحركة .. بل راحمة راکضة مهطعة !! وهي في الوقت ذاته ذلول لا تلقي براكبها عن ظهرها ، ولا تتعثر خطاها ، ولا تخضه وتهزه وترهقه كالدابة غير الذلول ! ثم هي دابة حلوب مثلما هي ذلول !

إن هذه الدابة التي نركبها تدور حول نفسها بسرعة ألف ميل في الساعة ، ثم تدور مع هذا حول الشمس بسرعة حوالي خمسة وستين ألف ميل في الساعة . ثم تركض هي والشمس والمجموعة الشمسية كلها بمعدل عشرين ألف ميل في الساعة ، مبتعدة نحو برج الجبار في السماء .. ومع هذا الركض كله يبقى الإنسان على ظهرها آمناً مستريحاً مطمئناً معافى لا تنمزق أوصاله ، ولا تتناثر أشلائه ، بل لا يرتج مخه ولا يدوخ ، ولا يقع مرة عن ظهر هذه الدابة الذلول !

وهذه الحركات الثلاث لها حكمة . وقد عرفنا أثر اثنتين منها في حياة هذا الإنسان ، بل في الحياة كلها على ظهر هذه الأرض . فدورة الأرض حول نفسها هي التي ينشأ عنها الليل والنهار . ولو كان الليل سرمداً لجمدت الحياة كلها من البرد ، ولو كان النهار سرمداً لاحتقرت الحياة كلها من الحر .. ودورتها حول الشمس هي التي تنشأ عنها الفصول . ولودام فصل واحد على الأرض ما قامت الحياة في شكلها هذا كما أرادها الله . أما الحركة الثالثة –



فلم يكشف ستار الغيب عن حكمها بعد . ولا بد أن لها ارتباطاً بالتناسق الكوني الكبير .

وهذه الدابة الذلول التي تتحرك كل هذه الحركات الهائلة في وقت واحد ، ثابتة على وضع واحد في أثناء الحركة - يحدده ميل محورها بمقدار ٢٣,٥° لأن هذا الميل هو الذي تنشأ عنه الفصول الأربعة مع حركة الأرض حول الشمس ، والذي لو اختلف في أثناء الحركة لاختلت الفصول التي ترتب عليها دورة النبات بل دورة الحياة كلها في هذه الحياة الدنيا !

والله جعل الأرض ذلولاً للبشر بأن جعل لها جاذبية تشدهم إليها في أثناء حركاتها الكبرى ، كما جعل لها ضغطاً جويّاً يسمح بسهولة الحركة فوقها . ولو كان الضغط الجوي أثقل من هذا لتعذر أو تعسر على الإنسان أن يسير ويتنقل - حسب درجة ثقل الضغط - فإما أن يسحقه أو يعوقه . ولو كان أخف لاضطربت خطى الإنسان أو لانفجرت تجاوبه لزيادة ضغطه الذاتي على ضغط الهواء حوله ، كما يقع لمن يرتفعون في طبقات الجو العليا بدون تكييف لضغط الهواء !

والله جعل الأرض ذلولاً ببسط سطحها وتكوين هذه التربة اللينة فوق السطح . ولو كانت صخوراً صلبة - كما يفترض العلم بعد بروتها وتجمدها - لتعذر السير فيها ، ولتعدّر الإنبات . ولكن العوامل الجوية من هواء وأمطار وغيرها هي التي فتت هذه الصخور الصلبة ، وأنشأ الله بها هذه التربة الخصبة الصالحة للحياة . وأنشأ ما فيها من النبات والأرزاق التي يحلبها راكبو هذه الدابة الذلول !

والله جعل الأرض ذلولاً بأن جعل الهواء المحيط بها محتوياً للعناصر التي تحتاج الحياة إليها ، بالنسب الدقيقة التي لو اختلفت ما قامت الحياة ، وما عاشت إن قدر لها أن تقوم من الأساس . فنسبة الأكسجين فيه هي ٢١ ٪ . تقريباً ونسبة الأوزون أو النتروجين هي ٧,٨ ٪ تقريباً والبقية من ثاني أكسيد الكربون بنسبة ثلاثة أجزاء من عشرة آلاف وعناصر أخرى . وهذه النسب هي اللازمة بالضبط لقيام الحياة على الأرض !

والله جعل الأرض ذلولاً بآلاف من هذه الموافقات الضرورية لقيام الحياة . . ومنها حجم الأرض وحجم الشمس والقمر ، وبعد الأرض عن الشمس والقمر . ودرجة حرارة الشمس . وسمك قشرة الأرض . ودرجة سرعتها . وميل محورها . ونسبة توزيع الماء واليابس فيها . وكثافة الهواء المحيط بها . إلى آخره . . إلى آخره . وهذه الموافقات مجتمعة هي التي جعلت الأرض ذلولاً . وهي التي جعلت فيها رزقاً ، وهي التي سمحت بوجود الحياة ، وبجياة هذا الإنسان على وجه خاص .

والنص القرآني يشير إلى هذه الحقائق ليعيها كل فرد وكل جيل بالقدر الذي يطيق . والقدر الذي يبلغ إليه علمه وملاحظته ، ليشعر بيد الله - الذي بيده الملك - وهي تتولاه وتتولى كل شيء حوله ، وتذلّل له الأرض ، وتحفظه وتحفظها . ولو تراخت لحظة واحدة عن الحفظ لاختل هذا الكون كله وتحطم بمن عليه وما عليه ! فإذا استيقظ ضميره لهذه الحقيقة الهائلة أذن له الخالق الرحمن الرحيم بالمشي في مناكبها والأكل من رزقه فيها : « فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه » .

والمناكب المرتفعات ، أو الجوانب . وإذا أذن له بالمشي في مناكبها فقد أذن له بالمشي في سهولها وبطاحها من باب أولى . فنتى أذن له في الشمس منها فقد أذن له في الذلول !

والرزق الذي فيها كله من خلقه ، وكله من ملكه . وهو أوسع مدلولاً مما يتبادر إلى أذهان الناس من كلمة الرزق . فليس هو المال الذي يعده أحدهم في يده ، ليحصل به على حاجياته ومتاعه . إنما هو كل ما أودعه الله هذه الأرض ، من أسباب الرزق ومكوناته . وهي في الأصل ترجع إلى طبيعة تكوين الأرض من عناصرها التي

تكونت منها ، وطبيعة تقسم هذه العناصر بهذه النسب التي وجدت بها . ثم القدرة التي أودعها الله النبات والحيوان - ومنه الإنسان - على الانتفاع بهذه العناصر .

وفي اختصار نشير إلى أطراف من حقيقة الرزق بهذا المعنى :

« تعتمد حياة كل نبات كما هو معروف على المقادير التي تكاد تكون متناهية في الصغر من ثاني أكسيد الكربون الموجود في الهواء ، والتي يمكن القول بأنها تنقسمها . ولكي نوضح هذا التفاعل الكيماوي المركب المختص بالتركيب الضوئي بأبسط طريقة ممكنة نقول : « إن أوراق الشجر هي رئات . وإن لها القدرة في ضوء الشمس على تجزئة ثاني أكسيد الكربون العنيد إلى كربون وأكسجين . وبعبير آخر يلفظ الأكسجين ويحتفظ بالكربون متحداً مع هيدروجين الماء الذي يستمدّه النبات من جذوره ( حيث يفصل الماء إلى هيدروجين وأكسجين ) . بكمياء سحرية تصنع الطبيعة من هذه العناصر سكرأ أوسليولوزا ومواد كيميائية أخرى عديدة ، وفواكه وأزهارا . ويغذي النبات نفسه ، وينتج فائضاً يكفي لتغذية كل حيوان على وجه الأرض . وفي الوقت نفسه يلفظ النبات الأكسجين الذي تنسمه والذي بدوره تنتهي الحياة بعد خمس دقائق .

« وهكذا نجد أن جميع النباتات والغابات والأعشاب وكل قطعة من الطحلب ، وكل ما يتعلق بمياه الزرع ، تبني تكوينها من الكربون والماء على الأخص . والحيوانات تلتفظ ثاني أكسيد الكربون ، بينما تلتفظ النباتات الأكسجين . ولو كانت هذه المقايضة غير قائمة ، فإن الحياة الحيوانية أو النباتية كانت تستنفد في النهاية كل الأكسجين ، أو كل ثاني أكسيد الكربون تقريباً . ومتى انقلب التوازن تماماً ذوى النبات أو مات الإنسان ، فيلحق به الآخر وشيكاً . وقد اكتشف أخيراً أن وجود ثاني أكسيد الكربون بمقادير صغيرة هو أيضاً ضروري لمعظم حياة الحيوان ، كما اكتشف أن النباتات تستخدم بعض الأكسجين .

« ويجب أن يضاف الهيدروجين أيضاً ، وإن كنا لا تنسمه . فبدون الهيدروجين كان الماء لا يوجد . ونسبة الماء من المادة الحيوانية أو النباتية هي كبيرة لدرجة تدعو إلى الدهشة ولا غنى عنه مطلقاً »<sup>١</sup> .

وهناك دور الأزوت أو النتروجين في رزق الأرض .

« وبدون النتروجين في شكل ما لا يمكن أن ينمو أي نبات من النباتات الغذائية . وإحدى الوسيطتين اللتين يدخل بها النتروجين في التربة الزراعية هي طريق نشاط جراثيم « بكتريا » معينة تسكن في جذور النباتات البقلية ، مثل البرسيم والحمص والبسلة والبقول وكثير غيرها . وهذه الجراثيم تأخذ نتروجين الهواء وتحيله إلى نتروجين مركب قابل لأن يمتصه النبات وحين يموت النبات يبقى بعض هذا النتروجين المركب في الأرض .

« وهناك طريقة أخرى يدخل بها النتروجين إلى الأرض . وذلك عن طريق عواصف الرعد . وكلما ومض برق خلال الهواء ، وحد بين قدر قليل من الأكسجين وبين النتروجين ، فيسقطه المطر إلى الأرض كنتروجين مركب<sup>٢</sup> ( أي في الصورة التي يستطيع النبات امتصاصها لأنه لا يقدر على امتصاص النتروجين الخالص من الهواء ونسبته فيه حوالي ٧٨٪/ كما أسلفنا ) .

والأزرق المخبوء في جوف الأرض من معادن جامدة وسائله كلها ترجع إلى طبيعة تكوين الأرض والأحوال التي لا يستبها . ولا نطيل شرحها . فالرزق في ضوء هذه البيانات السريعة أوسع مدلولاً مما يفهمه الناس من هذا

(١) كتاب : العلم يدعو للإيمان ترجمة محمود صالح الفلكي ص ٧٠ - ٧١ .

(٢) المصدر نفسه ص ٧٦ - ٧٧ .

اللفظ . وأعمق أسباباً في تكوين الأرض ذاتها وفي تصميم الكون كله . وحين يأذن الله للناس في الأكل منه ، فهو يتفضل بتسخيره لهم وتيسير تناوله ؛ كما يمنح البشر القدرة على تناولها والانتفاع بها : « فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه » ..

وهو محدود بزمان مقدر في علم الله وتدبيره زمن الابتلاء بالموت والحياة ، وبكل ما يسخره الله للناس في هذه الحياة . فإذا انقضت فترة الابتلاء كان الموت وكان ما بعده :  
« وإليه النشور » ..

إليه .. وإلا فإلى أين إن لم يكن إليه ؟ والملك بيده ؟ ولا ملجأ منه إلا إليه ؟ وهو على كل شيء قدير ؟

° ° °

والآن - وبينما هم في هذا الأمان على ظهر الأرض الذلول ، وفي هذا اليسر الفائض بإذن الله وأمره .. الآن يهز هذه الأرض الساكنة من تحت أقدامهم هزاً ويرجها رجاً فإذا هي تمور . ويثير الجو من حولهم فإذا هو حاصب يضرب الوجوه والصدور .. يهز هذه الأرض في حسيب ويثير هذا الحاصب في تصورهم ، ليتهبوا من غفلة الأمان والقرار ، ويمدوا بأبصارهم إلى السماء وإلى الغيب . ويعلقوا قلوبهم بقدر الله :  
« أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور ؟ أم أأمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصباً ؟ فستعلمون كيف نذير ! ولقد كذب الذين من قبلهم . فكيف كان نكير ؟ » ..

والبشر الذين يعيشون على ظهر هذه الدابة الذلول ، ويحبونها فينالون من رزق الله فيها نصيبهم المعلوم ! يعرفون كيف تتحول إلى دابة غير ذلول ولا حلوب ، في بعض الأحيان ، عندما يأذن الله بأن تضطرب قليلاً فيرتج كل شيء فوق ظهرها أو يتحطم ! ويمور كل ما عليها ويضطرب فلا تمسكه قوة ولا حيلة . ذلك عند الزلازل والبراكين ، التي تكشف عن الوحش الجامع ، الكامن في الدابة الذلول ، التي يمسك الله بزمامها فلا تنور إلا بقدر ، ولا تجمع إلا ثواني معدودات يتحطم فيها كل ما شيد الإنسان على ظهرها ؛ أو يغوص في جوفها عندما تفتح أحد أفواها وتخسف كسفة منها .. وهي تمور .. البشر ولا يملكون من هذا الأمر شيئاً ولا يستطيعون . وهم يبدون في هول الزلازل والبركان والخسف كالقثران الصغيرة محصورة في قفص الرعب ، من حيث كانت آمنة لاهية غافلة عن القدرة الكبرى المسكة بالزمام !

والبشر كذلك يشهدون العواصف الجامحة الحاصبة التي تدمر وتحرق ، وتحرق وتصفق . وهم بإزائها ضعاف عاجزون ، بكل ما يعلمون وما يعملون . والعاصفة حين تزار وتضرب بالحصي الحاصب ، وتأخذ في طريقها كل شيء في البر أو البحر أو الجوى يقف الإنسان أمامها صغيراً هزلاً حسيراً حتى يأخذ الله بزمامها فتلس وتلين ! والقرآن يذكر البشر الذين يمدعهم سكون الدابة وسلامة مقادتها ، ويفرهم الأمان بنسيان خالقها ومروضاها . يذكرهم بهذه الجمحات التي لا يملكون من أمرها شيئاً . والأرض الثابتة تحت أقدامهم ترتج وتمور ، وتقذف بالحمم وتفور . والريح الرخاء من حولهم تتحول إلى إعصار حاصب لا تقف له قوة في الأرض من صنع البشر ، ولا تصده عن التدمير .. يحذرهم وينذرهم في تهديد يرج الأعصاب ويخلخل المفاصل .

« فستعلمون كيف نذير ! ! ! »

ويضرب لهم الأمثلة من واقع البشرية ، ومن وقائع الغابرين المكذبين :

« ولقد كذب الذين من قبلهم ، فكيف كان نكير ؟ » ..

والنكير الإنكار وما يتبعه من الآثار ، ولقد أنكر الله من كذبوا قلوبهم أن يكذبوا . وهو يأثم : « فكيف كان نكير ؟ » وهم يعلمون كيف كان ، فقد كانت آثار الدمار والخراب تصف لهم كيف كان هذا النكير ! وكيف كان ما أعقبه من تدمير !

والأمان الذي ينكره الله على الناس ، هو الأمان الذي يوحى بالغفلة عن الله وقدرته وقدره ، وليس هو الاطمئنان إلى الله ورعايته ورحمته . فهذا غير ذلك . فالؤمن يطمئن إلى ربه ، ويرجو رحمته وفضله . ولكن هذا لا يقوده إلى الغفلة والنسيان والانغمار في غمرة الأرض ومتاعها ، إنما يدعو إلى التطلع الدائم ، والحياء من الله ، والحذر من غضبه ، والتوقي من المخبوء في قدره ، مع الإخبات والاطمئنان .

قال الإمام أحمد - بإسناده - عن عائشة - رضي الله عنها - أنها قالت : « ما رأيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مستجمعاً صاحكاً حتى أرى منه لهواته . إنما كان يتشم . وقالت : كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذا رأى غيباً أو ريحاً عرف ذلك في وجهه . قالت : يا رسول الله إن الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر ، وأراك إذا رأيته عرفت في وجهك الكراهية . فقال رسول الله - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - : « يا عائشة ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب ؟ قد عذب قوم بالريح . وقد رأى قوم العذاب وقالوا ، هذا عارض ممطرنا »

فهذا هو الإحساس اليقظ الدائم بالله وقدره ، وبما قصه القرآن من هذا في سيره . وهو لا ينافي الاطمئنان إلى رحمة الله وتوقع فضله .

ثم هو إرجاع جميع الأسباب الظاهرة إلى السبب الأول . ورد الأمر بحاله وكليته إلى من بيده الملك وهو على كل شيء قدير . فالحسف والحاصب ، والبراكين والزلازل ، والعواصف ، وسائر القوى الكونية والظواهر الطبيعية ليس في أيدي البشر من أمرها شيء . إنما أمرها إلى الله . وكل ما يذكره البشر عنها ففروض يحاولون بها تفسير حدوثها ، ولكنهم لا يتدخلون في إحداثها ، ولا يحمون أنفسهم منها . وكل ما ينشئون على ظهر الأرض تذهب به رجفة من رجفاتها ، أو أعصار من أعاصيرها ، كما لو كان لعباً من الورق ! فأولى لهم أن يتوجهوا في أمرها إلى خالق هذا الكون ، ومنشئ نواميسه التي تحكم هذه الظواهر ، ومودعه القوى التي يتجلى جانب منها في هذه الأحداث . وأن يتطلعوا إلى السماء - حيث هي رمز للعلو - فيتذكروا الله الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير .

إن الإنسان قوي بالقدر الذي وهبه الله من القوة . عالم بالقدر الذي أعطاه الله من العلم . ولكن هذا الكون الهائل زمامه في يد خالقه ، ونواميسه من صنعته ، وقواه من إمداده . وهذه القوى تسير وفق نواميسه في حدود قدره . وما يصيب الإنسان منها مقدور مرسوم ، وما يعلمه الإنسان منها مقدور معلوم . والوقائع التي تحدث تقف هذا الإنسان بين الحين والحين أمام قوى الكون الهائلة مكتوف اليدين حسيراً ، ليس له إلا أن يتذكر خالق هذه القوى ومروضا ؛ وإلا أن يتطلع إلى عونه ليواجهها ، ويسخرها هو مقدوره أن يسخره منها .

وحين ينسى هذه الحقيقة ، ويغتر وينخدع بما يقسم الله له من العلم ومن القدرة على تسخير بعض قوى الكون ، فإنه يصبح مخلوقاً مسيخاً مقطوعاً عن العلم الحقيقي الذي يرفع الروح إلى مصدرها الرفيع ؛ ويخلد إلى الأرض في عزلة عن روح الوجود ! بينا العالم المؤمن يركع في مهرجان الوجود الجميل ، ويتصل ببارئ الوجود

الجليل . وهو متاع لا يعرفه إلا من ذاق حلاوته حين يكتبها الله له !

على أن قوى الكون الهائلة تلجئ الإنسان إلى موقف العجز والتسليم سواء رزق هذه الحلاوة أم حرّمها . فهو يكشف ما يكشف ، ويبعد ما يبعد ، ويبلغ من القوة ما يبلغ . ثم يواجه قوى الكون في انكسار الحسير الصغير الهزيل . وقد يستطيع أن يتغلب العاصفة أحياناً ولكن العاصفة تمضي في طريقها لا يملك وقفها . ولا يملك أن يقف في طريقها ، وقصارى ما يبلغ إليه جهده وعلمه أن يحتمي من العاصفة ويتزوي عنها ! .. أحياناً .. وأحياناً تقتله وتسحقه من وراء جدرانه وبنيانه . وفي البحر تتناوح الأمواج والأعاصير فإذا أكبر سفائنه كلعبة الصبي في مهب الرياح . أما الزلزال والبركان فهما هما من أول الزمان إلى آخر الزمان ! فليس إلا العمى هو الذي يهيم لبعض التأكيد أن « الإنسان يقوم وحده » في هذا الوجود ، أو أنه سيد هذا الوجود !

إن الإنسان مستخلف في هذه الأرض بإذن الله . موهوب من القوة والقدرة والعلم ما يشاء الله . والله كآله وحاميه . والله رازقه ومعطيه . ولو تخلّث عنه يد الله لحظّة لسحقته أقلّ القوى المسخرة له ، ولأكله الذباب وما هو أصغر من الذباب . ولكنه بإذن الله ورعايته مكّن . ومحفوظ . وكريم . فليعرف من أين يستمد هذا التكريم ، وذلك الفضل العظيم .

• • •

بعدئذ ينتقل بهم من لمة التهديد والنذير ، إلى لمة التأمل والتفكير . في مشهد يروونه كثيراً ، ولا يتدبرونه إلا قليلاً . وهو مظهر من مظاهر القدرة ، وأثر من آثار التدبير الإلهي اللطيف .

« أُولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ؟ ما يمسكهن إلا الرحمن ، إنه بكل شيء بصير » ..

وهذه الخارقة التي تقع في كل لحظة ، تنسنا بوقوعها المتكرر ، ما تشي به من القدرة والعظمة . ولكن تأمل هذا الطير ، وهو يصف جناحيه ويفردهما ، ثم يقبضهما ويضمهما ، وهو في الحالين : حالة الصف الغالبة ، وحالة القبض العارضة يظل في الهواء ، يسبح فيه سباحة في يسر وسهولة ، ويأتي بحركات يخيل إلى الناظر أحياناً أنها حركات استعراضية لجمال التحليق والانقضاض والارتفاع !

تأمل هذا المشهد ، ومتابعة كل نوع من الطير في حركاته الخاصة بنوعه ، لا يمل النظر ، ولا يمل القلب . وهو متعة فوق ما هو ماثار تفكير وتدبر في صنع الله البديع ، الذي يتعاقب فيه الكمال والجمال !

والقرآن يشير بالنظر إلى هذا المشهد المثير :

« أُولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ؟ » ..

ثم يوحى بما وراءه من التدبير والتقدير :

« ما يمسكهن إلا الرحمن » ..

والرحمن يمسكهن بنواميس الوجود المتناسقة ذلك التناسق العجيب ، الملحوظ فيه كل صغيرة وكبيرة ، المحسوب فيه حساب الخلية والذرة .. النواميس التي تكفل توافر آلاف الموافقات في الأرض والجو وخلقة الطير ، لتتم هذه الخارقة وتكرر ، وتظل تتكرر بانتظام .

والرحمن يمسكهن بقدرة القادرة التي لا تكل ، وعنايته الحاضرة التي لا تغيب . وهي التي تحفظ هذه النواميس أبداً في عمل وفي تناسق وفي انتظام . فلا تفترو ولا تخلّ ولا تضطرب غمضة عين إلى ما شاء الله : « ما يمسكهن إلا الرحمن » .. بهذا التعبير المباشر الذي يشي بيد الرحمن تمسك بكل طائر وبكل جناح ، والطائر صاف جناحيه

وحين يقبض ، وهو معلق في الفضاء !

« إنه بكل شيء بصير » ..

يبصره ويراه . ويبصر أمره ويغيره . ومن ثم يهيئ وينسق ، ويعطي القدرة ، ويرعى كل شيء في كل لحظة ، رعاية الخبير البصير .

وإمسك الطير في الجو كما إمساك الدواب على الأرض الطائرة بما عليها في الفضاء . كما إمساك سائر الأجرام التي لا يمسكها في مكانها إلا الله . ولكن القرآن يأخذ بأبصار القوم وقلوبهم إلى كل مشهد يملكون رؤيته وإدراكه ؛ ويلمس قلوبهم بإيعاءاته وإيقاعاته . وإلا فصنعة الله كلها إعجاز وكلها إبداع ، وكلها إيعاء وكلها إيقاع . وكل قلب وكل جيل يدرك منها ما يطيقه ، ويلحظ منها ما يراه . حسب توفيق الله .

• • •

ثم يلمس قلوبهم لمسة أخرى تعود بهم إلى مشهد البأس والفرع من الخسف والحاصب ، بعد أن جال بهم هذه الجولة مع الطير السابح الآمن . فيردد قلوبهم بين شتى اللمسات عوداً وبدءاً كما يعلم الله من أثر هذا الترداد في قلوب العباد :

« أم من هذا الذي هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن ؟ إن الكافرون إلا في غرور » ..

وقد خوفهم الخسف وخوفهم الحاصب ، وذكرهم مصائر الغابرين الذين أنكر الله عليهم فأصابهم التدمير . فهو يعود ليسألهم : من هو هذا الذي ينصرهم ويحميهم من الله ، غير الله ؟ من هو هذا الذي يدفع عنهم بأس الرحمن إلا الرحمن ؟ « إن الكافرون إلا في غرور » .. غرور يهيئ لهم أنهم في أمن وفي حماية وفي اطمئنان ، وهم يتعرضون لغضب الرحمن وبأس الرحمن ، بلا شفاعاة لهم من إيمان ولا عمل يستتزل رحمة الرحمن . ولمسة أخرى في الرزق الذي يستمتعون به ، وينسون مصدره ، ثم لا يحشون ذهابه ، ثم يلجون في التبعج والإعراض :

« أم من هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه ؟ بل لجوا في عتو ونفور » ..

ورزق البشر كله - كما سلف - معقود بإرادة الله في أول أسبابه ، في تصميم هذا الكون وفي عناصر الأرض والجو . وهي أسباب لا قدرة للبشر عليها إطلاقاً ، ولا تتعلق بعملهم بتاتاً . فهي أسبق منهم في الوجود ، وهي أكبر منهم في الطاقة ، وهي أقدر منهم على محو كل أثر للحياة حين يشاء الله .

فن يرزق البشر إن أمسك الماء ، أو أمسك الهواء ، أو أمسك العناصر الأولى التي منها ينشأ وجود الأشياء ؟ إن مدلول الرزق أوسع مدى وأقدم عهداً وأعمق جنوراً مما يتبادر إلى الذهن عندما يسمع هذه الكلمة . ومرد كل صغيرة وكبيرة فيه إلى قدرة الله وقدره ، وإرساله للأسباب وإمسакها حين يشاء .

وفي هذا المدلول الكبير الواسع العميق تنطوي سائر المدلولات القريبة لكلمة الرزق ، مما يتوهم الإنسان أنها من كسبه وفي طوقه ، كالعامل ، والإبداع ، والإنتاج .. وكلها مرتبطة بقيام الأسباب والعناصر الأولى من جهة ومتوقفة على هبة الله للأفراد والأمم من جهة أخرى . فأني نفس يتنفسه العامل ، وأي حركة يتحركها ، إلا من رزق الله ، الذي أنشأه ، ومنحه القدرة والطاقة ، وخلق له النفس الذي يتنفسه ، والمادة التي تحترق في جسده فتمنحه القدرة على الحركة ؟ وأي جهد عقلي يبذله مخترع إلا وهو من رزق الله الذي منحه القدرة على التفكير والإبداع ؟ وأي إنتاج ينتجه عامل أو مبدع إلا في مادة هي من صنع الله ابتداءً ، وإلا بأسباب كونية

وإنسانية هي من رزق الله أصلاً ؟ .. « أم من هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه ؟ ! » ..  
« بل لجوا في عتو ونفور » .

والتعبير يرسم خدأً مصعراً ، وهيئة متبجحة ، بعد تقريره لحقيقة الرزق ، وأنهم عيال على الله فيه ، وأقبح العتو والنفور ، والتبجح والتصعير ، ما يقع من العيال في مواجهة المطعم الكاسي ، الرازق العائل وهم خلو من كل شيء إلا ما يتفضل به عليهم . وهم بعد ذلك عاتون معرضون وقحاء !

وهو تصوير لحقيقة النفوس التي تعرض عن الدعوة إلى الله في طغيان عات ، وفي إعراض نافر ، وتنسى أنها من صنع الله ، وأنها تعيش على فضله ، وأنها لا تملك من أمر وجودها وحياتها ورزقها شيئاً على الإطلاق !

\* \* \*

ولقد كانوا - مع هذا - يتهمون النبي - صلى الله عليه وسلم - ومن معه بالضلال ، ويزعمون لأنفسهم أنهم أهدى سبيلاً ! كما يصنع أمثالهم مع الدعاة إلى الله في كل زمان . ومن ثم يصور لهم واقع حالهم وحال المؤمنين في مشهد حي يحسم حقيقة الحال :

« أفن يمشي مكباً على وجهه أهدى ؟ أم من يمشي سوياً على صراط مستقيم ؟ » .. والذي يمشي مكباً على وجهه إما أن يكون هو الذي يمشي على وجهه فعلاً لا على رجليه في استقامة كما خلقه الله ، وإما أن يكون هو الذي يعثر في طريقه فينكب على وجهه ، ثم ينهض ليعثر من جديد ! وهذه كتلك حال بائسة تعاني المشقة والعسر والتعثر ، ولا تنتهي إلى هدى ولا خير ولا وصول ! وأين هي من حال الذي يمشي مستقيماً سوياً في طريق لا عوج فيه ولا عثرات ، وهدفه أمامه واضح مرسوم ؟ !

إن الحال الأولى هي حال الشقي المنكود الضال عن طريق الله ، المحروم من هداية ، الذي يصطدم بنواميسه ومخلوقاته ، لأنه يعترضها في سبيله ، ويتخذ له مساراً غير مسارها ، وطريقاً غير طريقها ، فهو أبداً في تعثر ، وأبداً في عناء ، وأبداً في ضلال .

والحال الثانية هي حال السعيد المجلود المهتدي إلى الله ، الممتع بهداه ، الذي يسير وفق نواميسه في الطريق اللاحب المعمور ، الذي يسلكه موكب الإيمان والحمد والتمجيد . وهو موكب هذا الوجود كله بما فيه من أحياء وأشياء .

إن حياة الإيمان هي اليسر والاستقامة والقصد . وحياة الكفر هي العسر والتعثر والضلال . .

فأيها أهدى ؟ وهل الأمر في حاجة إلى جواب ؟ إنما هو سؤال التقرير والإيجاب !

ويتوارى السؤال والجواب ليرأى للقلب هذا المشهد الحي الشاخص المتحرك . . مشهد جماعة يمشون على وجوههم ، أو يتعثرون وينكبون على وجوههم لا هدف لهم ولا طريق . ومشهد جماعة أخرى تسير مرتفعة الهامات ، مستقيمة الخطوات ، في طريق مستقيم ، لهدف مرسوم .

إنه تجسم الحقائق ، وإطلاق الحياة في الصور ، على طريقة القرآن<sup>١</sup> في التعبير بالتصوير . .

\* \* \*

(١) براجع فصل : « طريقة القرآن » . وفصل « التخييل الحي والتجسيم » في كتاب : « التصوير الفني في القرآن » « دار الشروق » .

وعلى ذكر الهدى والضلال ، يذكرهم بما وهبهم الله من وسائل الهدى ، وأدوات الإدراك ثم لم ينتفعوا بها ، ولم يكونوا من الشاكرين :

« قل : هو الذي أنشأكم ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ، قليلاً ما تشكرون » .

وحقيقة أن الله هو الذي أنشأ الإنسان ، حقيقة تلج على العقل البشري ، وتثبت ذاتها بتوكيد يصعب رده . فالإنسان قد وجد - وهو أرفع وأعلم وأقدر ما يعلم من الخلاق - وهو لم يوجد نفسه ، فلا بد أن يكون هناك من هو أرفع وأعلم وأقدر منه أوجده .. ولا مفر من الاعتراف بخالق . فوجود الإنسان ذاته يواجهه بهذه الحقيقة . والممارسة فيها نوع من المماحكة لا يستحق الاحترام .

والقرآن يذكر هذه الحقيقة هنا ليذكر بجانها ما زود الله به الإنسان من وسائل المعرفة :

« وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة » .

وما قابل الإنسان به هذه النعمة : نعمة الإنشاء ونعمة السمع والأبصار والأفئدة :

« قليلاً ما تشكرون » .

والسمع والأبصار معجزتان كبيرتان عرف عنهما بعض خواصهما العجيبة . والأفئدة التي يعبر بها القرآن عن قوة الإدراك والمعرفة ، معجزة أعجب وأغرب . ولم يعرف بعد عنها إلا القليل . وهي سر الله في هذا المخلوق الفريد .. وللعلم الحديث محاولات في معرفة شيء عن معجزتي السمع والبصر نذكر منها لمحة :

« تبدأ حاسة السمع بالأذن الخارجية ، ولا يعلم إلا الله أين تنتهي . ويقول العلم : إن الاهتزاز الذي يحدثه الصوت في الهواء ينقل إلى الأذن ، التي تنظم دخوله ، ليقع على طبلة الأذن . وهذه تنقلها إلى التيه داخل الأذن . » والتيه يشتمل على نوع من الأقتية بين لولبية ونصف مستديرة . وفي القسم اللولبي وحده أربعة آلاف قوس صغيرة متصلة بعصب السمع في الرأس .

« فما طول القوس منها وحجمها ؟ وكيف ركبت هذه الأقواس التي تبلغ عدة آلاف كل منها تركيباً خاصاً ؟ وما الحيز الذي وضعت فيه ؟ ناهيك عن العظام الأخرى الدقيقة المتأوجة . هذا كله في التيه الذي لا يكاد يرى ! وفي الأذن مائة ألف خلية سمعية . وتنتهي الأعصاب بأهداب دقيقة . دقة وعظمة تحير الألباب »<sup>١</sup> .

« ومركز حاسة الإبصار العين ، التي تحتوي على مائة وثلاثين مليوناً من مستقبلات الضوء ، وهي أطراف أعصاب الإبصار . وتتكون العين من الصلبة والقرنية والمشيمة والشبكية .. وذلك بخلاف العدد الهائل من الأعصاب والأوعية »<sup>٢</sup> .

« وتتكون الشبكية من تسع طبقات منفصلة ، والطبقة التي في أقصى الداخل تتكون من أعواد ومخروطات . ويقال : إن عدد الأولى ثلاثون مليون عود ، وعدد الثانية ثلاثة ملايين مخروط . وقد نظمت كلها في تناسب محكم بالنسبة لبعضها البعض وبالنسبة للعدسات .. وعدسة عينيك تختلف في الكثافة ، ولذا تجمع كل الأشعة في بؤرة ، ولا يحصل الإنسان على مثل ذلك في أية مادة من جنس واحد كالزجاج مثلاً »<sup>٣</sup> .

فأما الأفئدة فهي هذه الخاصية التي صار بها الإنسان إنساناً . وهي قوة الإدراك والتمييز والمعرفة التي استخلف

(١) مقول عن كتاب : الله والعلم الحديث للأستاذ عبد الرزاق نوفل ص ٥٧ .

(٢) مقول عن : المصدر السابق ص ٥٨ .

(٣) نقلاً عن كتاب : العلم يدعو للإيمان ترجمة الأستاذ محمود صالح الفلكي ص ١١٣ .



بها الإنسان في هذا الملك العريض . والتي حمل بها الأمانة التي أشفقت من حملها السماوات والأرض والجبال . أمانة الإيمان الاختياري ، والاهتداء الذاتي ، والاستقامة الإرادية على منهج الله القويم<sup>١</sup> ولا يعلم أحد ماهية هذه القوة ، ولا مركزها ، داخل الجسم أو خارجه ! فهي سر الله في الإنسان لم يعلمه أحد سواه . وعلى هذه الهبات الضخمة التي أعطاها الإنسان لينهض بتلك الأمانة الكبرى ، فإنه لم يشكر : « قليلاً ما تشكرون » .. وهو أمر يثير الخجل والحياء عند التذكير به ، كما يذكرهم القرآن في هذا المجال ويذكر كل جاحد وكافر ، لا يشكر نعمة الله عليه ، وهولا يوفى حقها لو عاش للشكر دون سواه !

\* \* \*

ثم يذكرهم أن الله لم ينشئ البشر ويمنحهم هذه الخصائص عبثاً ولا جزافاً لغیر قصد ولا غاية . إنما هي فرصة الحياة للابتلاء . ثم الجزاء في يوم الجزاء :

« قل : هو الذي ذرأكم في الأرض ، وإليه تحشرون » ..

والذرة : الإكثار . ويحمل كذلك معنى الانتشار . والحشر : الجمع بعد النشر في الأرجاء . وهما حركتان متقابلتان من الناحية التصورية ، تقابلهما من الناحية المعنوية . ذلك مشهد للإكثار من الخلق ونشرهم أو نثرهم في الأرض . وهذا مشهد لجمعهم منها وحشرهم بعد النشر والنثر ! ويجمعهما السياق في آية واحدة ، ليتقابل المشهدان في الحس والتصور على طريقة القرآن . ولتذكر البشر وهم منتشرون في الأرض أن هناك غاية هم صاثرون إليها ، هي الجمع والحشر . وأن هناك أمراً وراء هذا ، ووراء الابتلاء بالموت والحياة . ثم يحكي شكهم في هذا الحشر ، وارتياهم في هذا الوعد :

« ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ؟ » ..

وهو سؤال الشاك المستريب . كما أنه سؤال الماحك المتعنت . فإن معرفة موعد هذا الوعد وميقاته لا تقدم ولا تؤخر ؛ ولا علاقة لها بحقيقته ، وهو أنه يوم الجزاء بعد الابتلاء . ويستوي بالقياس إليهم أن يجيء غداً أو أن يجيء بعد ملايين السنين .. فالهمم أنه آت ، وأنهم محشرون فيه ، وأنهم مجازون بما عملوا في الحياة . ومن ثم لم يطلع الله أحداً من خلقه على مواعده ، لأنه لا مصلحة لهم في معرفته ، ولا علاقة لهذا بطبيعة هذا اليوم وحقيقته ، ولا أثر له في التكاليف التي يطالب الناس بها استعداداً للملاقات ، بل المصلحة والحكمة في إخفاء ميقاته عن الخلق كافة ، واختصاص الله بعلم ذلك الموعد ، دون الخلق جميعاً :

« قل إنما العلم عند الله ، وإنما أنا نذير مبين » ..

وهنا يبرز بجلاء فارق ما بين الخالق والمخلوق . وتتجرد ذات الله ووحدانيته بلا شبيه ولا شريك . ويتمحض العلم له سبحانه . ويقف الخلق - بما فيهم الرسل والملائكة<sup>٢</sup> - في مقامهم متأدبين عند مقام الألوهية العظيم :

« قل : إنما العلم عند الله . وإنما أنا نذير مبين » .. وظيفتي الإنذار ، ومهمتي البيان . أما العلم فعند صاحب العلم الواحد بلا شريك .

وبينما هم يسألون في شك ويحاربون في جزم ، يخيل السياق القرآني كأن هذا اليوم الذي يسألون عنه قد جاء ،

(١) راجع تفسير قوله تعالى : إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال ... في ص ٢٨٨٤ - ٢٨٨٦ من الجزء ٢٢ من الظلال .

(٢) في حديث حقيقة الإسلام والإيمان .. سأل جبريل النبي - صلى الله عليه وسلم - عن الساعة ، فقال : « ما السؤل عنها بأعلم من السائل » .. أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي .

والموعد الذي يشكون فيه قد حان ؛ وكأنما هم واجهوه الآن . فكان فيه ما كان :

« فلما رأوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا ، وقيل : هذا الذي كنتم به تدعون ! »

فقد رأوه قريباً موجهاً لهم حاضراً أمامهم دون توقع ودون تمهيد . فسيئت وجوههم ، وبدا فيها الاستياء . ووجه إليهم التائب : « وقيل : هذا الذي كنتم به تدعون .. هذا هو حاضراً قريباً . وهو الذي كنتم تدعون أنه لن يكون ! »

وهذه الطريقة في عرض ما سيكون تتكرر في القرآن ، لمواجهة حالة التكذيب أو الشك بمفاجأة شعورية تصويرية تقف المكذب أو الشاك وجهاً لوجه مع مشهد حاضر لما يكذب به أو يشك فيه .

ثم هي في الوقت ذاته تصور حقيقة . فهذا اليوم كائن في علم الله ، أما خط الزمن بينه وبين البشر فهو قائم بالقياس إلى البشر . وهي مسألة نسبية لا تمثل الحقيقة المجردة كما هي في حساب الله . ولو أذن الله لرأوه اللحظة كما هو في علم الله . فهذا الانتقال المفاجئ لهم من الدنيا إلى الآخرة ، ومن موقف الشك والارتباك إلى موقف المواجهة والمفاجأة ، يشير إلى حقيقة قائمة لو أذن الله بها لانكشفت لهم . في الوقت الذي يصور لهم هذه الحقيقة تصويراً يهز مشاعرهم .

• • •

ولقد كانوا يتربصون بالنبي - صلى الله عليه وسلم - والحفنة المؤمنة التي معه أن يهلكوا فيستريحوا منهم ؛ وكانوا يتواصون بينهم بالصبر عليه حتى يوافيه الأجل ، فتسكن هذه الزوينة التي أثارها الدعوة في صفوفهم . كما كانوا يتبجحون أحياناً فيزعمون أن الله سيهلك محمداً ومن معه لأنهم ضالون ، ولأنهم يكذبون على الله فيما يقولون ! فهنا أمام مشهد الحشر والجزاء ، بينهم إلى أن أميتهم حتى لو تحققت لا تعصمهم هم من عاقبة الكفر والضلال . فأولى لهم أن يتدبروا أمرهم قبل هذا الموعد الذي واجههم به كأنه واقع بهم :

« قل : أرايتم إن أهلكني الله ومن معي أرحمنا ، فمن يجير الكافرين من عذاب أليم ؟ » ..

وهو سؤال يردهم إلى تدبر حالهم ، والتفكير في شأنهم ، وهو الأولى ! فما ينفعهم أن تتحقق أمانيتهم فيهلك الله النبي ومن معه - كما لا ينقذهم بطبيعة الحال أن يرحم الله نبيه ومن معه . والله باق لا يموت . وهو الذي ذرأهم في الأرض وإليه يحشرون ..

ولكنه لا يقول لهم : فمن يجيركم من عذاب أليم ؟ ولا ينص على أنهم كافرون . إنما يلوح لهم بالعذاب الذي ينتظر الكافرين : « فمن يجير الكافرين من عذاب أليم .. وهو أسلوب في الدعوة حكم ، يخوفهم من ناحية ، ويدع لهم فرصة للتراجع عن موقفهم من ناحية . فلوجابهم بأنهم كافرون ، وأنه لا مفر لهم من العذاب الأليم .. فربما جهلوا وحققوا وأخذتهم العزة بالإثم أمام الاتهام المباشر والتهديد .

ففي بعض الحالات يكون أسلوب التلميح أفعال في النفس من أسلوب التصريح !

ثم يترقى من هذه التسوية بين الأمرين ، إلى تقرير موقف المؤمنين من ربهم وقتتهم به وتوكلهم عليه ، مع التلميح إلى اطمئنانهم لإيمانهم ، وقتتهم بهادهم ، وبأن الكافرين في ضلال مبين .

« قل : هو الرحمن آمناً به وعليه توكلنا . فستعلمون من هو في ضلال مبين » ..

وذكر صفة « الرحمن » هنا يشير إلى رحمته العميقة الكبيرة برسوله والمؤمنين معه ؛ فهولن يهلكهم كما يتمنى الكافرون أو كما يدعون .

ويوجه النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى إبراز الصلة التي تربطهم بربهم الرحمن . صلة الإيمان « آمنا به » .. وصلة التوكل « وعليه توكلنا » .. عليه وحده .. والتعبير يشي بالقرى بينهم وبين الرحمن . والله - سبحانه - هو الذي يتفضل على رسوله وعلى المؤمنين فيأذن له بإعلان هذه القرى ، ويوجهه إلى هذا الإعلان . وكأنما ليقول له : لا تخف مما يقوله الكفار . فأنت ومن معك موصولون بي منتسبون إليّ . وأنت مأذون مني في أن تظهر هذه الكرامة ، وهذا المقام ! فقل لهم ... وهذا ود من الله وتكريم ..

ثم ذلك التهديد الملفوف : « فستعلمون من هو في ضلال مبين » .. وهو أسلوب كذلك من شأنه أن يخلخل الإصرار على الجحود ؛ ويدعوهم إلى مراجعة موقفهم مخافة أن يكونوا هم الضالين ! فيتعرضوا للعذاب الذي سبق ذكره في الآية : « فن يجر الكافرين من عذاب أليم ؟ » وفي الوقت ذاته لا يجههم بأنهم ضالون فعلاً ، حتى لا تأخذهم العزة بالإثم . وهو أسلوب في الدعوة يناسب بعض حالات النفوس ..

\* \* \*

وأخيراً يجيء الإيقاع الأخير في السورة يلمح لهم بعذاب الدنيا قبل عذاب الآخرة ، وذلك بحرمانهم من سبب الحياة الأول ، وهو الماء :

« قل : أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماء معين ؟ » ..

والماء الغور : الغائر الذاهب في الأرض لا يقدرون عليه . والمعين : التابع الفاض المتدفق . وهي لمسة قريبة في حياتهم ، إن كانوا ما يزالون يستبعدون ذلك اليوم ويشكون فيه .. والملك بيد الله وهو على كل شيء قدير . فكيف لو توجهت إرادته إلى حرمانهم مصدر الحياة القريب ! ثم يدعهم يتدبرون ما يكون لو أذن الله بوقوع هذا المحذور !

\* \* \*

وهكذا تنتهي هذه السورة ، وينتهي هذا الحشد من الإيقاعات واللمسات ، وهذه الرحلات والجولات . في آفاق وأغوار وأبعاد مترامية الأطراف . وكل آية على وجه التقريب كانت إيقاعاً خاصاً . أو كانت رحلة في عالم مجهول مغيب ، أو منظور لا تلتفت إليه الأنظار والقلوب . إنها سورة ضخمة . سورة أكبر من حجمها وحيزها وعدد آياتها . وكأنما هي سهام تشير إلى بعيد ، ويكاد كل سهم يستقل بكشف عالم جديد !

وهي تبني من قواعد التصور الإسلامي جوانب رئيسية هامة ؛ فهي تقر في الضمير حقيقة القدرة المطلقة ، وحقيقة الهيمنة المطلقة . وحقيقة الابتلاء بالموت والحياة تمهيداً للحشر والجزاء . وحقيقة الكمال والجمال في صنعة الله . وحقيقة العلم المطلق بالسر والنجوى . وحقيقة مصدر الرزق . وحقيقة حفظ الله للخلائق ، وحضوره سبحانه - مع كل مخلوق ... وجملته من هذه الحقائق التي يقوم عليها تصور المسلم لربه . وتصوره للوجود وارتباطه بخلق الوجود . هذا التصور الذي ينبثق منه منهج حياة المؤمن كله . مع ربه . ومع نفسه . ومع الناس . ومع الأحياء . ومع الكون كله من أحياء وأشياء . والذي يتكيف به شعوره وضميره وشخصيته وقيمه وموازينه ، واستقباله للحياة ...

\* \* \*

# (٦٨) سُورَةُ الْفَاكِهَةِ وَآيَاتُهَا ثِنْتَانِ وَخَمْسُونَ

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَّ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ  
لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَتَبَيَّرُوا وَيَبْصُرُونَ ﴿٥﴾ بِأَبْيَكُ الْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ إِنْ رَبُّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ  
وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾ فَلَا تَطْعِ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا لَوْ تَدْعُنَ فَيْدِهُونُ ﴿٩﴾ وَلَا تَطْعِ كُلَّ حَلَّافٍ  
مِثْلِهِ ﴿١٠﴾ هَٰذَا مِثْلُ مَا يَجْمِيعُ ﴿١١﴾ مَتَاعٌ لِلْغَيْرِ مَعْنِدِ أَهْلِهِمْ ﴿١٢﴾ عُنِيَ بَعْدَ ذَلِكَ رَنِيمٌ ﴿١٣﴾ أَنْ كَانَتْ ذَا  
مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تَنَلَّى عَلَيْهِ هَٰبِلُنَا قَالَ أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرُطُومِ ﴿١٦﴾  
إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَنْوَتْ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا  
طَائِفٌ مِّنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنْ أَغْدُوا عَلَى حَرِّكَ  
إِنْ كُنْتُمْ صٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَأَنْظِفُوا وَهُمْ يَتَخَفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَنْ لَا يَدْخُلَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا  
عَلَى حَرِّ قَدَرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَّالُونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَّكَ  
لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَوْمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا  
يَوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٣١﴾ عَسَى رَبَّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَهُ رَبَّنَا رَغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذٰلِكَ الْعَذَابُ ۖ وَالْعَذَابُ  
الْآخِرَةُ أَكْبَرُ ۖ لَوْ كُنَّا نَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٍ النَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَتَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾

أَمْ لَمْ كُنْ كَتَبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٧٧﴾ إِنْ لَمْ كُنْ فِيهِ لَمْ تَحْزِرُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ لَمْ كُنْ أَمِينًا عَلَيْنَا بَلِغَةً إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ إِنْ لَمْ كُنْ لَمْ تَحْزِرُونَ ﴿٧٩﴾ سَلِّمْ إِلَيْهِمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ ﴿٨٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٨١﴾ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٨٢﴾ خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرَفَهُمْ ذُلٌّ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَلْبُونَ ﴿٨٣﴾

فَذَرْنِي وَمَنْ يُكْذِبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنْ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٨٥﴾ أَمْ سَأَلْتَهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ ﴿٨٦﴾ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ ﴿٨٧﴾

فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْخُوْتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٨٨﴾ ثَوَلَا أَنْ تَدْرَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبَيِّنَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٨٩﴾ فَاجْتَبِهْ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٩٠﴾

وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴿٩١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٢﴾

لا يمكن تحديد التاريخ الذي نزلت فيه هذه السورة سواء مطلعها أو جملتها . كما أنه لا يمكن الجزم بأن مطلعها قد نزل أولاً ، وأن سائرها نزل أخيراً - ولا حتى ترجيح هذا الاحتمال . لأن مطلع السورة وختامها يتحدثان عن أمر واحد ، وهو تطاول الذين كفروا على شخص رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقولهم : إنه مجنون !

والروايات التي تقول : إن هذه السورة هي الثانية في النزول بعد سورة العلق كثيرة ، ومن المتفق عليه في ترتيب المصاحف المختلفة أنها هي السورة الثانية ؛ ولكن سياق السورة وموضوعها وأسلوبها يجعلنا نرجح غير هذا . حتى ليكاد يتعين أنها نزلت بعد فترة من الدعوة العامة ، التي جاءت بعد نحو ثلاث سنوات من الدعوة الفردية ، في الوقت الذي أخذت فيه قريش تدفع هذه الدعوة وتحاربها ، فنقول عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - تلك القولة الفاجرة ؛ وأخذ القرآن يردّها وينفيها ، ويهدد المناهضين للدعوة ، ذلك التهديد الوارد في السورة .

واحتال أن مطلع السورة نزل مبكراً وحده بعد مطلع سورة العلق . وأن الجنون المنفي فيه : « ما أنت بنعمة ربك بمجنون » .. جاء بمناسبة ما كان يتخوفه النبي - صلى الله عليه وسلم - على نفسه في أول الوحي ، من أن يكون ذلك جنوناً أصابه .. هذا الاحتمال ضعيف . لأن هذا التخوف ذاته على هذا النحو ليست فيه رواية محققة ، ولأن سياق السورة التماسك يدل على أن هذا النفي ينصب على ما جاء في آخرها من قوله تعالى :

« وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون : إنه لمجنون .. » فهذا هو الأمر الذي افتتح السورة بنفيه ، كما يتبادر إلى الذهن عند قراءة السورة المتأسكة للحلقات .

كذلك ذكرت بعض الروايات أن في السورة آيات مدنية من الآية السابعة عشرة إلى نهاية الآية الثالثة والثلاثين . وهي الآيات التي ذكرت قصة أصحاب الجنة وابتلاءهم ، والآيات من الثانية والأربعين إلى نهاية الخمسين وهي التي تشير إلى قصة صاحب الحوت .. ونحن نستبعد هذا كذلك . ونعتقد أن السورة كلها مكية . لأن طابع هذه الآيات عميق في مكيتها . وهو أنسب شيء لأن يجيء في سياق السورة عند نزولها متسقاً مع الموضوع ومع الحالة التي تعالجها .

والذي نرجحه بشأن السورة كلها أنها ليست الثانية في ترتيب النزول ؛ وأنها نزلت بعد فترة من البعثة النبوية بعد أمر النبي - صلى الله عليه وسلم - بالدعوة العامة . وبعد قول الله تعالى له : « وأندر عشرتك الأقربين » . وبعد نزول طائفة من القرآن فيها شيء من قصص الأولين وأخبارهم ، التي قال عنها قائلهم : « أساطير الأولين » .. وبعدها أصبحت قريش مدعوة إلى الإسلام كافة ، وأصبحت تدفع هذه الدعوة بالاتهامات الباطلة والحرب العنيفة التي اقتضت تلك الحملة العنيفة الواردة في السورة على المكذبين ، والتهديد القاسم في أولها وفي آخرها على السواء .. والمشهد الأخير في السورة يوحي بهذا كذلك : « وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون : إنه لمجنون .. » فهو مشهد دعوة عامة لمجموعات كبيرة . ولم يكن الأمر كذلك في أول الدعوة . إنما كانت الدعوة توجه إلى أفراد . بوسيلة فردية . ولا تلقى إلى الذين كفروا وهم متجمعون . ولم يقع شيء من هذا - كما تقول الروايات الراجعة - إلا بعد ثلاث سنوات من بدء الدعوة .

والسورة تشير إلى شيء من عروض المشركين على النبي - صلى الله عليه وسلم - للالتقاء في منتصف الطريق ، والتهاون على تراض في القضية التي يختلفون عليها وهي قضية العقيدة : « ودوا لوتدهن فيدهنون » .. وظاهر أن مثل هذه المحاولة لا تكون والدعوة فردية ، ولا خطر منها . إنما تكون بعد ظهورها ، وشعور المشركين بخطورها .

وهكذا تتضافر الشواهد على أن هذه السورة نزلت متأخرة عن أيام الدعوة الأولى . وأن هناك ثلاث سنوات على الأقل - قابلة للزيادة - بين بدء الدعوة وبين وقت نزولها . ولا يعقل أن ثلاث سنوات مرت لم يتزل فيها قرآن . والطبيعي أن تكون هناك سور كثيرة ، وأجزاء من سور قد نزلت في هذه الفترة ، تتحدث عن ذات العقيدة بدون مهاجمة عنيفة للمكذبين بها كالوارد في هذه السورة منذ مطلعها .

ولكن هذا لا يني أن تكون هذه السورة وسورتا المذثر والمزمل قد نزلت في الفترة الأولى من الدعوة . وإن لم يكن ذلك أول ما نزل كما هو وارد في المصاحف ، للأسباب التي أوردناها هنا . وهي تكاد تنطبق كذلك على سورتي المزمل والمذثر .

• • •

لقد كانت هذه الغرسة - غرسة العقيدة الإسلامية - تودع في الأرض لأول مرة في صورتها الرفيعة المجردة الناصعة . وكانت غريبة على حس الجاهلية السائدة ، لا في الجزيرة العربية وحدها بل كذلك في أنحاء الأرض جميعاً .

وكانت القنلة عظيمة بين الصورة الباهتة المحرفة المشوهة من ملة إبراهيم التي يستمسك بخيوط حائلة منها مشركو قريش ، ويلصقون بها الترهات والأساطير والأباطيل السائدة عندهم ، وبين الصورة الباهرة العظيمة

المستقيمة الواضحة البسيطة الشاملة المحيطة التي جاءهم بها محمد - صلى الله عليه وسلم - متفقة في أصولها مع الحنيفة الأولى - دين إبراهيم عليه السلام - وبالغة نهاية الكمال الذي يناسب كونها الرسالة الأخيرة للأرض ، الباقية لتخاطب الرشد العقلي في البشرية إلى آخر الزمان .

وكانت النقلة عظيمة بين الشرك بالله وتعدد الأرباب ، وعبادة الملائكة وتمثيلها ، والتعبد للجن وأرواحها ، وسائر هذه التصورات المضطربة المفككة التي تتألف منها العقيدة الجاهلية .. وبين الصورة الباهرة التي يرسمها القرآن للذات الإلهية الواحدة وعظمتها وقدرتها ، وتعلق إرادتها بكل مخلوق .

كذلك كانت النقلة عظيمة بين الطبقية السائدة في الجزيرة ، والكهانة السائدة في ديارها ، واختصاص طبقات بالذات بالسيادة والشرف وسدانة الكعبة والقيام بينها وبين العرب الآخرين .. وبين البساطة والمساواة أمام الله والاتصال المباشر بينه وبين عباده كما جاء بها القرآن .

ومثلها كانت النقلة بين الأخلاق السائدة في الجاهلية والأخلاق التي جاء القرآن يبشر بها ، وجاء محمد - صلى الله عليه وسلم - يدعو إليها ويمثلها .

وكانت هذه النقلة وحدها كافية للتصادم بين العقيدة الجديدة وبين قريش ومعتقداتها وأخلاقها . ولكن هذه لم تكن وحدها . فقد كان إلى جانبها اعتبارات - ربما كانت أضخم في تقدير قريش من العقيدة ذاتها - على ضخامتها . كانت هناك الاعتبارات الاجتماعية التي دعت بعضهم أن يقول كما حكى عنهم القرآن الكريم : « لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ! » .. والقريتان هما مكة والطائف . فإن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مع شرف نسبه ، وأنه في النؤابة من قريش ، لم تكن له مشيخة فيهم ولا رئاسة قبل البعثة . بينما كان هناك مشيخة قريش ومشيخة ثقيف وغيرها ، في بيئة تجعل للمشايخ والرئاسة القبلية كل الاعتبار . فلم يكن من السهل الانقياد خلف محمد - صلى الله عليه وسلم - من هؤلاء المشايخ !

وكانت هناك الاعتبارات العائلية التي تجعل رجلاً كأبي جهل ( عمرو بن هشام ) يأبى أن يسلم بالحق الذي يواجهه بقوة في الرسالة الإسلامية ، لأن نبيها من بني عبد مناف .. وذلك كما ورد في قصته مع الأخنس بن شريق وأبي سفيان بن حرب ، حين خرجوا ثلاث ليال يستمعون القرآن خفية ، وهم في كل ليلة يتواعدون على عدم العودة خيفة أن يراهم الناس فيقع في نفوسهم شيء . فلما سأل الأخنس بن شريق أبا جهل رأيه فيما سمع من محمد كان جوابه : « ماذا سمعت ؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف : أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا . حتى إذا تجاثينا على الركب ، وكنا كفرسي رهان ، قالوا : منا نبي يأتيه الوحي من السماء . فتي ندرك مثل هذه ؟ والله لا نؤمن به أبداً ولا نصده ! » .

وكانت هناك اعتبارات أخرى نفعية وطبقية ونفسية من ركام الجاهلية في المشاعر والتصورات والأوضاع كلها تحاول قتل تلك الغرسة الجديدة في مغرسها بكل وسيلة قبل أن تثبت جذورها وتنعمق ، وقبل أن تمتد فروعها وتشابك . وبخاصة بعد أن تجاوزت دور الدعوة الفردية ، وأمر الله تعالى نبيه - صلى الله عليه وسلم - أن يجهر بالدعوة ؛ وأخذت معالم الدعوة الجديدة تبرز ، كما أخذ القرآن ينتزل بتسفيه عقيدة الشرك وما وراءها من الآفة المدعاة والتصورات المنحرفة والتقاليد الباطلة .

والرسول - صلى الله عليه وسلم - ولوأنه نبي ، ولوأنه يتلقى من ربه الوحي ، ولوأنه يتصل بالملأ الأعلى .. هو بشر ، تتحاجله مشاعر البشر . وكان يتلقى هذه المقاومة العنيفة ، وتلك الحرب التي شنها عليه المشركون ، ويعاني وقعها العنيف الأليم ، وهو الحفنة القليلة التي آمنت به على كره من المشركين .

وكان - صلى الله عليه وسلم - يسمع والمؤمنون به بسمعون ، ما كان يتقوله عليه المشركون ، ويتطاولون به على شخصه الكريم ، « ويقولون : إنه لمجنون » .. ولم تكن هذه إلا واحدة من السخریات الكثيرة ، التي حكّاها القرآن في السور الأخرى ؛ والتي كانت توجه إلى شخصه - صلى الله عليه وسلم - وإلى الذين آمنوا معه . وغير الأذى الذي كان يصيب الكثيرين منهم على أيدي أقربائهم الأقربين !  
والسخرية والاستهزاء - مع الضعف والقلة - مؤذيان أشد الإيذاء للنفس البشرية ، ولو كانت هي نفس رسول .

ومن ثم نرى في السور المكية - كسور هذا الجزء - أن الله كأنما يحتضن - سبحانه - رسوله والحفنة المؤمنة معه ، ويواسيه ويسري عنه ، ويثني عليه وعلى المؤمنين . ويرز العنصر الأخلاقي الذي يتمثل في هذه الدعوة وفي نبيا الكريم . وينبي ما يقوله المتقولون عنه ، ويعظمون قلوب المستضعفين بأنه هو يتولى عنهم حرب أعدائهم ، ويعفيهم من التفكير في أمر هؤلاء الأعداء الأقوياء الأغنياء !

ونجد من هذا في سورة القلم مثل قوله تعالى عن النبي - صلى الله عليه وسلم - :  
« ن . والقلم وما يسطرون . ما أنت بنعمة ربك بمجنون . وإن لك لأجراً غير ممنون . وإنك لعلی خلق عظيم » ..  
وقوله تعالى عن المؤمنين :

« إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم . أفنجعل المسلمين كالمجرمين ؟ ما لكم ؟ كيف تحكمون ؟ ! » ..  
ويقول عن أحد أعداء النبي البارزين :

« ولا تطع كل حلاف مهين . هماز مشاء بنميم . مناع للخبر معتد أثيم . عتل بعد ذلك زنم . أن كان ذا مال وبنين . إذا تنلى عليه آياتنا قال : أساطير الأولين . سنسمه على الخروم ! » ..  
ثم يقول عن حرب المكذبين عامة :

« فذرني ومن يكذب بهذا الحديث . سنستدرجهم من حيث لا يعلمون . وأملی لهم إن كيدي متين » ..  
وذلك غير عذاب الآخرة المذل للمتكبرين :

« يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون . خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة . وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون » ..

ويضرب لهم أصحاب الجنة - جنة الدنيا - مثلاً على عاقبة البطر تهديداً لكبراء قريش المعتزين بأموالهم وأولادهم ممن لهم مال وبنون ؛ الكائدون للدعوة بسبب مالمهم من مال وبنين .  
وفي نهاية السورة يوصي النبي - صلى الله عليه وسلم - بالصبر الجميل : « فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت » ..

ومن خلال هذه المراساة وهذا الثناء وهذا التشييت ، مع الحملة القاصمة على المكذبين والتهديد الرهيب ، يتولى الله - سبحانه - بذاته حربهم في ذلك الأسلوب العنيف .. من خلال هذا كله تنبين ملامح تلك الفترة ، فترة الضعف والقلة ، وفترة المعاناة والشدة ، وفترة المحاولة القاسية لغرس تلك الغرسة الكريمة في تلك التربة العنيدة !  
كذلك نلمح من خلال أسلوب السورة وتعبيرها وموضوعاتها ملامح البيئة التي كانت الدعوة الإسلامية تواجهها . وهي ملامح فيها سذاجة وبدائية في التصور والتفكير والمشااعر والاهتمامات والمشكلات على السواء . نلمح هذه السذاجة في طريقة محاربتهم للدعوة بقولهم للنبي - صلى الله عليه وسلم - « إنه لمجنون » !



وهو اتهام لا حكمة فيه ولا براعة ، وأسلوب من لا يجد إلا الشتمة الغليظة يقولها بلا تمهيد ولا برهان ، كما يفعل السذج البدائيون .

ونلمحها في الطريقة التي يرد الله بها عليهم فريتهم رداً يناسب حالهم : « ما أنت بنعمة ربك بمجنون . وإن لك لأجرأ غير ممنون . وإنك لعلی خلق عظيم . فستبصر ويبصرون . بأيكم المفتون » .. وكذلك في التهديد المكشوف العنيف : « فذري ومن يكذب بهذا الحديث . سنستدرجهم من حيث لا يعلمون . وأولي هم إن كيدي متين » ..

ونلمحها في رد هذا السب على رجل منهم : « ولا تطع كل حلاف مهين . هماز مشاء بنميم . منع للخير معتد أثيم . عتل بعد ذلك زنيم ... » .

ونلمحها في القصة - قصة أصحاب الجنة - التي ضربها الله لهم . وهي قصة قوم سذج في تفكيرهم وتصورهم وبطورهم ، وفي حركاتهم كذلك وأقوالهم « وهم يتخافتون . ألا يدخلنها اليوم عليكم مسكين .. الخ » .

وأخيراً نلمح سذاجتهم من خلال ما يوجهه إليهم من الجدل : « أم لكم كتاب فيه تدرسون : إن لكم فيه لما تخيرون ؟ أم لكم أيمان علينا بالغة إلى يوم القيامة إن لكم لما تحكمون ؟ سلهم أيهم بذلك زعيم ؟ » ... وهي ملامح تظهر بوضوح من خلال التعبير القرآني ، وتفيد في دراسة السيرة ووقائعها وخطوات الدعوة فيها ؛ ومدى ما ارتفع القرآن بعد ذلك بهذه البيئة وتلك الجماعة في أواخر عهد الرسول - صلى الله عليه وسلم - ومدى ما نقلها من هذه السذاجة في التفكير والتصور والشعور والاهتمام . كما يتضح في أساليب الخطاب فيما بعد ، وفي الحقائق والمشارع والتصورات والاهتمامات بعد عشرين عاماً لا تزيد . وهي في حياة الأمم ومضة لا تذكر . ولا تقاس إليها تلك القلة الواسعة الشاملة .. التي انتقلت الجماعة في هذا الوقت القصير . والتي تسلمت بها قيادة البشرية فارتفعت بتصوراتها وأخلاقها إلى القمة التي لم ترتفع إليها قيادة قط في تاريخ البشرية ، لا من ناحية طبيعة العقيدة ، ولا من ناحية آثارها الواقعية في حياة الإنسان في الأرض ، ولا من ناحية السعة والشمول لتنضم الإنسانية كلها بين جوانحها في سماحة وعطف ، وفي تلبية لكل حاجاتها الشعورية ، وحاجاتها الفكرية ، وحاجاتها الاجتماعية ، وحاجاتها التنظيمية في شتى الميادين ..

إنها المعجزة تتجلى في القلة من هذه السذاجة التي تبدو ملامحها من خلال مثل هذه السورة إلى ذلك العمق والشمول . وهي نقلة أوسع وأكبر من تحول القلة إلى كثرة ، والضعف إلى قوة ، لأن بناء النفوس والعقول أعسر من بناء الأعداد والصفوف .

• • •

« ن ، والقلم وما يسطرون . ما أنت بنعمة ربك بمجنون . وإن لك لأجرأ غير ممنون . وإنك لعلی خلق عظيم . فستبصر ويبصرون بأيكم المفتون . إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله ، وهو أعلم بالمهتدين . فلا تطع المكذبين . ودوا لو تدهن فيدهنون . ولا تطع كل حلاف مهين . هماز مشاء بنميم . منع للخير معتد أثيم . عتل بعد ذلك زنيم . أن كان ذا مال وبنين . إذا تتلى عليه آياتنا قال : أساطير الأولين . سنسمه على الخطوم » ..

يقسم الله - سبحانه - بنون ، وبالقلم ، وبالكتاب . والعلاقة واضحة بين الحرف ( نون ) . بوصفه أحد حروف الأبجدية وبين القلم ، والكتابة .. فأما القسم بها فهو تعظيم لقيمتها ، وتوجيه إليها ، في وسط الأمة التي لم تكن تنجبه إلى التعلم عن هذا الطريق ، وكانت الكتابة فيها متخلقة ونادرة ، في الوقت الذي كان دورها المقدرها في

علم الله يتطلب نمو هذه المقدرة فيها ، وانتشارها بينها ، لتقوم بنقل هذه العقيدة وما يقوم عليها من مناهج الحياة إلى أرجاء الأرض . ثم لتنهض بقيادة البشرية قيادة رشيدة . وما من شك أن الكتابة عنصر أساسي في النهوض بهذه المهمة الكبرى .

وما يؤكد هذا المفهوم أن يبدأ الوحي بقوله تعالى : « اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذي علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم .. » وأن يكون هذا الخطاب موجهاً للنبي الأمي - الذي قدر الله أن يكون أمياً لحكمة معينة - ولكنه بدأ الوحي إليه منوهاً بالقراءة والتعلم بالقلم . ثم أكد هذه اللقطة هنا بالقسم بنون ، والقلم وما يسطرون . وكان هذا حلقة من المنهج الإلهي لتربية هذه الأمة وإعدادها للقيام بالدور الكوني الضخم الذي قدره لها في علمه المكنون .

• • •

يقسم الله - سبحانه - بنون والقلم وما يسطرون ، منوهاً بقيمة الكتابة معظماً لشأنها كما أسلفنا لبني عن رسوله - صلى الله عليه وسلم - تلك القرية التي رماها بها المشركون ، مستبعداً لها ، ونعمته على رسوله ترفضها . « ما أنت بنعمة ربك بمجنون » ..

فثبتت في هذه الآية القصيرة وينبي .. يثبت نعمة الله على نبيه ، في تعبير يوحى بالقرى والمودة : حين يضيفه سبحانه إلى ذاته : « ربك » . وينبي تلك الصفة المفتراة التي لا تجتمع مع نعمة الله ، على عبد نسبه إليه وقربه واصطفاه ..

وإن العجب ليأخذ كل دارس لسيرة الرسول - صلى الله عليه وسلم - في قومه ، من قولتهم هذه عنه ، وهم الذين علموا منه رجاحة العقل حتى حكموه بينهم في رفع الحجر الأسود قبل النبوة بأعوام كثيرة . وهم الذين لقبوه بالأميين ، وظلوا يستودعونه أماناتهم حتى يوم هجرته ، بعد عدائهم العنيف له ، فقد ثبت أن علياً - كرم الله وجهه - تخلف عن رسول الله أياماً في مكة ، ليرد إليهم ودائعهم التي كانت عنده ؛ حتى وهم يحادونه ويعادونه ذلك العداء العنيف . وهم الذين لم يعرفوا عليه كذبة واحدة قبل البعثة . فلما سأل هرقل أبا سفيان عنه : هل كنتم تهمونه بالكذب قبل نبوته ؟ قال أبو سفيان - وهو عدوه قبل إسلامه - لا ، فقال هرقل : ما كان ليلز الكذب على الناس ويكذب على الله !

إن الإنسان ليأخذه العجب أن يبلغ الغيظ بالناس إلى الحد الذي يدفع مشركي قريش إلى أن يقولوا هذه القولة وغيرها عن هذا الإنسان الرفيع الكريم ، المشهور بينهم برجاجة العقل وبالحق القويم . ولكن الحقد يعمي ويصم ، والغرض يقذف بالفرية دون تحرج ! وقالها يعرف قبل كل أحد ، أنه كذاب أنتم !

« ما أنت بنعمة ربك بمجنون » .. هكذا في عطف وفي إيناس وفي تكريم ، رداً على ذلك الحقد الكافر ، وهذا الاقراء الذميم .

« وإن لك لأجراً غير ممنون » ..

وإن لك لأجراً دائماً موصولاً ، لا ينقطع ولا ينتهي ، أجراً عند ربك الذي أنعم عليك بالنبوة ومقامها الكريم . وهو إيناس كذلك وتسرية وتعويض فائض غامر عن كل حرمان وعن كل جفوة وعن كل بهتان يرميه به المشركون . وماذا فقد من يقول له ربه : « وإن لك لأجراً غير ممنون » ؟ في عطف وفي مودة وفي تكريم ؟

• • •

ثم نحيي الشهادة الكبرى والتكريم العظيم :

« وإنك لعلی خلق عظیم .. »

وتجواب أرجاء الوجود بهذا الثناء الفريد علی النبي الكريم ؛ ويثبت هذا الثناء العلوي في صميم الوجود ! ويعجز كل قلم ، ويعجز كل تصور ، عن وصف قيمة هذه الكلمة العظيمة من رب الوجود ، وهي شهادة من الله ، في ميزان الله ، لعبد الله ، يقول له فيها : « وإنك لعلی خلق عظیم .. » ومدلول الخلق العظيم هو ما هو عند الله مما لا يبلغ إلى إدراك مداه أحد من العالمين !

ودلالة هذه الكلمة العظيمة علی عظمة محمد - صلى الله عليه وسلم - تبرز من نواح شتى : تبرز من كونها كلمة من الله الكبير المتعال ، يسجلها ضمير الكون ، وتثبت في كيانه ، وتردد في الملاء الأعلى إلى ما شاء الله .

وتبرز من جانب آخر ، من جانب إطاقه محمد - صلى الله عليه وسلم - لتلقيها . وهو يعلم من ربه هذا ، قائل هذه الكلمة . ما هو ؟ ما عظمتها ؟ ما دلالة كلماته ؟ ما مداها ؟ ما صداها ؟ ويعلم من هو إلى جانب هذه العظمة المطلقة ، التي يدرك هونها ما لا يدركه أحد من العالمين .

إن إطاقه محمد - صلى الله عليه وسلم - لتلقي هذه الكلمة ، من هذا المصدر ، وهو ثابت ، لا ينسحق تحت ضغطها الهائل - ولو أنها ثناء - ولا تتأرجح شخصيته تحت وقعها وتضطرب .. تلقيها لها في طمأنينة وفي تماسك وفي توازن .. هو ذاته دليل علی عظمة شخصيته فوق كل دليل .

ولقد رويت عن عظمة خلقه في السيرة ، وعلى لسان أصحابه روايات متنوعة كثيرة . وكان واقع سيرته أعظم شهادة من كل ما روي عنه . ولكن هذه الكلمة أعظم بدالاتها من كل شيء آخر . أعظم بصورها عن العلي الكبير . وأعظم بتلقي محمد لها وهو يعلم من هو العلي الكبير ، وبقائه بعدها ثابتاً راسخاً مطمئناً . لا يتكبر علی العباد ، ولا ينتفخ ، ولا يتعاضم ، وهو الذي سمع ما سمع من العلي الكبير !

والله أعلم حيث يجعل رسالته . وما كان إلا محمد - صلى الله عليه وسلم - بعظمة نفسه هذه - من يحمل هذه الرسالة الأخيرة بكل عظمتها الكونية الكبرى . فيكون كفتاً لها ، كما يكون صورة حية منها .

إن هذه الرسالة من الكمال والجمال ، والعظمة والشمول ، والصدق والحق ، بحيث لا يحملها إلا الرجل الذي يثني عليه الله هذا الثناء . فتطيق شخصيته كذلك تلقي هذا الثناء . في تماسك وفي توازن ، وفي طمأنينة . طمأنينة القلب الكبير الذي يسع حقيقة تلك الرسالة وحقيقة هذا الثناء العظيم . ثم يتلقى - بعد ذلك - عتاب ربه له ومؤاخذته إياه علی بعض تصرفاته ، بذات التماسك وذات التوازن وذات الطمأنينة . يعلن هذه كما يعلن تلك ، لا يكتم من هذه شيئاً ولا تلك .. وهو في كلتا الحالتين النبي الكريم . والعبد الطائع . والمبلغ الأمين .

إن حقيقة هذه النفس من حقيقة هذه الرسالة . وإن عظمة هذه النفس من عظمة هذه الرسالة . وإن الحقيقة المحمدية كالحقيقة الإسلامية لأبعد من مدى أي مجهر يملكه بشر . وقصارى ما يملكه راصد لعظمة هذه الحقيقة المزدوجة أن يراها ولا يحدد مداها . وأن يشير إلى مسارها الكوني دون أن يحدد هذا المسار !

ومرة أخرى أجد نفسي مشدوداً للوقوف إلى جوار الدلالة الضخمة لتلقي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لهذه الكلمة من ربه ، وهو ثابت راسخ متوازن مطمئن الكيان .. لقد كان - وهو بشر - يثني علی أحد أصحابه ، فيهتر

كيان صاحبه هذا وأصحابه من وقع هذا الثناء العظيم . وهو بشر وصاحبه يعلم أنه بشر . وأصحابه يدركون أنه بشر . إنه نبي نعم . ولكن في الدائرة المعلومة الحدود . دائرة البشرية ذات الحدود . فأما هو فيتلقى هذه الكلمة من الله . وهو يعلم من هو الله . هو بخاصة يعلم من هو الله ! هو يعلم منه مالا يعلمه سواه . ثم يصطبر ويتأسك ويتلقى ويسير ... إنه أمر فوق كل تصور وفوق كل تقدير !! !

إنه محمد - وحده - هو الذي يرق إلى هذا الأفق من العظمة . إنه محمد - وحده - هو الذي يبلغ قمة الكمال الإنساني المجانس لنفخة الله في الكيان الإنساني . إنه محمد - وحده - هو الذي يكافئ هذه الرسالة الكونية العالمية الإنسانية ؛ حتى لتتمثل في شخصه حية ، تمشي على الأرض في إهاب إنسان . إنه محمد - وحده الذي علم الله منه أنه أهل لهذا المقام . والله أعلم حيث يجعل رسالته - وأعلن في هذه أنه على خلق عظيم . وأعلن في الأخرى أنه - جل شأنه وتقدس ذات وصفاته ، يصلي عليه هو وملائكته « إن الله وملائكته يصلون على النبي » . وهو - جل شأنه - وحده القادر على أن يهب عبداً من عباده ذلك الفضل العظيم ..

\* \* \*

ثم إن لهذه اللفتة دلالتها على تمجيد العنصر الأخلاقي في ميزان الله ؛ وأصالة هذا العنصر في الحقيقة الإسلامية كأصالة الحقيقة المحمدية .

والناظر في هذه العقيدة ، كالناظر في سيرة رسولها ، يجد العنصر الأخلاقي بارزاً أصيلاً فيها ، تقوم عليه أصولها التشريعية وأصولها التهذيبية على السواء . الدعوة الكبرى في هذه العقيدة إلى الطهارة والنظافة والأمانة والصدق والعدل والرحمة والبر وحفظ العهد ، ومطابقة القول للفعل ، ومطابقتها معاً للنية والضمير ؛ والنهي عن الجور والظلم والخداع والغش وأكل أموال الناس بالباطل ، والاعتداء على الحرمات والأعراض ، وإشاعة الفاحشة بأية صورة من الصور . والتشريعات في هذه العقيدة لحماية هذه الأسس وصيانة العنصر الأخلاقي في الشعور والسلوك ، وفي أعماق الضمير وفي واقع المجتمع . وفي العلاقات الفردية والجماعية والدولية على السواء .

والرسول الكريم يقول : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » .. فيلخص رسالته في هذا الهدف النبيل . وتتوارد أحاديثه تترى في الحضر على كل خلق كريم . وتقوم سيرته الشخصية مثلاً حياً وصفحة نقية ، وصورة رفيعة ، تستحق من الله أن يقول عنها في كتابه الخالد : « وإني لأعجب لخلق عظيم » .. فيمجد بهذا الثناء نبيه - صلى الله عليه وسلم - كما يمجده به العنصر الأخلاقي في منهجه الذي جاء به هذا النبي الكريم ، ويشد به الأرض إلى السماء ، ويعلق به قلوب الراغبين إليه - سبحانه - وهو يدبهم على ما يحب ويرضى من الخلق القويم .

وهذا الاعتبار هو الاعتبار الفذ في أخلاقية الإسلام . فهي أخلاقية لم تنبع من البيئة ، ولا من اعتبارات أرضية إطلاقاً ؛ وهي لا تستمد ولا تعتمد على اعتبار من اعتبارات العرف أو المصلحة أو الارتباطات التي كانت قائمة في الجليل . إنما تستمد من السماء وتعتمد على السماء . تستمد من هتاف السماء للأرض لكي تنطلق إلى الأفق . وتستمد من صفات الله المطلقة ليحققها البشر في حدود الطاقة ، كي يحققوا إنسانيتهم العليا ، كي يصبحوا أهلاً لتكريم الله لهم واستخلافهم في الأرض ؛ كي يتأهلوا للحياة الرفيعة الأخرى : « في مقعد صدق عند مليك مقتدر » .. ومن ثم فهي غير مفيدة ولا محدودة بحدود من أي اعتبارات قائمة في الأرض ؛ إنما هي طليقة ترتفع إلى أقصى ما يطيقه البشر ، لأنها تنطلق إلى تحقيق صفات الله الطليقة من كل حد ومن كل قيد .

ثم إنها ليست فضائل مفردة : صدق . وأمانة . وعدل . ورحمة . وبر ... إنما هي منهج متكامل ، تتعاون

فيه التربية التهذيبية مع الشرائع التنظيمية ؛ وتقوم عليه فكرة الحياة كلها واتجاهاتها جميعاً ، وتنتهي في خاتمة المطاف إلى الله . لا إلى أي اعتبار آخر من اعتبارات هذه الحياة !

وقد تمثلت هذه الأخلاقية الإسلامية بكاملها وجمالها وتوازنها واستقامتها واطرادها وثباتها في محمد - صلى الله عليه وسلم - وتمثلت في ثناء الله العظيم ، وقوله : « وإنا لعلی خلق عظیم » ..

\* \* \*

وبعد هذا الثناء الكريم على عبده يطمنئه إلى غده مع المشركين ، الذين رموه بذلك البهت اللثيم ؛ ويهددهم بافتضاح أمرهم وانكشاف بطلانهم وضلالهم المبين :

« فستبصر ويصرون . بأيكم المفتون . إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين » ..

والمفتون الذي يطمنئ الله نبيه إلى كشفه وتعيينه هو الضال . أو هو المحتن الذي يكشف الامتحان عن حقيقته . وكلا المدلولين قريب من قريب .. وهذا الوعد فيه من الطمأنينة لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - وللمؤمنين معه ، بقدر ما فيه من التهديد للمناوئين له المقترين عليه .. أيأ كان مدلول الجنون الذي رموه به . والأقرب إلى الظن أنهم لم يكونوا يقصدون به ذهاب العقل . فالواقع يكذب هذا القول . إنما كانوا يعنون به مخالطة الجنة له ، وإيحاءهم إليه بهذا القول الغريب البديع - كما كانوا يظنون أن لكل شاعر شيطاناً هو الذي يمدد ببديع القول ! - وهو مدلول بعيد عن حقيقة حال النبي - صلى الله عليه وسلم - وغريب عن طبيعة ما يوحى إليه من القول الثابت الصادق المستقيم .

وهذا الوعد من الله يشير إلى أن الغد سيكشف عن حقيقة النبي وحقيقة مكذبيه . ويثبت أنهم المحتن بما هو فيه ؛ أو أيهم الضال فيما يدعيه . ويطمنئه إلى أن ربه « هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين » .. وربه هو الذي أوحى إليه ، فهو يعلم أنه المهتدي ومن معه . وفي هذا ما يطمنئه وما يقلق أعداءه ، وما يبعث في قلوبهم التوجس والقلق لما سيحيي !

\* \* \*

ثم يكشف الله له عن حقيقة حالهم ، وحقيقة مشاعرهم ، وهم يخاصمونهم ويجادلونهم في الحق الذي معه ، ويرمونهم بما يرمونه ، وهم مزععو العقيدة فيما لديهم من تصورات الجاهلية ، التي يتظاهرون بالتصميم عليها . إنهم على استعداد للتخلي عن الكثير منها في مقابل أن يتخلى هو عن بعض ما يدعوههم إليه ! على استعداد أن يدهنوا ويلينوا ويحافظوا فقط على ظاهر الأمر لكي يدهن هو لهم ويلين . فهم ليسوا أصحاب عقيدة يؤمنون بأنها الحق ، وإنما هم أصحاب ظواهر يهيمهم أن يستروها :

« فلا تطع المكذبين . ودوا لو تدهن فبدهنون » ..

فهني المسامحة إذن ، والالتقاء في منتصف الطريق . كما يفعلون في التجارة . وفرق بين الاعتقاد والتجارة كبير ! فصاحب العقيدة لا يتخلى عن شيء منها ؛ لأن الصغير منها كالكبير . بل ليس في العقيدة صغير وكبير . إنها حقيقة واحدة متكاملة الأجزاء . لا يطع فيها صاحبها أحداً ، ولا يتخلى عن شيء منها أبداً .

وما كان يمكن أن يلتقي الإسلام والجاهلية في منتصف الطريق ، ولا أن يلتقيا في أي طريق . وذلك حال الإسلام مع الجاهلية في كل زمان ومكان . جاهلية أمس وجاهلية اليوم ، وجاهلية الغد كلها سواء . إن الهوة

بينها وبين الإسلام لا تعبر ، ولا تقام عليها قطرة ، ولا تقبل قسمة ولا صلة . وإنما هو النضال الكامل الذي يستحيل فيه التوفيق !

ولقد وردت روايات شتى فيما كان يدهن به المشركون للنبي - صلى الله عليه وسلم - ليدهن لهم ويلين ؛ ويترك سب آهتهم وتسفيه عبادتهم ، أو يتابعهم في شيء مما هم عليه ليتابعوه في دينه ، وهم حافظون ماء وجوههم أمام جماهير العرب ! على عادة المساومين الباحثين عن أنصاف الحلول ! ولكن الرسول - صلى الله عليه وسلم - كان حاسماً في موقفه من دينه ، لا يدهن فيه ولا يلين . وهو فيما عدا الدين ألين الخلق جانباً وأحسنهم معاملة وأبرهم بعشيرة وأحرصهم على اليسر والتيسير . فأما الدين فهو الدين ! وهو فيه عند توجيه ربه : « فلا تطع المكذبين » !

ولم يساوم - صلى الله عليه وسلم - في دينه وهو في أخرج المواقف العصبية في مكة . وهو محاصر بدعوته . وأصحابه القلائل يتخطفون ويعذبون ويؤذون في الله أشد الإيذاء وهم صابرون . ولم يسكت عن كلمة واحدة ينبغي أن تقال في وجه الأقوياء المتجبرين ، تأليفاً لقلوبهم ، أو دفعاً لأذاهم . ولم يسكت كذلك عن إيضاح حقيقة تمس العقيدة من قريب أو من بعيد . .

روى ابن هشام في السيرة عن ابن إسحاق قال :

« فلما بادرى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قومه بالإسلام . وصدع به كما أمره الله ، لم يبعد منه قومه ولم يردوا عليه - فيها بلغني - حتى ذكر آهتهم وعابها . فلما فعل ذلك أعظموه وتأكروه ، وأجمعوا خلافه وعداوته - إلا من عصم الله تعالى منهم بالإسلام وهم قليل مستخفون - وحذب على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عمه أبو طالب ومنعه ، وقام دونه ، ومضى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على أمر الله مظهراً لأمره ، لا يرده عنه شيء .

« فلما رأت قريش أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لا يعتهم من شيء أنكروه عليه من فراقهم وعيب آهتهم ، ورأوا أن عمه أبا طالب قد حذب عليه وقام دونه فلم يسلمه لهم ، مشى رجال من أشراف قريش إلى أبي طالب . . عتبة وشيبة ابنا ربيعة ، وأبوسفيان بن حرب بن أمية . وأبوالخزري واسمه العاص بن هشام . والأسود بن المطلب بن أسد . وأبو جهل ( واسمه عمرو بن هشام وكان يكنى أبا الحكم ) والوليد بن المغيرة ، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج بن عامر . . أو من مشى منهم . . فقالوا : يا أبا طالب . إن ابن أخيك قد سب آهتنا ، وعاب ديننا ، وسفه أحلامنا ، وضلل آباءنا ، فإما أن تكفه عنا وإما أن نخلي بيننا وبينه ، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه ؛ فنكفك ! فقال لهم أبو طالب قولاً رقيقاً ، وردهم رداً جميلاً ، فانصرفوا عنه .

« ومضى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على ما هو عليه : يظهر دين الله ، ويدعو إليه . ثم شري الأمر بينه وبينهم حتى تباعدوا وتضاغوا ، وأكثر قريش ذكر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وتذاًمروا فيه . وحض بعضهم بعضاً عليه . ثم إنهم مشوا إلى أبي طالب مرة أخرى . فقالوا له : يا أبا طالب ، إن لك سناً وشرفاً ومترلة فينا . وإنما قد استهينناك من ابن أخيك فلم تنه عنا ؛ وإنا والله لا نصبر على هذا : من شتم آبائنا ، وتسفيه أحلامنا ، وعيب آهتنا ، حتى تكفه عنا أو ننازله وإياك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين - أو كما قالوا

(١) زاد واشتد .

(٢) تغيظوا وحض بعضهم بعضاً عليه .

له .. ثم انصرفوا عنه . فعظم على أبي طالب فراق قومه وعداوتهم ، ولم يطب نفساً بإسلام رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لهم ولا خذلانه . قال ابن إسحق : وحدثنى يعقوب بن عتبة بن المغيرة بن الأخنس ، أنه حدث ، أن قريشاً حين قالوا لأبي طالب هذه المقالة بعث إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال له : يا بن أخي . إن قومك قد جاءوني فقالوا لي : كذا وكذا ( للذي كانوا قالوا له ) فأبق علي وعلى نفسك ، ولا تحملي من الأمر ما لا أطيق . قال : فظن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قد بدل لعمه فيه بداء ، وأنه خاذله وسلمه وأنه قد ضعف عن نصرته والقيام معه . قال : فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته » . قال : واستعبر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فبكى . ثم قام . فلما ولي ناداه أبو طالب فقال : أقبل يا بن أخي . قال : فأقبل عليه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : اذهب يا بن أخي فقل ما أحببت ، فوالله لا أسلمك لشيء أبداً .

فهذه صورة من إصرار النبي - صلى الله عليه وسلم - على دعوته في اللحظة التي تخلى عنه فيها عمه . حاميه وكافيه ، وآخر حصن من حصون الأرض يمنعه المترصين به المتذامرين فيه !

هذه هي صورة قوية رائعة جديدة في نوعها من حيث حقيقتها ، ومن حيث صورها وظلالها ومن حيث عباراتها وألفاظها ... جديدة جددة هذه العقيدة ، رائعة روعة هذه العقيدة ، قوية قوة هذه العقيدة . فيها مصداق قول الله العظيم : « وإنك لعلی خلق عظیم » .

وصورة أخرى رواها كذلك ابن إسحق ، كانت في مساومة مباشرة من المشركين لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - بعد إذ أياهم أمره ، ووثبت كل قبيلة على من أسلم منها تعذبه وتفتنه عن دينه .

قال ابن إسحق : وحدثنى يزيد بن زياد ، عن محمد بن كعب القرظي ، قال : حدثت أن عتبة بن ربيعة وكان سيداً ، قال يوماً وهو جالس في نادي قريش ، ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - جالس في المسجد وحده : يا معشر قريش . ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ويكف عنا ؟ وذلك حين أسلم حمزة ، ورأوا أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يزيدون ويكثرون . فقالوا : يا أبا الوليد قم إليه فكلمه . فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : يا بن أخي . إنك منا حيث علمت : من السلطة<sup>1</sup> في العشيرة والمكان في النسب ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرقت به جماعتهم ، وسفهت به أحلامهم ، وعبت به آهتهم ودينهم ، وكفرت به من مضى من آباتهم . فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنتظر فيها ، لعلك تقبل منها بعضها . قال : فقال له رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « قل يا أبا الوليد أسمع » . قال : يا بن أخي . إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا . وإن كنت إنما تريد به شرفاً سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك . وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذي يأتيك ريثاً ترأه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يدأوى منه ! - أو كما قال له - حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - يستمع منه قال : « أقدر فرغت يا أبا الوليد ؟ » قال : نعم . قال : « فاستمع مني » . قال : أفعل . فقال : « بسم الله الرحمن الرحيم . حم . تنزيل من الرحمن

الرحيم . كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون . بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون . وقالوا : قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه ، وفي آذاننا وقر ، ومن بيننا وبينك حجاب ، فاعمل إننا عاملون . قل : إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ أنما إليكم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروه وويل للمشركين . . . » ثم مضى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيها يقرؤها عليه . فلما سمعها منه عتبة أنصت لها ، وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليها يسمع منه . ثم انتهى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى السجدة منها فسجد . ثم قال . « قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت . فأنت وذاك » . . . فقام عتبة إلى أصحابه ، فقال بعضهم لبعض : نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به . فلما جلس إليهم قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد ؟ قال : وراني أنني سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ، ولا بالسحر ، ولا بالكهانة ، يا معشر قريش أطيعوني ، واجعلوها بي ، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه ، فاعتزلوه ، فوالله ليكون لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم . فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم . وإن يظهر على العرب فملكه ملككم ، وعزه عزمكم ، وكنتم أسعد الناس به . قالوا : سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه . قال : هذا رأيي فيه ، فاصنعوا ما بدا لكم . .

وفي رواية أخرى أن عتبة استمع حتى جاء الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى قوله تعالى : « فإن أعرضوا فقل : أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود » . . . فقام مدعوراً فوضع يده على فم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : أنشدك الله والرحم يا محمد ! وذلك مخافة أن يقع النذير . وقام إلى القوم فقال ما قال ! وعلى أية حال فهذه صورة أخرى من صور المساومة . وهي كذلك صورة من صور الخلق العظيم . تبدو في أدبه - صلى الله عليه وسلم - وهو يستمع إلى عتبة حتى يفرغ من قوله الفارغ الذي لا يستحق الانتباه من مثل محمد - صلى الله عليه وسلم - في تصويره لقم هذا الكون ، وفي ميزانه للحق ولعرض هذه الأرض . ولكن خلقه يمسك به لا يقاطع ولا يتعجل ولا يغضب ولا يضجر ، حتى يفرغ الرجل من مقالته ، وهو مقبل عليه . ثم يقول في هدوء : « أفد فرغت يا أبا الوليد ؟ » زيادة في الإملاء والتوكيد . إنها الطمأنينة الصادقة للحق مع الأدب الرفيع في الاستماع والحديث . . وهما معاً بعض دلالة الخلق العظيم .

وصورة ثالثة للمساومة فيها رواه ابن اسحق قال :

« واعترض رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو يطوف بالكعبة - فيما بلغني - الأسود بن المطلب بن أسد ابن عبد العزى والوليد بن المغيرة ، وأمية بن خلف ، والعاص بن وائل السهمي . وكانوا ذوي أسنان في قومهم . فقالوا : يا محمد ، هلم فلنعبد ما تعبد ، وتعبد ما نعبد ، فنشترك نحن وأنت في الأمر . فإن كان الذي تعبد خيراً مما نعبد كنا قد أخذنا بحظنا منه ، وإن كان ما نعبد خيراً مما تعبد كنت قد أخذت بحظك منه ! فأنزله الله تعالى فيهم : « قل : يا أيها الكافرون . لا أعبد ما تعبدون » : السورة كلها . .

وحسم الله المساومة المضحكة بهذه المفاصلة الجازمة . وقال لهم الرسول - صلى الله عليه وسلم - ما أمره ربه أن يقول . . .

• • •

ثم يبرز قيمة العنصر الأخلاقي مرة أخرى في نهى الرسول - صلى الله عليه وسلم - عن إطاعة أحد هؤلاء المكذبين بالذات ، ويصفه بصفاته المزرية المنفرة ، ويتوعده بالإذلال والمهانة :

« ولا تطع كل حلاف مهين . هازم شاء بنميم . عتل بعد ذلك زنيم . أن كان ذا مال



وبنن . إذا تتلى عليه آياتنا قال : أساطير الأولين . سنسمه على الخرطوم » . .

وقد قيل : إنه الوليد بن المغيرة ، وإنه هو الذي نزلت فيه كذلك آيات من سورة المدثر : « ذرني ومن خلقت وحيداً ، وجعلت له مალأ ممدوداً ، وبنين شهداً ، ومهدت له تمهيداً . ثم يطمع أن أزيد . كلا ! ! إنه كان لآياتنا عنيدا . سألهمته صعوداً . إنه فكّر وقدّر . فقتل ! كيف قدر؟ ثم قتل ! كيف قدر؟ ثم نظر . ثم عبس وبسر . ثم أوبر واستكبر . فقال : إن هذا إلا سحر يؤثر . إن هذا إلا قول البشر . سأصليه سقر » . .

ورويت عنه مواقف كثيرة في الكيد لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - وإنذار أصحابه ، والوقوف في وجه الدعوة ، والصد عن سبيل الله . . كما قيل : إن آيات سورة القلم نزلت في الأخنس بن شريق . . وكلاهما كان ممن خاصصوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولجوا في حربه والتأليب عليه أمدأ طويلاً . وهذه الحملة القرآنية العنيفة في هذه السورة ، والتهديدات القاصمة في السورة الأخرى ، وفي سواها ، شاهد على شدة دوره سواء كان هو الوليد أو الأخنس والأول أرجح ، في حرب الرسول والدعوة ، كما هي شاهد على سوء طبيعته ، وفساد نفسه ، وخلوها من الخير .

والقرآن يصفه هنا بتسع صفات كلها ذم . .

فهو حلاف . . كثير الحلف . ولا يكتر الحلف إلا إنسان غير صادق ، يدرك أن الناس يكذبونه ولا يتقون به ، فيحلف ويكتر من الحلف ليداري كذبه ، ويستجلب ثقة الناس .

وهو مهين . . لا يحترم نفسه ، ولا يحترم الناس قوله . وآية مهانته حاجته إلى الحلف ، وعدم ثقته بنفسه وعدم ثقة الناس به . ولو كان ذا مال وذا بنين وذا جاه . فالمهانة صفة نفسية تلتصق بالمرء ولو كان سلطاناً طاغية جباراً . والعزة صفة نفسية لا تفارق النفس الكريمة ولو تجردت من كل أعراض الحياة الدنيا !

وهو هاز . . يهز الناس ويعيهم بالقول والإشارة في حضورهم أو في غيبتهم سواء . وخلق الهمز يكرهه الإسلام أشد الكراهية ؛ فهو يخالف المروءة ، ويخالف أدب النفس ، ويخالف الأدب في معاملة الناس وحفظ كراماتهم صغروا أم كبروا . وقد تكرر ذم هذا الخلق في القرآن في غير موضع ؛ فقال : « ويل لكل همزة لمزة » . . وقال : « يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن . ولا تلمزوا أنفسكم . ولا تنازروا بالألقاب » وكلها أنواع من الهمز في صورة من الصور . .

وهو مشاء بنعيم . يمشي بين الناس بما يفسد قلوبهم ، ويقطع صلاتهم ، ويذهب بموداتهم . وهو خلق ذميم كما أنه خلق مهين ، لا يتصف به ولا يقدم عليه إنسان يحترم نفسه أو يرجو لنفسه احتراماً عند الآخرين . حتى أولئك الذين يفتحون آذانهم للتمام ، ناقل الكلام ، المشاء بالسوء بين الأوداء . حتى هؤلاء الذين يفتحون آذانهم له لا يحترمونه في قرارة نفوسهم ولا يودونه .

ولقد كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ينهى أن ينقل إليه أحد ما يغير قلبه على صاحب من أصحابه . وكان يقول : « لا يبلغني أحد عن أحد من أصحابي شيئاً فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر »<sup>١</sup> .

وثبت في الصحيحين من حديث مجاهد عن طاووس عن ابن عباس قال : مر رسول الله - صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم - بقرين ، فقال : « إنهما ليعذبان ، وما يعذبان في كبير . أما أحدهما فكان لا يستتر من البول ، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة » .

(١) أخرجه أبو داود والترمذي من حديث ابن مسعود .

وروى الإمام أحمد - بإسناده - عن حذيفة قال : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : « لا يدخل الجنة قتات » أي تمام ( ورواه الجماعة إلا ابن ماجه ) .

وروى الإمام أحمد كذلك - بإسناده - عن يزيد بن السكن . أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : « ألا أخبركم بخياركم ؟ » قالوا : بلى يا رسول الله . قال : « الذين إذا رؤوا ذكر الله عز وجل » ثم قال : « ألا أخبركم بشراركم ؟ المشاؤون بالنميمة المفسدون بين الأحبة ، الباغون للبراء العيب » .

ولم يكن بد للإسلام أن يشدد في النهي عن هذا الخلق الذميمة الوضع ، الذي يفسد القلب ، كما يفسد الصحب ، ويتدنى بالقاتل قبل أن يفسد بين الجماعة ، وبأكل قلبه وخلقه قبل أن يأكل سلامة المجتمع ، ويفقد الناس الثقة بعضهم ببعض ، ويجني على الأبرياء في معظم الأحيان !

وهو مناع للخير .. يمنع الخير عن نفسه وعن غيره . ولقد كان يمنع الإيمان وهو جماع الخير . وعرف عنه أنه كان يقول لأولاده وعشيرته ، كلما آتس منهم ميلاً إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - : لئن تبع دين محمد منكم أحد لا أنفعه شيء أبداً . فكان يمنعهم بهذا التهديد عن الإسلام . ومن ثم سجل القرآن عليه هذه الصفة « مناع للخير » فيما كان يفعل ويقول .

وهو معتد .. متجاوز للحق والعدل إطلاقاً . ثم هو معتد على النبي - صلى الله عليه وسلم - وعلى المسلمين وعلى أهله وعشيرته الذين يصدهم عن الهدى ويمنعهم من الدين .. والاعتداء صفة ذميمة تنال من عناية القرآن والحديث اهتماماً كبيراً .. وينهى عنها الإسلام في كل صورة من صورها ، حتى في الطعام والشراب : « كلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تطغوا فيه » .. لأن العدل والاعتدال طابع الإسلام الأصيل .

وهو أثم .. يرتكب المعاصي حتى يحق عليه الوصف الثابت . « أثم » .. بدون تحديد لنوع الآثام التي يرتكبها . فالتجاه التعبير إلى إثبات الصفة ، وإلصاقها بالنفس كالطبع المقيم !

وهو بعد هذا كله « عتل » .. وهي لفظة تعبر بجرسها وظلها عن مجموعة من الصفات ومجموعة من السمات ، لا تبلغها مجموعة ألفاظ وصفات . فقد يقال : إن العتل هو الغليظ الجافي . وإنه الأكل الشراب . وإنه الشره المنوع . وإنه الفظ في طبعه ، اللثيم في نفسه ، السيئ في معاملته .. وعن أبي الدرداء رضي الله عنه : « العتل كل رغبة الجوف ، وثيق الخلق ، أكل شراب ، جموع للمال ، منوع له » .. ولكن تبقى كلمة « عتل » بذاتها أدل على كل هذا ، وأبلغ تصويراً للشخصية الكريهة من جميع الوجوه .

وهو زنيم .. وهذه خاتمة الصفات الذميمة الكريهة المتجمعة في عدو من أعداء الإسلام - وما يعادي الإسلام ويصر على عداوته إلا أناس من هذا الطراز الذميمة - والزنيم من معانيه اللصيق في القوم لا نسب له فيهم ، أو أن نسبة فيهم ظنين . ومن معانيه ، الذي اشتهر وعرف بين الناس بلؤمه وخبثه وكثرة شروره . والمعنى الثاني هو الأقرب في حالة الوليد بن المغيرة . وإن كان إطلاق اللفظ يدمغه بصفة تدعه مهيناً في القوم ، وهو المختال الفخور .

ثم يعقب على هذه الصفات الذاتية بموقفه من آيات الله ، مع التشجيع بهذا الموقف الذي يجزي به نعمة الله عليه بالمال والبنين :

« أن كان ذا مال وبنين إذا تلى عليه آياتنا قال : أساطير الأولين » ..

وما أقبح ما يجزي إنسان نعمة الله عليه بالمال والبنين ؛ استهزاء بآياته ، وسخرية من رسوله ، واعتداء على دينه .. وهذه وحدها تعدل كل ما مر من وصف ذميم .

ومن ثم يجيء التهديد من الجبار القهار ، يلمس في نفسه موضع الاختيال والفخر بالمال والبنين ؛ كما لمس وصفه من قبل موضع الاختيال بمكانته ونسبه .. ويسمع وعد الله القاطع :

« سنسمه على الخرطوم » ..

ومن معاني الخرطوم طرف أنف الخنزير البري .. ولعله هو المقصود هنا كناية عن أنفه ! والأنف في لغة العرب يكنى به عن العزة فيقال : أنف أشم للعزيز .. وأنف في الرغام للذليل .. أي في التراب ! ويقال ورم أنفه وحمي أنفه ، إذا غضب معتزاً .. ومنه الأنفة .. والتهديد بوصمه على الخرطوم يحوي نوعين من الإذلال والتحقير .. الأول الوسم كما يوسم العبد .. والثاني جعل أنفه خرطوماً كخرطوم الخنزير !

وما من شك أن وقع هذه الآيات على نفس الوليد كان قاصماً .. فهو من أمة كانت تعد هجاء شاعر - ولو بالباطل - مذمة يتوقاها الكريم ! فكيف بدمهه بالحق من خالق السماوات والأرض .. بهذا الأسلوب الذي لا يبارى .. في هذا السجل الذي تتجاوب بكل لفظ من ألفاظه جنات الوجود .. ثم يستقر في كيان الوجود .. في خلود .. إنها القاصمة التي يستأهلها عدو الإسلام وعدو الرسول الكريم صاحب الخلق العظيم ..

• • •

وتمناسبة الإشارة إلى المال والبنين ، والبطر الذي يبطره المكذوبون ، يضرب لهم مثلاً بقصة يبدو أنها كانت معروفة عندهم ، شائعة بينهم ، ويذكرهم فيها بعاقبة البطر بالنعمة ، ومنع الخير والاعتداء على حقوق الآخرين ؛ ويشعرهم أن ما بين أيديهم من نعم المال والبنين ، إنما هو ابتلاء لهم كما ابتلي أصحاب هذه القصة ، وأن له ما بعده ، وأنهم غير متروكين لما هم فيه :

« إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين ، ولا يستثنون . فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون ، فأصبحت كالصريم . فتنادوا مبصحين : أن اغدوا على حرتكم إن كنتم صارمين . فانطلقوا وهم يتخافتون : ألا يدخلنها اليوم عليكم مسكين . وغدوا على حرد قادرين . فلما رأوها قالوا : إنا لضالون ، بل نحن محرومون . قال أوسطهم : ألم أقل لكم لولا تسبحون ! قالوا : سبحان ربنا إنا كنا ظالمين . فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون ، قالوا : يا ويلنا إنا كنا طاغين ، عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها إنا إلى ربنا راغبون .. كذلك العذاب ، ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون » ..

وهذه القصة قد تكون متداولة ومعروفة ، ولكن السياق القرآني يكشف عما وراء حوادثها من فعل الله وقدرته ، ومن ابتلاء وجزاء لبعض عبادہ . ويكون هذا هو الجديد في سياقها القرآني .

ومن خلال نصوصها وحركاتها نلمح مجموعة من الناس ساذجة بدائية أشبه في تفكيرها وتصورها وحركتها بأهل الريف البسطاء السذج . ولعل هذا المستوى من التماذج البشرية كان أقرب إلى المخاطبين بالقصة ، الذين كانوا يعانون ويبحدون ، ولكن نفوسهم ليست شديدة التعقيد ، إنما هي أقرب إلى السذاجة والبساطة ! والقصة من ناحية الأداء تمثل إحدى طرق الأداء الفني للقصة في القرآن ؛ وفيه مفاجآت مشوقة ، كما أن فيه سخرية بالكيد البشري العاجز أمام تدبير الله وكيده . وفي حيوية في العرض حتى لكأن السامع - أو القارئ - يشهد القصة حية تقع أحداثها أمامه وتتوالى . فلنحاول أن نراها كما هي في سياقها القرآني :

ها نحن أولاء أمام أصحاب الجنة - جنة الدنيا لا جنة الآخرة - وها هم أولاء يبيتون في شأنها أمراً . لقد كان للمساكين حظ من ثمرة هذه الجنة - كما تقول الروايات - على أيام صاحبها الطيب الصالح . ولكن الورثة يريدون أن يستأثروا بشمرها الآن ، وأن يحرموا المساكين حظهم .. فلننظر كيف تجري الأحداث إذن !

« إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة . إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين ولا يستثنون » .

لقد قرأهم على أن يقطعوا ثمرها عند الصباح الباكر ، دون أن يستثنوا منه شيئاً للمساكين . وأقسموا على هذا ، وعقدوا النية عليه ، وباتوا بهذا الشرف بما اعتزموه .. فلندعهم في غفلتهم أو في كيدهم الذي يبتوه ، ولننظر ماذا يجري من ورائهم في بهمة الليل وهم لا يشعرون . فإن الله ساهر لا ينام كما ينامون ، وهو يدبرهم غير ما يدبرون ، جزاء على ما يبيتوا من بطر بالنعمة ومنع للخير ، وبخل بنصيب المساكين المعلوم .. إن هناك مفاجأة تم في خفية . وحركة لطيفة كحركة الأشباح في الظلام . والناس نيام :

« فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون . فأصبحت كالصريم » ..

فلندع الجنة وما ألم بها مؤقتاً لننظر كيف يصنع المبيتون الماكرون .

ها هم أولاء بصحون مبكرين كما دبروا ، وينادي بعضهم بعضاً لينفذوا ما اعتزموا :

« فتنادوا مصبحين : أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين » ..

يذكر بعضهم بعضاً ويوصي بعضهم بعضاً ، ويحمس بعضهم بعضاً !

ثم يمضي السياق في السخرية منهم ، فيصورهم منطلقين ، يتحدثون في خفوت ، زيادة في إحكام التدبير ، ليحتجوا الثمر كله لهم ، ويحرموا منه المساكين !

« فانطلقوا وهم يتخافتون : ألا يدخلنها اليوم عليكم مسكين » !! !

وكأنما نحن الذين نسبح القرآن أو نقرؤه نعلم ما لا يعلمه أصحاب الجنة من أمرها .. أجل فقد شهدنا تلك اليد الخفية اللطيفة تمتد إليها في الظلام ، فتذهب بشمرها كله . ورأيناها كأنما هي مقطوعة الثمار بعد ذلك الطائف الخفي الرهيب ! فلنمسك أنفاسنا إذن ، لنرى كيف يصنع الماكرون المبيتون .

إن السياق ما يزال يسخر من الماكرين المبيتين :

« وغدوا على حرد قادرين » !

أجل إنهم لقادرون على المنع والحرمان .. حرمان أنفسهم على أقل تقدير ! !

وها هم أولاء يفاجأون . فلننطلق مع السياق ساخرين . ونحن نشبههم مفاجئين :

« فلما رأوها قالوا : إنا لضالون » ..

ما هذه جنتنا الموقرة بالثمار . فقد ضلنا إليها الطريق ! .. ولكنهم يعودون فيتأكدون :

« بل نحن محرومون » ..

وهذا هو الخبر اليقين !

والآن وقد حاقت بهم عاقبة المكر والتبئيس ، وعاقبة البطر والمنع ، يتقدم أوسطهم وأعقلهم وأصلحهم -

(١) كأنها مقطوعة الثمار . فقد ذهب الطائف الذي طاف عليها بكل ثمرها !

ويبدو أنه كان له رأي غير رأيهم . ولكنه تابعهم عندما خالفوه وهو فريد في رأيه ، ولم يصر على الحق الذي رآه فنالته الحرمان كما نالهم . ولكنه يذكرهم ما كان من نصحه وتوجيهه :

« قال أوسطهم : ألم أقل لكم : لولا تسبحون ؟ !

والآن فقط يسمعون للناصح بعد فوات الأوان :

« قالوا : سبحان ربنا ، إنا كنا ظالمين » ..

وكما يتصل كل شريك من التبعة عند ما تسوء العاقبة ، ويتوجه باللوم إلى الآخرين .. ها هم أولاء يصنعون :

« فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون » !

ثم هاهم أولاء يتركون التلاوم ليعترفوا جميعاً بالخطيئة أمام العاقبة الرديئة . عسى أن يغفر الله لهم ، ويعوضهم من الجنة الضائعة على مذبح البطر والمنع والكيد والتدبير :

« قالوا : يا ويلنا ! إنا كنا طاغين . عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منا إنا إلى ربنا راغبون » ..

وقبل أن يسدل السياق الستار على المشهد الأخير نسمع التعقيب :

« كذلك العذاب . ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون » ..

وكذلك الابتلاء بالنعمة . فليعلم المشركون أهل مكة . « إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة » ولينظروا ماذا وراء الابتلاء .. ثم ليحذروا ما هو أكبر من ابتلاء الدنيا وعذاب الدنيا :

« ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون » !

\*\*\*

وكذلك يسوق إلى قریش هذه التجربة من واقع البيئة ، ومما هو متداول بينهم من القصص ، فيربط بين سنته في الغابرين وسنته في الحاضرين ، ويلمس قلوبهم بأقرب الأساليب إلى واقع حياتهم . وفي الوقت ذاته يشعر المؤمنين بأن ما يرونه على المشركين - من كبراء قریش - من آثار النعمة والثروة إنما هو ابتلاء من الله ، له عواقبه ، وله نتائج . وسنته أن يتبلى بالنعمة كما يتبلى بالبأساء سواء . فأما المتبطرون المانعون للخبر المخدوعون بما هم فيه من نعيم ، فذلك كان مثلاً لعاقبتهم : « ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون » .. وأما المتقنون الحذرون فلمهم عند ربهم جنات النعيم :

« إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم » ..

وهو التقابل في العاقبة ، كما أنه التقابل في المسلك والحقيقة .. تقابل النقيضين اللذين اختلفت بهما الطريق ، فاختلفت بهما خاتمة الطريق !

\*\*\*

وعند هاتين الخاتمتين يدخل معهم في جدل لا تعقيد فيه كذلك ولا تركيب . ويتحداهم ويحرجهم بالسؤال تلو السؤال عن أمور ليس لها إلا جواب واحد يصعب المغالطة فيه ؛ ويهددهم في الآخرة بمشهد رهيب ، وفي الدنيا بحرب من العزيز الجبار القوي الشديد :

« أفنجعل المسلمين كالمجرمين ؟ ما لكم ؟ كيف تحكمون ؟ أم لكم كتاب فيه تدرسون ؟ إن لكم فيه لما تخيرون ؟ أم لكم إيمان علينا بالغة إلى يوم القيامة إن لكم لما تحكمون ؟ سلمهم أيهم بذلك زعيم ؟ أم لهم شركاء ؟

فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين . يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون . خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة . وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون . فذرني ومن يكذب بهذا الحديث ، سنستدرجهم من حيث لا يعلمون . وأملئ لهم إن كيدي متين . أم تسألهم أجراً فهم من مغرم مثقلون ؟ أم عندهم الغيب فهم يكتبون ؟ !

والتهديد بعباد الآخرة وحرب الدنيا يجيء - كما نرى - في خلال ذلك الجدل ، وهذا التحدي . فبرفع من حرارة الجدل ، ويزيد من ضغط التحدي .

والسؤال الاستنكاري الأول : « أفجعل المسلمين كالمجرمين ؟ » يعود إلى عاقبة هؤلاء وهؤلاء التي عرضها في الآيات السابقة . وهو سؤال ليس له إلا جواب واحد . لا . لا يكون . فالمسلمون المذعنون المستسلمون لربهم ، لا يكونون أبداً كالمجرمين الذين يأتون الجريمة عن لجأج يسمهم بهذا الوصف الذميمة ! وما يجوز في عقل ولا في عدل أن يتساوى المسلمون والمجرمون في جزاء ولا مصير .

ومن ثم يجيء السؤال الاستنكاري الآخر : « مالكم ؟ كيف تحكمون ؟ » .. ماذا بكم ؟ وعلام تنبون أحكامكم ؟ وكيف تننون القيم والأقدار ؟ حتى يستوي في ميزانكم وحكمكم من يسلمون ومن يجرمون ؟ !

ومن الاستنكار والإنكار عليهم ينتقل إلى التهمك بهم والسخرية منهم : « أم لكم كتاب فيه تدرسون ؟ إن لكم فيه ما تخيرون ؟ » .. فهو التهمك والسخرية أن يسألهم إن كان لهم كتاب يدرسونه ، هو الذي يستمدون منه مثل ذلك الحكم الذي لا يقبله عقل ولا عدل ، وهو الذي يقول لهم : إن المسلمين كالمجرمين ! إنه كتاب مضحك يوافق هواهم ويملق رغباتهم ، فلهم فيه ما يتخيرون من الأحكام وما يشتهون ! وهو لا يرتكن إلى حق ولا إلى عدل ، ولا إلى معقول أو معروف !

« أم لكم أيمان علينا بالغة إلى يوم القيامة إن لكم لما تحكمون ؟ » .. فإن لا يكن ذلك فهو هذا . وهو أن تكون لهم موثيق على الله ، سارية إلى يوم القيامة ، مقتضاها أن لهم ما يحكمون ، وما يختارون وفق ما يشتهون ! وليس من هذا شيء . فلا عهد لهم عند الله ولا موثيق . فعلام إذن يتكلمون ؟ ! وإلام إذن يستندون ؟ !

« سلهم أيهم بذلك زعيم ؟ » .. سلهم من منهم المتعهد بهذا ؟ من منهم المتعهد بأن لهم على الله ما يشاءون ، وأن لهم ميثاقاً عليه ساري المفعول إلى يوم القيامة أن لهم ما يحكمون ؟ !

وهو تهكم ساخر عميق ببلغ يذيب الوجوه من الحرج والتحدي السافر المكشوف !

« أم لهم شركاء ؟ فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين .. »

وهم كانوا يشركون بالله . ولكن التعبير يضيف الشركاء إليهم لا لله . ويتجاهل أن هناك شركاء . ويتحداهم أن يدعوا شركاءهم هؤلاء إن كانوا صادقين .. ولكن متى يدعونهم ؟

« يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون . خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة . وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون .. »

فيقفهم وجهاً لوجه أمام هذا المشهد كأنه حاضر اللحظة ، وكأنه يتحداهم فيه أن يأتوا بشركائهم المزعومين . وهذا اليوم حقيقة حاضرة في علم الله لا تنقيد في علمه بزمان . واستحضارها للمخاطبين على هذا النحو يجعل وقعها عميقاً حياً حاضراً في النفوس على طريقة القرآن الكريم .

والكشف عن الساق كناية - في تعبيرات اللغة العربية الماثورة - عن الشدة والكرب . فهو يوم القيامة الذي

يشمر فيه عن الساعد ويكشف فيه عن الساق ، ويشد الكرب والضيق .. ويدعى هؤلاء المتكبرون إلى السجود فلا يملكون السجود ، إما لأن وقته قد فات ، وإما لأنهم كما وصفهم في موضع آخر يكونون : « مهطعين مقنعي رؤوسهم » وكأن أجسامهم وأعصابهم مشدودة من الهول على غير إرادة منهم ! وعلى أية حال فهو تعبير يشي بالكرب والعجز والتحدي المخيف ..

ثم يكمل رسم هيبته : « خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة » .. هؤلاء المتكبرون المتبجحون . والأبصار الخاشعة والذلة المرهقة هما المقابلان للهامات الشامخة والكبرياء المنفوخة . وهي تذكر بالتهديد الذي جاء في أول السورة : « سنسمه على الخرطوم » .. فايحاء الذلة والانكسار ظاهر عميق مقصود !

وبينا هم في هذا الموقف المرهق الذليل ، يذكرهم بما جرهم إليه من إغراض واستكبار : « وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالون » .. قادرون على السجود . فكانوا يأبون ويستكبرون .. كانوا . فهم الآن في ذلك المشهد المرهق الذليل . والدنيا وراءهم . وهم الآن يدعون إلى السجود فلا يستطيعون !  
وبينا هم في هذا الكرب ، يبيثهم التهديد الرعب الذي يهد القلوب :  
« فذري ومن يكذب بهذا الحديث » ..

وهو تهديد مزلل .. والجبار القهار القوي المتين يقول للرسول - صلى الله عليه وسلم - : خل بيني وبين من يكذب بهذا الحديث . وذري لحربه فأنا به كفيل !  
ومن هو هذا الذي يكذب بهذا الحديث ؟

إنه ذلك المخلوق الصغير الهزيل المسكين الضعيف ! هذه النملة المضعوفة . بل هذه الهبأة المثورة .. بل هذا العدم الذي لا يعني شيئاً أمام جبروت الجبار القهار العظيم !  
فيا محمد . خل بيني وبين هذا المخلوق . واسترح أنت ومن معك من المؤمنين . فالحرب معي لا معك ولا مع المؤمنين . الحرب معي . وهذا المخلوق عدوي ، وأنا سأتولى أمره فدعه لي ، وذري معه ، واذهب أنت ومن معك فاستريحوا !

أي هول مزلل للمكذبين ! وأي طمأنينة للنبي والمؤمنين .. المستضعفين .. ؟

ثم يكشف لهم الجبار القهار عن خطة الحرب مع هذا المخلوق الهزيل الصغير الضعيف !  
« سنستدرجهم من حيث لا يعلمون . وأملي لهم إن كيدي متين » ..

وإن شأن المكذبين ، وأهل الأرض أجمعين ، لأهون وأصغر من أن يدبر الله لهم هذه التدابير .. ولكنه - سبحانه - يحذرهم نفسه ليدركوا أنفسهم قبل قوات الأوان . وليعلموا أن الأمان الظاهر الذي يدعه لهم هو الفخ الذي يقعون فيه وهم غارون . وأن إهمالهم على الظلم والبغي والإغراض والضلال هو استدراج لهم إلى أسوأ مصير . وأنه تدبير من الله ليحملوا أوزارهم كاملة ، ويأتوا إلى الموقف مثقلين بالذنوب ، مستحقين للخزي والرهق والتعذيب ..

وليس أكبر من التحذير ، وكشف الاستدراج والتدبير ، عدلاً ولا رحمة . والله سبحانه يقدم لأعدائه دينه ورسوله عدله ورحمته في هذا التحذير وذلك النذير . وهم بعد ذلك وما يختارون لأنفسهم ، فقد كشف القناع ووضحت الأمور !

إنه سبحانه يجهل ولا يهمل . ويملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته . وهو هنا يكشف عن طريقته وعن سنته

التي قدرها بمشيئته . ويقول لرسوله - صلى الله عليه وسلم - ذرني ومن يكذب بهذا الحديث ، واخل بيني وبين المعتزين بالمال والبنين والجاه والسلطان . فسأملهم ، واجعل هذه النعمة فخهم ! فيطمئن رسوله ، ويحذر أعداءه .. ثم يدعمهم لذلك التهديد الرعيب !

وفي ظل مشهد القيامة المكروب وظل هذا التهديد المرهوب يكمل الجدل والتحدي والتعجيب من موقفهم الغريب :

« أم تسألهم أجراً فهم من مغرم مثقلون ؟ » ..

فتقل الغرامة التي تطلبها منهم أجراً على الهداية هو الذي يدفعهم إلى الإعراض والتكذيب ، ويجعلهم يؤثرون ذلك المصير البشع ، على فداحة ما يؤدون ؟ !

« أم عندهم الغيب فهم يكتبون ؟ » ..

ومن ثم فهم على ثقة مما في الغيب ، فلا يخفهم ما ينتظرهم فيه ، فقد اطلعوا عليه وكتبوه وعرفوه ؟ أو أنهم هم الذين كتبوا ما فيه . فكتبوه ضامناً لما يشتهون ؟

ولا هذا ولا ذاك ؟ فما لهم يقفون هذا الموقف الغريب المريب ؟ !

\* \* \*

وبذلك التعبير العجيب الموحى الرعيب : « ذرني ومن يكذب بهذا الحديث » .. وبالإعلان عن خطة المعركة والكشف عن سنة الحرب بين الله وأعدائه المخدوعين .. بهذا وذلك يخلي الله النبي - صلى الله عليه وسلم - والمؤمنين من المعركة بين الإيمان والكفر . وبين الحق والباطل . فهي معركة - سبحانه - وهي حربه التي يتولاها بذاته .

والأمر كذلك في حقيقته ، مهما بدا أن للنبي - صلى الله عليه وسلم - وللمؤمنين دوراً في هذه الحرب أصيلاً . إن دورهم حين يسره الله لهم هو طرف من قدر الله في حربه مع أعدائه . فهم أداة يفعل الله بها أو لا يفعل . وهو في الحالين فعال لما يريد . وهو في الحالين يتولى المعركة بذاته وفق سنته التي يريد .

وهذا النص نزل والنبي - صلى الله عليه وسلم - في مكة ، والمؤمنون معه قلة لا تقدر على شيء . فكانت فيه الطمأنينة للمستضعفين ، والفرع للمعتزين بالقوة والجاه والمال والبنين . ثم تغيرت الأحوال والأوضاع في المدينة . وشاء الله أن يكون للرسول ومن معه من المؤمنين دور ظاهر في المعركة . ولكنه هنالك أكد لهم ذلك القول الذي قاله لهم وهم في مكة قلة مستضعفون . وقال لهم وهم منتصرون في بدر : « فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم ، وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ، وليبلي المؤمنين منه بلاء حسناً ، إن الله سميع عليم » ..

وذلك ليقر في قلوبهم هذه الحقيقة . حقيقة أن المعركة معركة هو سبحانه . وأن الحرب حربه هو سبحانه . وأن القضية قضيته هو سبحانه . وأنه حين يجعل لهم فيها دوراً فإنما ذلك ليلبهم منه بلاء حسناً . وليكتب لهم بهذا البلاء أجراً . أما حقيقة الحرب فهو الذي يتولاها . وأما حقيقة النصر فهو الذي يكتبها .. وهو سبحانه يجربها بهم وبدونهم . وهم حين يخوضونها أداة لقدرته ليست هي الأداة الوحيدة في يده !

وهي حقيقة واضحة من خلال النصوص القرآنية في كل موضع ، وفي كل حال ، وفي كل وضع . كما أنها هي الحقيقة التي تتفق مع التصور الإيماني لقدرة الله وقدره ، ولسنته ومشيئته ، ولحقيقة القدرة البشرية التي تنطلق لتحقيق قدر الله .. أداة .. ولن تزيد على أن تكون أداة ..



وهي حقيقة تسكب الطمأنينة في قلب المؤمن ، في حالتي قوته وضعفه على سواء . ما دام يخلص قلبه لله ، ويتوكل في جهاده على الله . فقوته ليست هي التي تنصره في معركة الحق والباطل والإيمان والكفر ، إنما هو الله الذي يكفل له النصر . وضعفه لا يهزمه لأن قوة الله من ورائه وهي التي تتولى المعركة وتكفل له النصر . ولكن الله يعملي ويستدرج ويقدر الأمور في مواقيتها وفق مشيئته وحكمته ، ووفق عدله ورحمته .

كما أنها حقيقة تنزع قلب العدو ، سواء كان المؤمن أمامه في حالة ضعف أم في حالة قوة . فليس المؤمن هو الذي ينازله ، إنما هو الله الذي يتولى المعركة بقوته وجبروته . الله الذي يقول لنيبه « فذرني ومن يكذب بهذا الحديث » واخل بيني وبين هذا البائس المتعوس ! والله يعملي ويستدرج فهو في الفخ الرعيب المفزع المخيف ، ولو كان في أوج قوته وعدته . فهذه القوة هي ذاتها الفخ وهذه العدة هي ذاتها المصيدة .. « وأملئ لهم إن كيدي متين ! » أما متى يكون . فذلك علم الله المكنون ! فمن يأمن غيب الله ومكره ؟ وهل يأمن مكر الله إلا القوم الفاسقون ؟

° ° °

وأمام هذه الحقيقة يوجه الله نبيه - صلى الله عليه وسلم - إلى الصبر . الصبر على تكاليف الرسالة . والصبر على التواءات النفوس . والصبر على الأذى والتكذيب . الصبر حتى يحكم الله في الوقت المقدر كما يريد . ويذكره بتجربة أخ له من قبل ضاق صدره بهذه التكاليف ، فلولا أن تداركته نعمة الله لنبت وهو مذموم :

« فاصبر لحكم ربك ، ولا تكن كصاحب الحوت . إذ نادى وهو مكظوم . لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبت بالعراء وهو مذموم . فاجتبه ربه فجعله من الصالحين » ..

وصاحب الحوت هو يونس - عليه السلام - كما جاء في سورة الصافات . وملخص تجربته التي يذكر الله بها محمدا - صلى الله عليه وسلم - لتكون له زاداً ورصيдаً ، وهو خاتم النبيين ، الذي سبقته تجارب النبيين أجمعين في حقل الرسالة ، ليكون هو صاحب الحصاد الأخير ، وصاحب الرصيد الأخير ، وصاحب الزاد الأخير . فبعينه هذا على عبئه الثقيل الكبير . عبء هداية البشرية جميعها لا قبيلة ولا قرية ولا أمة . وعبء هداية الأجيال جميعها لا جيل واحد ولا قرن واحد كما كانت مهمة الرسل قبله . وعبء إمداد البشرية بعده بكل أجيالها وكل أقوامها بمنهج دائم ثابت صالح لتلبية ما يجد في حياتها من أحوال وأوضاع وتجارب . وكل يوم يأتي بجديد ..

ملخص تلك التجربة أن يونس بن متى - سلام الله عليه - أرسله الله إلى أهل قرية . قيل اسمها نينوى بالموصل . فاستبطأ إيمانهم ، وشق عليه تلوّهم ، فتركهم مغاضباً قائلاً في نفسه : إن الله لن يضيّق عليّ بالبقاء بين هؤلاء المعتنتين المعاندين ، وهو قادر على أن يرسلني إلى قوم آخرين ! وقد قاده الغضب والضيق إلى شاطئ البحر ، حيث ركب سفينته ، فلما كانوا في وسط اللج تقلت السفينة وتعرضت للغرق . فأقرعوا بين الركاب للتخفيف من واحد منهم لتخفف السفينة .. فكانت القرعة على يونس . فألقوه في اليم . فابتلعه الحوت .

عندئذ نادى يونس - وهو كظيم - في هذا الكرب الشديد في الظلمات في بطن الحوت ، وفي وسط اللجة ، نادى ربه : « لا إله إلا أنت سبحانك ! إني كنت من الظالمين » فتداركته نعمة من ربه ، فنبذ الحوت على الشاطئ .. لحماً بلا جلد .. ذاب جلده في بطن الحوت . وحفظ الله حياته بقدرته التي لا يقبدها قيد من مألوف البشر المحدود !

وهنا يقول : إنه لولا هذه النعمة لنبذه الحوت وهو مذموم . أي مذموم من ربه .. على فعلته . وقلة صبره . وتصرفه في شأن نفسه قبل أن يأذن الله له . ولكن نعمة الله وقته هذا ، وقبل الله تسبيحه واعترافه وندمه . وعلم منه ما يستحق عليه النعمة والاجتناء . « فاجتناء ربه فجعله من الصالحين » ..

هذه هي التجربة التي مر بها صاحب الحوت . يذكر الله بها رسوله محمداً - صلى الله عليه وسلم - في موقف العنت والتكذيب . بعد ما أخلاه من المعركة كما هي الحقيقة ، وأمره بتركها له يتولاها كما يريد . وقتاً يريد . وكلفه الصبر لحكم الله وقضائه في تحديد الموعد ، وفي مشقات الطريق حتى يحين الموعد المضروب !

إن مشقة الدعوة الحقيقية هي مشقة الصبر لحكم الله ، حتى يأتي مواعده ، في الوقت الذي يريده بحكمته . وفي الطريق مشقات كثيرة . مشقات التكذيب والتعذيب . ومشقات الالتواء والعناد . ومشقات انتفاش الباطل وانتفاخه . ومشقات افتتان الناس بالباطل المزهو المنتصر فيها تراه العيون . ثم مشقات إمساك النفس على هذا كله راضية مستقرة مطمئنة إلى وعد الله الحق ، لا ترتاب ولا تتردد في قطع الطريق ، مهما تكن مشقات الطريق .. وهو جهد ضخم مرهق يحتاج إلى عزم وصبر ومدد من الله وتوفيق .. أما المعركة ذاتها فقد قضى الله فيها ، وقدر أنه هو الذي يتولاها ، كما قدر أنه يعلي ويستدرج لحكمة يراها . كذلك وعد نبيه الكريم ، فصدقه الوعد بعد حين .

• • •

وفي الختام يرسم مشهداً للكافرين وهم يتلقون الدعوة من الرسول الكريم ، في غيظ عنيف ، وحسد عميق ينسكب في نظرات مسمومة قاتلة يوجهونها إليه ، ويصفها القرآن بما لا مزيد عليه :

« وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر . ويقولون : إنه لمجنون » .

فهذه النظرات تكاد تؤثر في أقدام الرسول - صلى الله عليه وسلم - فتجعلها تزل وتزلز وتفتقد توازنها على الأرض وثباتها ! وهو تعبير فائق عما تحمله هذه النظرات من غيظ وحقد وشرواحد ونقمة وضغن ، وحمى وسم .. مصحوبة هذه النظرات المسمومة المحمومة بالسلب القبيح ، والشتم البذيء ، والاقتراء الذميمة : « ويقولون : إنه لمجنون » ..

وهو مشهد تلتقطه الريشة المبدعة وتسجله من مشاهد الدعوة العامة في مكة . فهو لا يكون إلا في حلقة عامة بين كبار المعاندين المجرمين ، الذين ينبعث من قلوبهم وفي نظراتهم كل هذا الحقد الذميمة المحموم !

يعقب عليه بالقول الفصل الذي ينهي كل قول :

« وما هو إلا ذكر للعالمين » .

والذكر لا يقوله مجنون ، ولا يحمله مجنون ..

وصدق الله وكذب المفترون ..

• • •

ولا بد قبل نهاية الحديث من لفظة إلى كلمة « للعالمين » .. هنا والدعوة في مكة تقابل بذلك الجحود ، ويقابل رسوؤها بتلك النظرات المسمومة المحمومة ، ويرصد المشركون لحررها كل ما يملكون .. وهي في هذا الوقت المبكر ، وفي هذا الضيق المستحكم ، تعلن عن عالميتها . كما هي طبيعتها وحقيقتها . فلم تكن هذه الصفة جديدة عليها حين انتصرت في المدينة - كما يدعي المفترون اليوم - إنما كانت صفة مبكرة في أيام مكة الأولى . لأنها

حقيقة ثابتة في صلب هذه الدعوة منذ نشأتها .

كذلك أرادها الله . وكذلك اتجهت منذ أيامها الأولى . وكذلك تتجه إلى آخر الزمان . والله الذي أرادها كما أرادها هو صاحبها وراعيا . وهو المدافع عنها وحاميا . وهو الذي يتولى المعركة مع المكذبين . وليس على أصحابها إلا الصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين . .

\* \* \*

## (٦٩) سُورَةُ الْحَاقَّةِ مَكِّيَّةٌ وَأَيَّاتُهَا ثِنْتَانِ وَخَمْسُونَ

### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَاقَّةُ ① مَا الْحَاقَّةُ ② وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ③ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنَّفَارَةِ ④ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأَهْلِكُوا  
بِالطَّاغِيَةِ ⑤ وَأَمَّا عَادٌ فَأَهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ⑥ خَرَّهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَفَجَاءَتْهُمُ الْغَمَامُ  
فِيهَا صُرَعَى كَأَنَّهُمْ انْحَارَ تَحْلِ خَاوِيَةٍ ⑦ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ⑧ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ  
بِالْخَاطِئَةِ ⑨ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً ⑩ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلَتُكُمُ فِي الْجَارِيَةِ ⑪  
لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِبَهَا آذُنٌ وَعِيَةٌ ⑫

فَلَمَّا دُفِنَتْ فِي الصُّورِ نَفْعَةٌ وَاحِدَةٌ ⑬ وَحَمَلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ⑭ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ  
الْوَاقِعَةُ ⑮ وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ⑯ وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا ⑰ وَيَحْمِلُ عَرْشُ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ  
ثَلَاثِينَ ⑱ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ⑳

فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِرَيْمِنِهِ ㉑ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَبُوا كِتَابِيَةَ ㉒ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَةَ ㉓ فَهُوَ فِي  
عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ㉔ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ㉕ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ㉖ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ㉗  
وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِشَهِلَةٍ ㉘ فَيَقُولُ بَلَيْتَنِي لَرَأَوْتُ كِتَابِيَةَ ㉙ وَلَمْ أَدرِ مَا حِسَابِيَةَ ㉚ بَلَيْتَهَا كَانَتْ  
الْفَاقِصَةَ ㉛ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيهِ ㉜ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّتِي ㉝ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ㉞ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ㉟  
ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ㊱ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ㊲ وَلَا يَحْضُرُ عَلَىٰ طَعَامٍ

الْمَسْكِينِ ﴿٢٦﴾ فَلَيْسَ لَهُ آيَوْمَ هُنَا حِمٌّ ﴿٢٧﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٢٨﴾ لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِفُونَ ﴿٢٩﴾  
فَلَا أَقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَمَا لَا تَبْصِرُونَ ﴿٣١﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٣٢﴾  
تَقُوْمُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَّا تَدْكُرُونَ ﴿٣٤﴾ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٥﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ  
الْأَقَاوِيلِ ﴿٣٦﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٣٨﴾ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٣٩﴾  
وَأَنَّهُ لَنْذِكْرٌ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ ﴿٤١﴾ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّهُ لَحَقُّ  
الْبَقِيَّةِ ﴿٤٣﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٤٤﴾

هذه سورة هائلة رهبة ؛ قل أن يتلقاها الحس إلا بهزة عميقة ؛ وهي منذ افتتاحها إلى ختامها تترقع هذا الحس . وتطالعه بالهول القاصم ، والجد الصارم ، والمشهد تلو المشهد ، كله إيقاع ملح على الحس ، بالهول آنأ وبالجلال آنأ ، وبالعذاب آنأ ، وبالحركة القوية في كل آن !

والسورة يحملها تلقي في الحس بكل قوة وعمق إحساساً واحداً بمعنى واحد . . أن هذا الأمر ، أمر الدين والعقيدة ، جد خالص حازم جازم . جد كله لا هزل فيه . ولا مجال فيه للهلزل . جد في الدنيا وجد في الآخرة ، وجد في ميزان الله وحسابه . جد لا يحتمل التلفت عنه هنا أو هناك كثيراً ولا قليلاً . وأي تلفت عنه من أي أحد يستنزل غضب الله الصارم ، وأخذه الحاسم . ولو كان الذي يتلفت عنه هو الرسول . فالأمر أكبر من الرسول وأكبر من البشر . . إنه الحق . حق اليقين . من رب العالمين .

يبرز هذا المعنى في اسم القيامة المختار في هذه السورة ، والذي سميت به السورة : « الحاقة » . . وهي بلفظها وجرسها ومعناها تلقي في الحس معنى الجد والصرامة والحق والاستقرار . وإيقاع اللفظ بذاته أشبه شيء برفع الثقل طويلاً ، ثم استقراره استقراراً مكيناً . رفعه في مدة الحاء بالألف ، وجده في تشديد القاف بعدها ، واستقراره بالانتهاء بالناء المربوطة التي تنطق هاء ساكنة .

ويبرز في مصارع المكذبين بالدين والعقيدة والآخرة قوماً بعد قوم ، وجماعة بعد جماعة ، مصارعهم العاصفة القاصمة الحاسمة الجازمة : « كذبت ثمود وعاد بالقارعة . فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية ، وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية . سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً ، فقرى القوم فيها صرعى ، كأنهم أعجاز نخل خاوية . فهل ترى لهم من باقية ؟ وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات بالخاطئة ، فعصوا رسول ربهم ، فأخذهم أخذة رابية . إننا لما طغى الماء حملناكم في الجارية ، لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية » . . وهكذا كل من تلفت عن هذا الأمر أخذ أخذة مروعة داهمة قاصمة ، تتناسب مع الجد الصارم الحاسم في هذا الأمر العظيم الهائل ، الذي لا يحتمل هزلاً ، ولا يحتمل لعباً ، ولا يحتمل تلفتاً عنه من هنا أو هناك !

ويبرز في مشهد القيامة المروع ، وفي نهاية الكون الرهبة ، وفي جلال التجلي كذلك وهو أروع وأهول : « فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة . وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة ، فيومئذ وقعت الواقعة ،

وانشقت السماء فهي يومئذ واهية .. والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية ..

ذلك الهول . وهذا الجلال . يخلعان الجدد الرائع الجليل على مشهد الحساب عن ذلك الأمر المهول . ويشاركان في تعميق ذلك المعنى في الحس مع سائر إيقاعات السورة وإيقاعاتها . هو وما بعده من مقالة التاجين والمعجزين : « فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول : هاؤم اقرأوا كتابه . إني ظننت أني ملاق حسابه .. فقد نجا وما يكاد يصدق بالنجاة .. » وأما من أوتي كتابه بشماله فيقول : يا ليتني لم أوت كتابه ، ولم أدر ما حسابه . يا ليتني كانت القاضية . ما أغنى عني ماليه . هلك عني سلطانيه .. بهذا التفجع الطويل ، الذي يطبع في الحس وقع هذا المصير ..

ثم يبدو ذلك الجدد الصارم والهول القاصم في النطق العلوي بالقضاء الرهيب العريب ، في اليوم الهائل ، وفي الموقف الجليل : « خذوه . فغلوه . ثم الجحيم صلوه . ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه .. وكل فقرة كأنها تحمل ثقل السماوات والأرض ، وتنقض في جلال مذهل ، وفي هول مروع ، وفي جد ثقیل .. ثم ما يعقب كلمة القضاء الجليل ، من بيان لموجبات الحكم الرهيب ونهاية المذنب الرعية : « إنه كان لا يؤمن بالله العظيم . ولا يحض على طعام المسكين . فليس له اليوم ها هنا حميم . ولا طعام إلا من غسيل . لا يأكله إلا الخاطئون .. »

ثم يبرز ذلك المعنى في التلويع بقسم هائل ، وفي تقرير الله لحقيقة الدين الأخير : « فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون . إنه لقول رسول كريم . وما هو بقول شاعر قليل ما تؤمنون ، ولا بقول كاهن ، قليلاً ما تذكرون . تنزيل من رب العالمين .. »

وأخيراً يبرز الجدد في الإيقاع الأخير . وفي التهديد الجازم والأخذ القاصم لكل من يتلاعب في هذا الأمر أو يبدل . كأنثاً من كان ، ولو كان هو محمداً الرسول : « ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين . فما منكم من أحد عنه حاجزين .. » فهو الأمر الذي لا تسامح فيه ولا هوادة ولا لين .. وعندئذ تحتم السورة بالتقرير الجازم الحاسم والقول الفصل الأخير عن هذا الأمر الخطير : « وإنه لتذكرة للمتقين . وإنا لنعلم أن منكم مكذبين . وإنه لحسرة على الكافرين . وإنه لحق اليقين .. فسبح باسم ربك العظيم .. » وهو الختام الذي يقطع كل قول ، ويلقي بكلمة الفصل ، وينتهي إلى الفراغ من كل لغو ، والتسبيح باسم الله العظيم ..

\* \* \*

ذلك المعنى الذي تتمحض السورة لإلقائه في الحس ، يتكفل أسلوبها وإيقاعاتها ومشاهدها وصورها وظلالها بإلقائه وتقريره وتعميقه بشكل مؤثر حي عجيب :

إن أسلوب السورة يحاصر الحس بالشاهد الحية ، المتناهية الحيوية ، بحيث لا يملك منها فكاً ، ولا يتصور إلا أنها حية واقعة حاضرة ، تطلعه بحيويتها وقوتها وفعاليتها بصورة عجيبة !

فهذه مصارع ثمود وعاد وفرعون وقرى لوط ( المؤتفكات ) حاضرة شاخصة ، والهول المروع يحتاج مشاهدها لا فكاً للحس منها . وهذا مشهد الطوفان وبقايا البشرية محمولة في الجارية مرسوماً في آيتين اثنتين سريعتين .. وما ذا الذي يقرأ : « وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية . سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً . فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية فهل ترى لهم من باقية ؟ » .. ولا يتمثل لحسه منظر العاصفة المزمجرة

المحطمة المدمرة . سبع ليال وثمانية أيام . ومشهد القوم بعدها صرعى مجلدين « كأنهم أعجاز نخل خاوية ! » . وهو مشهد حي مائل للعين ، مائل للقلب ، مائل للخيال ! وكذلك سائر مشاهد الأخذ الشديد العنيف في السورة .

ثم هذه مشاهد النهاية المروعة لهذا الكون . هذه هي تخايل للحس ، وتقرقع حوله ، وتغمره بالرعب والهلول والكآبة . ومن ذا الذي يسمع : « وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة » .. ولا يسمع حسه القرعة بعد ما ترى عينه الرفعة ثم الدكة ! ! ومن الذي يسمع : « وانشقت السماء فهي يومئذ واهية . والملك على أرجائها » .. ولا يتمثل خاطره هذه النهاية الحزينة ، وهذا المشهد المفجع للسماء الجميلة المثينة ؟ ! ثم من الذي لا يغمرحسه الجلال والهلول وهو يسمع : « والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية . يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية » ..

ومشهد الناجي الآخذ كتابه بيمينه والدنيا لا تسعه من الفرحة ، وهو يدعو الخلائق كلها لتقرأ كتابه في رنة الفرح والغبطة : « هاؤم اقرأوا كتابيه . إني ظننت أني ملاق حساييه ! »  
ومشهد الهالك الآخذ كتابه بشاله . والحسرة تثن في كلماته ونبراته وإيقاعاته : « يا ليتني لم أوت كتابيه . ولم أدر ما حساييه . يا ليتنا كانت القاضية . ما أغنى عني ماليه ، هلك عني سلطانيه » .  
ومن ذا الذي لا يرتعش حسه ، وهو يسمع ذلك القضاء الرهيب : « خذوه ، فغلوه » ، ثم الجحيم صلوه ، ثم في سلسلة ذرعتها سبعون ذراعا فاسلكوه ... الخ » .. وهو يشهد كيف يتسابق المأمورون إلى تنفيذ الأمر الرهيب الجليل في ذلك البائس الحسير !

وحاله هناك : « فليس له اليوم ها هنا حميم ، ولا طعام إلا من غسلين . لا يأكله إلا الخاطئون » .  
وأخيراً فن ذا الذي لا تأخذه الرجة وتلفه الرهبة ، وهو يتمثل في الخيال صورة التهديد الشديد : « ولو تقول علينا بعض الأقاويل ، لأخذنا منه باليمين ، ثم لقطعنا منه الوتين . فما منكم من أحد عنه حاجزين ! » ..  
إنها مشاهد من القوة والحيوية والحضور بحيث لا يملك الحس أن يتلفت عنها طوال السورة ، وهي تلح عليه ، وتضغط ، وتتخلل الأعصاب والمشاعر في تأثير حقيقي عنيف !

\* \* \*

ويشارك إيقاع الفاصلة في السورة ، برنته الخاصة ، وتنوع هذه الرنة ، وفق المشاهد والمواقف في تحقيق ذلك التأثير الحي العميق .. فن المد والتشديد والسكت في مطلع السورة :

« الحاقة . ما الحاقة ؟ وما أدراك ما الحاقة ؟ » .. إلى الرنة المدوية في الباء والهاء الساكنة بعدها . سواء كانت تاء مربوطة يوقف عليها بالسكون ، أو هاء سكت مزيدة لتنسيق الإيقاع ، طوال مشاهد التدمير في الدنيا والآخرة ، ومشاهد القرعة والحسرة في موقف الجزاء . ثم يتغير الإيقاع عند إصدار الحكم إلى رنة رهبة جلييلة مديدة : « خذوه . فغلوه . ثم الجحيم صلوه ... » .. ثم يتغير مرة أخرى عند تقرير أسباب الحكم ، وتقرير جدية الأمر ، إلى رنة رزينة جادة حاسمة ثقيلة مستقرة على الميم أو النون : « إنه كان لا يؤمن بالله العظيم . ولا يحض على طعام المسكين . فليس له اليوم ها هنا حميم ولا طعام إلا من غسلين » .. « وإنه لحق اليقين . فسبح باسم ربك العظيم » ..

وهذا التغير في حرف الفاصلة وفي نوع المد قبلها وفي الإيقاع كله ظاهرة ملحوظة تتبع تغير السياق والمشاهد

والجو ، وتتناسق مع الموضوع والصور والظلال تمام التناسق . وتشارك في إحياء المشاهد وتقوية وقعها على الحس .  
في السورة القوة الإيقاع العميقة التأثير .  
إنها سورة هائلة رهيبة . قل أن يتلقاها الحس إلا بهزة عميقة . وهي بذاتها أقوى من كل استعراض ومن  
كل تحليل ، ومن كل تعليق !

\* \* \*

« الحاقة . ما الحاقة ؟ . وما أدراك ما الحاقة ؟ » ..

القيامة ومشاهدها وأحداثها تشغل معظم هذه السورة . ومن ثم تبدأ السورة باسمها ، وتسمى به ، وهو اسم مختار  
بجرسه ومعناه كما أسلفنا . فالحاقة هي التي تحقق فتقع . أو تحقق فتتزل بحكمها على الناس . أو تحقق فيكون فيها  
الحق .. وكلها معانٍ تقريرية جازمة تناسب اتجاه السورة وموضوعها . ثم هي بجرسها كما بينا من قبل تلقي  
إيقاعاً معيناً يساوق هذا المعنى الكامن فيها ، ويشارك في إطلاق الجو المراد بها ؛ ويمهد لما حق على المكذبين بها .  
في الدنيا وفي الآخرة جميعاً .

والجو كله في السورة جوجد وجزم ، كما أنه جو هول وروع . وهو يقع في الحس إلى جانب ما أسلفنا في  
التقديم ، شعوراً بالقدرة الإلهية الكبرى من جهة ، وبضالة الكائن الإنساني تجاه هذه القدرة من جهة أخرى ؛  
وأخذها له أخذاً شديداً في الدنيا والآخرة ، عندما يحيد أو يتلفت عن هذا النج الذي يريده الله للبشرية ،  
مثلاً فيما ينبغي به الرسل من الحق والعقيدة والشرعية ؛ فهو لا ينبغي له همل ، ولا ليدبل ، إنما ينبغي له ليطاع ويحترم ،  
ويقابل بالتحرج والتقوى . وإلا فهناك الأخذ والقسم ، وهناك الهول والروع .

والألفاظ في السورة بجرسها وبمعانيها وباجتماعها في التركيب ، وبدلالة التركيب كله .. تشترك في إطلاق  
هذا الجو وتصويره . فهو يبدأ فيلقبها كلمة مفردة ، لا خبر لها في ظاهر اللفظ : « الحاقة » .. ثم يتبعها باستفهام  
حافل بالاستهوال والاستعظام لما هي هذا الحدث العظيم : « ما الحاقة ؟ » .. ثم يزيد هذا الاستهوال والاستعظام  
بالتجهيل ، وإخراج المسألة عن حدود العلم والإدراك : « وما أدراك ما الحاقة ؟ » .. ثم يسكت فلا يجيب  
على هذا السؤال . ويدعك واقفاً أمام هذا الأمر المستهول المستعظم ، الذي لا تدريه ، ولا يتأتى لك أن تدريه !  
لأنه أعظم من أن يحيط به العلم والإدراك !

\* \* \*

ويبدأ الحديث عن المكذبين به ، وما نالهم من الهول ، وما أخذوا به من القسم ، فذلك الأمر جد لا يحتمل  
التكذيب ، ولا يذهب ناجياً من يصرفه على التكذيب :

« كذبت ثمود وعاد بالقارعة . فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية . وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية . سخرها  
عليهم سبع ليالٍ وثمانية أيام حسوماً . فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية . فهل ترى لهم من  
باقية ؟ » .

وهذا اسم جديد للحاقة . إنها فوق أنها تحقق .. فهي تفرع .. والقرع ضرب الشيء الصلب والنقر عليه بشيء  
مثله . والقارعة تفرع القلوب بالهول والرهبة ، وتفرع الكون بالدمار والحطم . وها هي ذي بجرسها تقعقع وتفرع ،  
وتفرع وتفرع .. وقد كذبت بها ثمود وعاد . فلننظر كيف كانت عاقبة التكذيب ..

« فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية » ..



وثمود - كما جاء في مواضع أخرى - كانت تسكن الحجر في شمالي الحجاز بين الحجاز والشام . وكان أخذهم بالصيحة كما سماها في غير موضع . أما هنا فهو يذكر وصف الصيحة دون لفظها .. « بالطاغية » .. لأن هذا الوصف يفرض بالهول المناسب لجو السورة . ولأن إيقاع اللفظ يتفق مع إيقاع الفاصلة في هذا المقطع منها . ويكتفي بهذه الآية الواحدة تطوي ثمود طياً ، وتغمرهم غمراً ، وتعصف بهم عصفاً ، وتطغى عليهم فلا بقي لهم ظلاً !

وأما عاد فيفصل في أمر نكبتها ويطل ، فقد استمرت وقعتها سبع ليالٍ وثمانية أيام حسوماً . على حين كانت وقعة ثمود خاطفة .. صيحة واحدة . طاغية .. « وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية » . والريح الصرصر : الشديدة الباردة . واللفظ ذاته فيه صرصرة الريح . وزاد شدتها بوصفها « عاتية » .. لتناسب عتو عاد وجبروتها المحكي في القرآن ، وقد كانوا يسكنون الأحقاف في جنوب الجزيرة بين اليمن وحضرموت . وكانوا أشداء بطاشين جبارين . هذه الريح الصرصر العاتية : « سخرها عليهم سبع ليالٍ وثمانية أيام حسوماً » .. والحسوم القاطعة المستمرة في القطع . والتعبير يرسم مشهد العاصفة المزعجة المدمرة المستمرة هذه الفترة الطويلة المحددة بالدقة : « سبع ليالٍ وثمانية أيام » . ثم يعرض المشهد بعدها شاخصاً : « فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية » .. فترى .. فالمنظر معروض تراه ، والتعبير يلح به على الحس حتى يتملأه ! « صرعى » .. مصروعين مجذولين متناثرين « كأنهم أعجاز نخل » بأصولها وجذوعها « خاوية » فارغة تأكلت أجوافها فارتجت ساقطة على الأرض هامة ! إنه مشهد حاضر شاخص . مشهد ساكن كئيب بعد العاصفة المزعجة المدمرة .. « فهل ترى لهم من باقية ؟ » .. لا ! فليس لهم من باقية ! ! !

ذلك شأن عاد وثمود .. وهوشأن غيرهما من المكذبين . وفي آيتين اثنتين يجمل وقائع شتى :

« وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات بالخاطئة . فعصوا رسول ربهم فأخذهم أخذة رابية » ..

وفرعون كان في مصر - وهو فرعون موسى - ومن قبله لا يذكر عنهم تفصيل . والمؤتفكات قرى لوط المدمرة التي اتبعت الإفك أو التي انقلبت ، فاللفظ يعني هذا وهذا . ويجمل السياق فعال هؤلاء جميعاً ، فيقول عنهم انهم جاءوا « بالخاطئة » أي بالفعلة الخاطئة .. من الخطيئة .. « فعصوا رسول ربهم » .. وهم عصوا رسلاً متعددين ؛ ولكن حقيقتهم واحدة ، ورسالتهم في صميمها واحدة . فهم إذن رسول واحد ، يمثل حقيقة واحدة - وذلك من بدائع الإشارات القرآنية الموحية - وفي إجمال يذكر مصيرهم في تعبير يلقي الهول والحسم حسب جو السورة : « فأخذهم أخذة رابية » .. والرابية العالية الغامرة الطامرة . لتناسب « الطاغية » التي أخذت ثمود « والعاتية » التي أخذت عاداً ، وتناسب جو الهول والرعب في السياق بدون تفصيل ولا تطويل !

ثم يرسم مشهد الطوفان والسفينة الجارية ، مشيراً بهذا المشهد إلى مصرع قوم نوح حين كذبوا . ومتمناً على البشر بنجاة أصولهم التي انبثقوا منها ، ثم لم يشكروا ولم يعتبروا بتلك الآية الكبرى :

« إننا لما طغى الماء حملناكم في الجارية ، لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية » ..

ومشهد طغيان الماء ومشهد الجارية على الماء الطاغية ، كلاهما يتناسق مع مشاهد السورة وظلالها . وجرس الجارية وواعية تمتشى كذلك مع إيقاع القافية . وهذه اللمسة « لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية » تلمس القلوب الخاملة والآذان البليدة ، التي تكذب بعد كل ما سبق من التذوكل ما سبق من المصائر ، وكل ما سبق من الآيات ، وكل ما سبق من العظات ، وكل ما سبق من آلاء الله ونعمه على أصول هؤلاء الغافلين !

وكل هذه المشاهد المروعة الهائلة القاصمة الحاسمة تبدو ضئيلة صغيرة إلى جانب الهول الأكبر . هول الحاقة والقارعة التي يكذب بها المكذبون ، وقد شهدوا مصارع المكذبين ..

إن الهول في هذه المصارع - على ضخامتها - محدود إذا قيس إلى هول القارعة المطلق من الحدود المدخر لذلك اليوم المشهود . وهنا بعد هذا التمهيد يكمل العرض ، ويكشف عن الهول كأنه التكملة المدخرة للمشاهد الأولى : « فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة . وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة . فيومئذ وقعت الواقعة . وانشقت السماء فهي يومئذ واهية . والمملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية .. »

ونحن نؤمن أن هناك نفخة في الصور وهو البوق تحدث بعدها هذه الأحداث . ولا نزيد في تفصيلها شيئاً . لأنها غيب . ليس عندنا من دلائله إلا مثل هذه النصوص المجملية ؛ وليس لنا مصدر آخر لتفصيل هذا الإجمال . والتفصيل لا يزيد في حكمة النص شيئاً ، والجري وراءه عبث لا طائل تحته ، إلا اتباع الظن المنهني عنه أصلاً .

فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة ، فنع هذه النفخة تلك الحركة الهائلة : « وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة » .. ومشهد حمل الأرض والجبال ونفضها ودكها دكة واحدة تسوي عاليها بسافلها .. مشهد مروع حقاً . هذه الأرض التي يحوس الإنسان خلالها آمناً مطمئناً ، وهي تحته مستقرة مطمئنة . وهذه الجبال الراسية الوطيدة الراسخة التي تهول الإنسان بروعتها واستقرارها .. هذه مع هذه تحمل فدك كالكرة في يد الوليد .. إنه مشهد يشعر معه الإنسان بضآلته وضآلة عالمه إلى جانب هذه القدرة القادرة ، في ذلك اليوم العظيم ..

فإذا وقع هذا . إذا نفخ في الصور نفخة واحدة ، وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة .. فهو حينئذ الأمر الذي نتحدث عنه السورة : « فيومئذ وقعت الواقعة » .. والواقعة اسم من أسمائها كالحاقة والقارعة . فهي الواقعة لأنها لا بد واقعة . كأن طبيعتها وحقيقتها الدائمة أن تكون واقعة ! وهو اسم ذو إيحاء معين وهو إيحاء مقصود في صدد الارتياح فيها والتكذيب !

ولا يقتصر الهول على حمل الأرض والجبال ودكها دكة واحدة ، فالسما في هذا اليوم الهائل ليست بناجية : « وانشقت السماء فهي يومئذ واهية » ..

ونحن لا ندري على وجه التحقيق ما السماء المقصودة بهذا اللفظ في القرآن . ولكن هذا النص والنصوص الأخرى التي تشير إلى الأحداث الكونية في ذلك اليوم العظيم كلها تشير إلى انفرط عقد هذا الكون المنظور ، واختلال روابطه وضوابطه التي تمسك به في هذا النظام البديع الدقيق ، وتناثر أجزائه بعد انفلاتها من قيد التاموس ..

ولعله من المصادفات الغريبة أن ينبأ الآن علماء الفلك بشيء يشبه هذا تكون فيه نهاية العالم ، استنباطاً من ملاحظتهم العلمية البحتة ، وحسب القليل الذي عرفوه من طبيعة هذا الكون وقصته كما افترضوها ..

فأما نحن فنكاد نشهد هذه المشاهد المذهلة ، من خلال النصوص القرآنية الجازمة ؛ وهي نصوص مجملة توحي بشيء عام ؛ ونحن نقف عند إيحاء هذه النصوص ، فهي عندنا الخبر الوحيد المستيقن عن هذا الشأن ، لأنها صادرة من صاحب الشأن ، الذي خلق ، والذي يعلم ما خلق علم اليقين . نكاد نشهد الأرض وهي تحمل بجبالها بكتلتها هذه ، الضخمة بالقياس إلينا ، الصغيرة كالهباءة بالقياس إلى الكون ، فدك دكة واحدة ؛ ونكاد نشهد السماء وهي مشفقة واهية والكواكب وهي متناثرة منكدة .. كل ذلك من خلال النصوص القرآنية الحية ، المشخصة المشاهد بكامل قوتها كأنها حاضرة ..

ثم يغمر الجلال المشهد ويغشيه ، وتسكن الضجة التي تملأ الحس من النفخة والدكة والتشقق والانتشار . يسكن هذا كله ويظهر في المشهد عرش الواحد القهار :

« والملك على أرجائها ، ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية » ..

والملائكة على أرجاء هذه السماء المنشقة وأطرافها ، والعرش فوقهم يحمله ثمانية .. ثمانية أملاك أو ثمانية صفوف منهم ، أو ثمانية طبقات من طبقاتهم ، أو ثمانية مما يعلم الله . لا ندري نحن من هم ولا ما هم . كما لا ندري نحن ما العرش ؟ ولا كيف يحمل ؟ ونخلص من كل هذه الغيبات التي لا علم لنا بها ، ولم يكلفنا الله من علمها إلا ما قص علينا . نخلص من مفردات هذه الغيبات إلى الظل الجليل الذي تخلعه على الموقف . وهو المطلوب منا أن تستشعره ضائرتنا . وهو المقصود من ذكر هذه الأحداث ليشرح القلب البشري بالجلال والرهبة والخشوع ، في ذلك اليوم العظيم ، وفي ذلك الموقف الجليل :

« يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية » ..

فالكل مكشوف . مكشوف الجسد ، مكشوف النفس ، مكشوف الضمير ، مكشوف العمل ، مكشوف المصير . وتسقط جميع الأسرار التي كانت تحجب الأسرار ، وتتعري النفوس تعري الأجساد ، وتبرز الغيوب بروز الشهود .. ويتجرد الإنسان من حيطته ومن مكره ومن تدبيره ومن شعوره ، ويفتضح منه ما كان حريصاً على أن يستره حتى عن نفسه ! وما أقى الفضيحة على الملائكة . وما أخزأها على عيون الجموع ! أما عين الله فكل خافية مكشوفة لها في كل آن . ولكن لعل الإنسان لا يشعر بهذا حق الشعور ، وهو مخدوع بسنور الأرض . فها هو ذا يشعر بكاملاً وهو مجرد في يوم القيامة . وكل شيء بارز في الكون كله . الأرض مذكوكة مسواة لا تحجب شيئاً وراء تنوء ولا بروز . والسماء متشفقة واهية لا تحجب وراءها شيئاً ، والأجسام معارة لا يسترها شيء ، والنفوس كذلك مكشوفة ليس من دونها ستر وليس فيها سر !

ألا إنه لأمر عصب . أعصب من ذلك الأرض والجبال ، وأشد من تشقق السماء ! وقوف الإنسان عريان الجسد ، عريان النفس ، عريان المشاعر ، عريان التاريخ ، عريان العمل ما ظهر منه وما استتر . أمام تلك الحشود الهائلة من خلق الله ، من الإنس والجن والملائكة ، وتحت جلال الله وعرشه المرفوع فوق الجميع ..

وإن طبيعة الإنسان لمعدة شديدة التعقيد ، ففي نفسه منحنيات شتى ودروب ، تتخفى فيها نفسه وتتدلسس بمشاعرها ونزواتها وهفواتها وخواطرها وأسرارها وخصوصياتها . وإن الإنسان ليصنع أشد مما تصنعه القوقعة الرخوة الهلامية حين تتعرض لوخزة إبرة ، فتتطوي سريعاً ، وتنكش داخل القوقعة ، وتغلق على نفسها تماماً . إن الإنسان ليصنع أشد من هذا حين يحس أن عيناً تدست عليه فكشفت منه شيئاً مما يخفيه ، وأن لمحة أصابت منه دبراً خفياً أو منحنى سرياً ! ويشعر بقدر عنيف من الألم الواخز حين يطلع عليه أحد في خلوة من خلواته الشعورية ..

فكيف بهذا المخلوق وهو عريان . عريان حقاً . عريان الجسد والقلب والشعور والنية والضمير . عريان من كل سائر . عريان ... كيف به وهو كذلك تحت عرش الجبار ، وأمام الحشد الزاخر بلا ستر ؟ !

ألا إنه لأمر ، أمر من كل أمر ! ! !

• • •

وبعدئذ يعرض مشهد الناجين والمعذنين ، كأنه حاضر تراه العيون ..

« فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول : هاؤم أقرأوا كتابيه ، إني ظننت أني ملاق حسابيه .. فهو في عيشة راضية . في جنة عالية . قطوفها دانية . كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية » .

وأخذ الكتاب باليمين وبالشمال ومن وراء الظهر قد يكون حقيقة مادية ، وقد يكون تمثيلاً لغوياً جارياً على اصطلاحات اللغة العربية من تعبيرهم عن وجهة الخير باليمين ووجهة الشر بالشمال أو من وراء الظهر .. وسواء كان هذا أو ذاك فالملدول واحد ، وهو لا يستدعي جدلاً يضيع فيه جلال الموقف !

والمشهد المعروض هو مشهد التاجي في ذلك اليوم العصيب ، وهو ينطلق في فرحة غامرة ، بين الجموع الحاشدة ، تملأ الفرحة جوانحه ، وتغلبه على لسانه ، فيهتف : « هاؤم أقرأوا كتابيه » . ثم يذكر في بهجة أنه لم يكن يصدق أنه ناج ، بل كان يتوقع أن يناقش الحساب .. « ومن نوقش الحساب عذب » كما جاء في الأثر : عن عائشة - رضي الله عنها - قالت : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « من نوقش الحساب عذب » فقلت : أليس يقول الله تعالى : « فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً وينقلب إلى أهله مسروراً » فقال : « إنما ذلك العرض وليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا هلك » .

وقد قال ابن أبي حاتم : حدثنا بشر بن مطر الواسطي ، حدثنا يزيد بن هارون ، أخبرنا عاصم ، عن الأحول ، عن أبي عثمان ، قال : المؤمن يعطى كتابه بيمينه في ستر من الله ، فيقرأ سيئاته ، فكلما قرأ سيئة تغير لونه ، حتى يمر بحسناته فيقرأها فيرجع إليه لونه ، ثم ينظر فإذا سيئاته قد بدلت حسنات . قال : فعند ذلك يقول : « هاؤم أقرأوا كتابيه » .

وروى عن عبد الله بن حنظلة - غسيل الملائكة <sup>١</sup> - قال : إن الله يوقف عبده يوم القيامة فيبيدي - أي يظهر - سيئاته في ظهر صحيفته ، فيقول له : أنت عملت هذا ؟ فيقول : نعم أي رب ! فيقول له : إني لم أفضحك به ، وإني قد غفرت لك . فيقول عند ذلك : « هاؤم أقرأوا كتابيه . إني ظننت أني ملاق حسابيه » . وفي الصحيح من حديث ابن عمر حين سئل عن النجوى ، فقال : « سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : « يديني الله العبد يوم القيامة ، فيقرره بذنوبه كلها ، حتى إذا رأى أنه قد هلك قال الله تعالى : إني سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم . ثم يعطى كتاب حسناته بيمينه . وأما الكافر والمنافق فيقول الأشهاد : هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ، ألا لعنة الله على الظالمين » .

ثم يعلن على رؤوس الأشهاد ما أعد لهذا التاجي من النعم ، الذي تبدو فيه هنا ألوان من النعم الحسي ، تناسب حال المخاطبين إذ ذاك ، وهم حديثو عهد بباهلية ، ولم يسر من آمن منهم شوطاً طويلاً في الإيمان ، ينطبع به حسه ، ويعرف به من النعم ما هو أرق وأعلى من كل متاع :

« فهو في عيشة راضية . في جنة عالية . قطوفها دانية . كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية » .. وهذا اللون من النعم ، مع هذا اللون من التكريم في الالتفات إلى أهله بالخطاب وقوله : « كلوا واشربوا

(١) أخرجه الشيخان والترمذي وأبو داود .

(٢) استشهد حنظلة بن أبي عامر في غزوة أحد فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - . « إن صاحبكم - يعني حنظلة - لتغسله الملائكة » . فسألوا أهله : ما شأنه ؟ فسلت صاحبه عنه ، فقالت : خرج وهو جنب حين سمع الهافنة ( من رواية ابن إسحاق ) .

هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية .. فوق أنه اللون الذي تبلغ إليه مدارك المخاطبين بالقرآن في أول العهد بالصلة بالله ، قبل أن تسمو المشاعر فترى في القرب من الله ما هو أعجب من كل متاع .. فوق هذا فإنه يلبي حاجات نفوس كثيرة على مدى الزمان . والنعم ألوان غير هذا وألوان ..

« وأما من أوتي كتابه بشماله » وعرف أنه مؤاخذ بسيئاته ، وأن إلى العذاب مصيره ، فيقف في هذا المعرض الحافل الحاشد ، وقفة المتحسر الكبير الكتيب .. « فيقول : يا ليتني لم أوت كتابي ! ولم أدر ما حسابي ! يا ليتني كانت القاضية ! ما أغنى عني مالي ! هلك عني سلطاني ! » ..

وهي وقفة طويلة ، وحسرة مديدة ، ونعمة بائسة ، ولهجة بائسة . والسياق يطيل عرض هذه الوقفة حتى ليخيل إلى السامع أنها لا تنتهي إلى نهاية ، وأن هذا التفعج والتحسر سيمضي بلا غاية ! وذلك من عجائب العرض في إطالة بعض المواقف ، وتقصير بعضها ، وفق الإيحاء النفسي الذي يريد أن يتركه في النفوس . وهنا يراد طبع موقف الحسرة وإيحاء الفجعة من وراء هذا المشهد الحسير . ومن ثم يطول ويطول ، في تنغم وتفصيل . ويتمنى ذلك البائس أنه لم يأت هذا الموقف ، ولم يؤت كتابه ، ولم يدر ما حسابي ؛ كما يتمنى أن لو كانت هذه القارعة هي القاضية ، التي تنهي وجوده أصلاً فلا يعود بعدها شيئاً . ثم يتحسر أن لاشيء نافعه مما كان يعتز به أو يجمعه : « ما أغنى عني مالي » .. « هلك عني سلطاني » .. فلا المال أغنى أو نفع . ولا السلطان بقي أو دفع . والزنة الحزينة الحسرة المديدة في طرف الفاصلة الساكنة وفي باء العلة قبلها بعد المد بالألف ، في تحزن وتحسر .. هي جزء من ظلال الموقف الموحية بالحسرة والأسى إيحاء عميقاً بليغاً ..

ولا يقطع هذه الرنة الحزينة المديدة إلا الأمر العلوي الجازم ، بجلاله وهوله وروعته :  
« خذوه . فخذوه . ثم الجحيم صلوه . ثم في سلسلة ذرعتها سبعون ذراعاً فاسلكوه » ..  
يا للهول المائل ! ويا للرعب القاتل ! ويا للجلال المائل !  
« خذوه » ..

كلمة تصدر من العلي الأعلى . فيتحرك الوجود كله على هذا المسكين الصغير الهزيل . ويتندره المكلفون بالأمر من كل جانب ، كما يقول ابن أبي حاتم بإسناده عن المنهال بن عمرو : « إذا قال الله تعالى : خذوه ابتدره سبعون ألف ملك . إن الملك منهم ليقول هكذا فيلتي سبعين ألفاً في النار » .. كلهم يتندر هذه الحشرة الصغيرة المكروبة المذهولة !

« فخذوه » ..

فأي السبعين ألفاً بلغه جعل الغل في عنقه .. !

« ثم الجحيم صلوه » ..

ونكاد نسمع كيف تشويه النار وتصلبه ..

« ثم في سلسلة ذرعتها سبعون ذراعاً فاسلكوه » ..

وذرّاع واحدة من سلاسل النار تكفيه ! ولكن إيحاء التطويل والتويل ينضح من وراء لفظ السبعين وصورتها .

(١) اراجع فصل : التناقض الفني في كتاب : التصوير الفني في القرآن . كما تراجع سورة الحاقة في كتاب : مشاهد القيامة في القرآن . « دار الشروق » .

ولعل هذا الإيحاء هو المقصود !<sup>١</sup>.

فإذا انتهى الأمر ، نشرت أسبابه على الحشود :

« إنه كان لا يؤمن بالله العظيم . ولا يحض على طعام المسكين » .

إنه قد خلا قلبه من الإيمان بالله ، والرحمة بالعباد . فلم يعد هذا القلب يصلح إلا لهذه النار وذلك العذاب . خلا قلبه من الإيمان بالله فهو موات ، وهو خرب ، وهو بور . وهو خلو من النور . وهو مسخ من الكائنات لا يساوي الحيوان بل لا يساوي الجماد . فكل شيء مؤمن ، يسبح بحمد ربه ، موصول بمصدر وجوده . أما هو فمقطوع من الله . مقطوع من الوجود المؤمن بالله .

وخلا قلبه من الرحمة بالعباد . والمسكين هو أحوج العباد إلى الرحمة ولكن هذا لم يستشعر قلبه ما يدعو إلى الاحتفال بأمر المسكين . ولم يحض على طعامه وهي خطوة وراء إطعامه . توحى بأن هناك واجباً اجتماعياً يتحاض عليه المؤمنون . وهو وثيق الصلة بالإيمان . يليه في النص ويليه في الميزان !

« فليس له اليوم هاهنا حميم . ولا طعام إلا من غسلين . لا يأكله إلا الخاطئون » .

وهي تكملة الإعلان العلوي عن مصير ذلك الشيء . فلقد كان لا يؤمن بالله العظيم ، وكان لا يحض على طعام المسكين . فهو هنا مقطوع « فليس له اليوم ها هنا حميم » .. وهو ممنوع : « ولا طعام إلا من غسلين » .. والغسلين هو غسالة أهل جهنم من قيح وصدید ! وهو يناسب قلبه النكد الخاوي من الرحمة بالعباد ! طعام « لا يأكله إلا الخاطئون » .. المذنبون المتصفون بالخطيئة .. وهومهم في الصمم !

وبعد ، فذلك هو الذي يجعله الله مستحقاً للأخذ والغل والتصلية والسلسلة التي ذرعه سبعون ذراعاً في الجحيم . وهو أشد دركات جهنم عذاباً .. فكيف بمن يمنع طعام المسكين ومن يجمع الأطفال والنساء والشيوخ ، ومن يطش بطشة الجبارين بمن يمد إليهم يده باللحمة والكساء في برد الشتاء ؟ أين ترى يذهب هؤلاء ، وهم يوجدون في الأرض بين الحين والحين ؟ وما الذي أعده الله لهم وقد أعد لمن لا يحض على طعام المسكين ، ذلك العذاب في الجحيم ؟

وينتهي هذا المشهد العنيف المثير . الذي لعله جاء في هذه الصورة المفزعة لأن البيئة كانت جبارة قاسية عنيدة تحتاج إلى عرض هذه المشاهد العنيفة كي تؤثر فيها وتهزها وتستجيبها . ومثل هذه البيئة يتكرر في الجاهليات التي تمر بها البشرية ، كما أنه يوجد في الوقت الواحد مع أرق النباتات وأشدها تأثراً واستجابة . لأن رقعة الأرض واسعة . وتوزيع المستويات والنفسيات فيها مختلف . والقرآن يخاطب كل مستوى وكل نفس بما يؤثر فيها ، وبما تستجيب له حين يدعوها . والأرض تحتوي اليوم في بعض نواحيها قلباً أقسى ، وطبائع أجسى ، وجبلات لا يؤثر فيها إلا كلمات من نار وشواظ كهذه الكلمات . ومشاهد وصور مثيرة كهذه المشاهد والصور المثيرة ..

• • •

وفي ظل هذه المشاهد العنيفة المثيرة ، المتوالية منذ أول السورة ، مشاهد الأخذ في الدنيا والآخرة ، ومشاهد التدمير الكونية الشاملة ، ومشاهد النفوس المكشوفة العارية ، ومشاهد الفرحة الطائرة والحسرة الغامرة .. في ظل هذه المشاهد العميقة الأثر في الشاعر يجيء التقرير الحاسم الجازم عن حقيقة هذا القول الذي جاءهم به

(١) مشاهد القيامة : سورة الحاقة . « دار الشروق » .

الرسول الكريم ، فنلقوه بالشلك والسخرية والتكذيب :

« فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون . إنه لقول رسول كريم . وما هو بقول شاعر ، قليلاً ما تؤمنون . ولا بقول كاهن ، قليلاً ما تذكرون . تنزيل من رب العالمين » ..

إن الأمر لا يحتاج إلى قسم وهو واضح هذا الوضوح ، ثابت هذا الثبوت ، واقع هذا الوقوع . لا يحتاج إلى قسم أنه حق ، صادر عن الحق ، وليس شعر شاعر ، ولا كهانة كاهن ، ولا اقتراء مفتر ! لا . فها هو بحاجة إلى تأكيد بيمين :

« فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون » ..

بهذه الفخامة وبهذه الضخامة ، وبهذا التهيل بالغيب المكنون ، إلى جانب الحاضر المشهود .. والوجود أضخم بكثير مما يرى البشر . بل مما يدركون . وما يصير البشر من الكون وما يدركون إلا أطرافاً قليلة محصورة ، تلبي حاجتهم إلى عمارة هذه الأرض والخلافة فيها . كما شاء الله لهم – والأرض كلها ليست سوى هباءة لا تكد ترى أو تحس في ذلك الكون الكبير . والبشر لا يملكون أن يتجاوزوا ما هو مأذون لهم برؤيته وبإدراكه من هذا الملك العريض ، ومن شؤونه وأسراره ونواميسه التي أودعها إياه خالق الوجود ..

« فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون » ..

ومثل هذه الإشارة تفتح القلب وتنبه الوعي إلى أن هناك وراء مد البصر و وراء حدود الإدراك جوانب وعوالم وأسراراً أخرى لا يبصرها ولا يدركها . وتوسع بذلك آفاق التصور الإنساني للكون والحقيقة . فلا يعيش الإنسان سجين ما تراه عيناه ، ولا أسير ما يدركه وعيه المحدود . فالكون أرحب والحقيقة أكبر من ذلك الجهاز الإنساني المزود بقدر محدود من الطاقة يناسب وظيفته في هذا الكون . ووظيفته في الحياة الدنيا هي الخلافة في هذه الأرض .. ولكنه يملك أن يكبر ويرتفع إلى آفاق أكبر وأرفع حين يستيقظ أن عينه ومداركه محدودة ، وأن هناك وراء ما تدركه عينه وعيه عوالم وحقائق أكبر – بما لا يقاس – مما وصل إليه .. عندئذ يتسامى على ذاته ويرتفع على نفسه ، ويتصل بينابيع المعرفة الكلية التي تفيض على قلبه بالعلم والنور والاتصال المباشر بما وراء الستور ! إن الذين يحصرون أنفسهم في حدود ما ترى العين ، ويدرك الوعي ، بأدواته الميسرة له .. مساكين ! سجناء حسهم وإدراكهم المحدود . محصورون في عالم ضيق على سعته ، صغير حين يقاس إلى ذلك الملك الكبير ..

وفي قرات مختلفة من تاريخ هذه البشرية كان كثيرون أو قليلون يسجنون أنفسهم بأيديهم في سجن الحس المحدود ، والحاضر المشهود ؛ ويغلقون على أنفسهم نوافذ المعرفة والنور ، والاتصال بالحق الكبير ، عن طريق الإيمان والشعور . ويحاولون أن يغلقوا هذه النوافذ على الناس بعد ما أغلقوها على أنفسهم بأيديهم .. تارة باسم الجاهلية . وتارة باسم العلمانية ! وهذه كتلك سجن كبير . وبؤس مرير . وانقطاع عن يتابع المعرفة والنور !

والعلم يتخلص في هذا القرن الأخير من تلك القضبان الحديدية التي صاغها – بحكم وغرور – حول نفسه في القرنين الماضيين .. يتخلص من تلك القضبان ، ويتصل بالنور – عن طريق تجاربه ذاتها – بعد ما أفاق من سكرة الغرور والاندفاع من أسر الكنيسة الطاغية في أوربا<sup>١</sup> ؛ وعرف حدوده ، وجرب أن أدواته المحدودة تقوده إلى غير المحدود في هذا الكون وفي حقيقته المكنونة . وعاد « العلم يدعو إلى الإيمان »<sup>٢</sup> في تواضع تبشر

(١) اراجع بنوسع كتاب : الإنسان بين المادية والإسلام لمحمد قطب .. فصل نظرة المسيحية وفصل فرويد « دار الشروق » .

(٢) عنوان ترجمة كتاب « كريسبي موريسون رئيس أكاديمية العلوم بنيويورك لمحمود صالح القلعي » .

أوائله بالفرج ! أي نعم بالفرج . فما يسجن الإنسان نفسه وراء قضبان المادة الموهومة إلا وقد قدر عليه الضيق !

ولقد رأينا عالماً مثل ألكسيس كاريل الطبيب المتخصص في بحوث الخلية ونقل الدم والمشتغل بالطب علماً وجراحة وإشفاقاً على معاهد العلاج والنظريات العلاجية ، وصاحب جائزة نوبل سنة ١٩١٢ ومدير معهد الدراسات الإنسانية بفرنسا خلال الحرب العالمية الثانية يرى :

« أن الكون على رجه مملوء بمقول فعالة غير عقولنا ، وأن العقل الإنساني هاد قاصد بين دروب التيه التي حوله إذا كان معوله كله على هدايته . وإن الصلاة من وسائل الاتصال بالعقول التي حولنا ، وبالعقل الأبدى المسيطر على مقادير الأكوان قاطبة ، فيما هو ظاهر لنا وما هو محتجب عنا في طي الخفاء »<sup>١</sup> .

« وأن الشعور بالقداسة مع غيره من قوى النشاط الروحاني له شأن خاص في الحياة ، لأنه يقيمنا على اتصال بآفاق الخفاء الهائل من عالم الروح » . .<sup>٢</sup>

ورأينا طبيباً آخر مثل « دي نوي » الذي اشتغل بمباحث التشريح والعلم الطبيعى ، وعمل مع الأستاذ كوري وقرينته ، واستدعاه معهد روكفلر لمواصلة بحث مع أعضائه في خصائص وعلاج الجراح . . يقول :

« كثير من الأذكى وذوي النية الحسنة يتخيّلون أنهم لا يستطيعون الإيمان بالله لأنهم لا يستطيعون أن يدركوه . على أن الإنسان الأمين الذي تنطوي نفسه على الشوق العلمي لا يلزمه أن يتصور الله إلا كما يلزم العالم الطبيعى أن يتصور الكهر . فإن التصور في كلتا الحالتين ناقص وباطل . وليس الكهر قابلاً للتصور في كيانه المادي ! وإنه مع هذا لا ثبت في آثاره من قطعة الخشب » . .<sup>٣</sup> .

ورأينا عالماً طبيعياً مثل سير آرثر طومسون المؤلف الاسكتلندي الشهير يقول : « إننا في زمن شفت فيه الأرض الصلبة ، وفقد فيه الأثير كيانه المادي ، فهو أقل الأزمنة صلاحاً للغلو في التأويلات المادية » .  
ويقول في مجموعة « العلم والدين » :

« ليس للعقل المتدين أن بأسف اليوم لأن العالم الطبيعى لا يخلص من الطبيعة إلى رب الطبيعة . إذ ليست هذه وجهته . وقد تكون النتيجة أكبر جداً من المقدمة إذا خرج العلماء بالاستنتاج من الطبيعة إلى ما فوق الطبيعة . إلا أننا خلقاء أن نغبط لأن العلماء الطبيعيين قد يسروا للزعة الدينية أن تتنفس في جو العلم ، حيث لم يكن ذلك يسيراً في أيام آبائنا وأجدادنا . . . فإذا لم يكن عمل الطبيعيين أن يبحثوا في الله - كما زعم مستر لانجندون دافيز خطأ في كتابه البديع عن الإنسان وعالمه - فنحن نقرر عن روية أن أعظم خدمة قام بها العلم ، أنه قاد الإنسان إلى فكرة عن الله أنبل وأسمى ، ولا يتجاوز المعنى الحرفي حين نقول : إن العلم أنشأ للإنسان سماء جديدة وأرضاً جديدة ، وحفره من ثم إلى غاية جهده العقلي ، فإذا به ، في كثير من الأحيان ، لا يجد السلام إلا حيث يتخطى مدى الفهم ، وذلك في اليقين والاطمئنان إلى الله »<sup>٤</sup> .

ورأينا عالماً مثل « ا. كريسي موريسون » رئيس أكاديمية العلوم بنيويورك وعضو المجلس التنفيذي لمجلس

(١) عن كتاب : عقائد المفكرين في القرن العشرين للعقاد .

(٢) عقائد المفكرين في القرن العشرين .



البحوث القومي بالولايات المتحدة سابقاً يقول في كتابه : « الإنسان لا يقوم وحده » :

« إننا نقرب فعلاً من عالم المجهول الشاسع ، إذ ندرك أن المادة كلها قد أصبحت من الوجهة العلمية مجرد مظهر لوحدة عالمية هي في جوهرها كهربائية . ولكن مما لا ريب فيه أن المصادفة لم يكن لها دخل في تكوين الكون ، لأن هذا العالم العظيم خاضع للقانون .

« إن ارتقاء الإنساني الحيواني إلى درجة كائن مفكر شاعر بوجوده ، هو خطوة أعظم من أن تتم عن طريق التطور المادي ، ودون قصد ابتداعي .

« وإذا قبلت واقعية القصد ، فإن الإنسان بوصفه هذا قد يكون جهازاً . ولكن ما الذي يدير هذا الجهاز ؟ لأنه بدون أن يدار لا فائدة منه . والعلم لا يعطل من يتولى إدارته ، وكذلك لا يزعم أنه مادي .

« لقد بلغنا من التقدم درجة تكفي لأن نقول بأن الله قد منح الإنسان قبساً من نوره ... » .

وهكذا بدأ العلم يخرج من سجن المادية وجدرانها بوسائله الذاتية ، فيتصل بالجو الطليق الذي يشير القرآن إليه بمثل تلك الآية الكريمة : « فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون » . ونظائره المتعددة . وإن يكن بيننا نحن من أقزام التفكير والشعور من لا يزال يغلق بكتلتا يديه نوافذ النور على نفسه وعلى من حوله باسم العلم ! في تخلف عقلي عن العلم ، وفي تخلف روحي عن الدين ، وفي تخلف شعوري عن الحرية الطليقة في معرفة الحقيقة ! وفي تخلف إنساني عما يليق بالكائن الإنساني الكريم !

فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون .. « إنه لقول رسول كريم . وما هو بقول شاعر قليل ما يؤمنون ، ولا بقول كاهن قليل ما تذكرون . تنزيل من رب العالمين » ..

ولقد كان مما نقول به المشركون على القرآن وعلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قولهم : إنه شاعر . وإنه كاهن . متأثرين في هذا بشبهة سطحية ، منشؤها أن هذا القول فائق في طبيعته على كلام البشر . وأن الشاعر في وهمهم له رأي من الجن يأتيه بالقول الفائق ، وأن الكاهن كذلك متصل بالجن . فهم الذين يمدونه بعلم ما وراء الواقع ! وهي شبهة تسقط عند أقل تدبر لطبيعة القرآن والرسالة ، وطبيعة الشعر أو الكهانة ..

فالشعر قد يكون موسيقي الإيقاع ، رائع الأخیلة ، جميل الصور والظلال ، ولكنه لا يختلط أبداً ولا يشبه بهذا القرآن إن هنالك فارقاً أساسياً فاصلاً بينهما . إن هذا القرآن يقرر منهجاً متكاملًا للحياة يقوم على حق ثابت ، ونظرة موحدة ، ويصدر عن تصور للوجود الإلهي ثابت ، وللكون والحياة كذلك . والشعر انفعالات متوالية وعواطف جياشة ، قلما تثبت على نظرة واحدة للحياة في حالات الرضى والغضب ، والانطلاق والانكماش ، والحب والكره ، والتأثرات المتغيرة على كل حال !

هذا إلى أن التصور الثابت الذي جاء به القرآن قد أنشأه القرآن من الأساس ، في كلياته وجزيئاته ، مع تعيين مصدره الإلهي . فكل ما في هذا التصور يوحي بأنه ليس من عمل البشر ، فليس من طبيعة البشر أن ينشؤوا تصوراً كونياً كاملاً كهذا التصور .. لم يسبق لهم هذا ولم يلحق .. وهذا كل ما أبدعته قرائح البشر من تصورات للكون وللقدرة المنشئة له المدبرة لنظامه .. هذا هو معروفاً مسجلاً في الفلسفة وفي الشعر وفي غيرها من المذاهب الفكرية ، فإذا قرن إلى التصور القرآني وضع أن هذا التصور صادر من جهة غير تلك الجهة ! وأنه منفرد بطابع معين يميزه من كل تصورات البشر .

كذلك الأمر في الكهانة وما يصدر عنها . فلم يعرف التاريخ من قبل أو بعد كاهناً أنشأ منهجاً متكاملأً ثابتاً كالمنهج الذي جاء به القرآن . وكل ما نقل عن الكهنة أسجاع لفظية أو حكمة مفردة ، أو إشارة ملغزة ! وهناك لفتات ليس من طبيعة البشر أن يلتفتوها ، وقد وقفنا عند بعضها في هذه الظلال أحياناً . فلم يسبق لبشر ولم يلحق كذلك أن أراد التعبير عن العلم الشامل الدقيق اللطيف ، فأتجه إلى مثل هذه الصورة التي جاءت في القرآن :

« وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ، ويعلم ما في البر والبحر ، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ، ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين <sup>١</sup> .. أو إلى مثل هذه الصورة : « يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ، وهو معكم أينما كنتم ، والله بما تعملون بصير <sup>٢</sup> » أو إلى مثل هذه الصورة : « وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه . وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب . إن ذلك على الله يسير <sup>٣</sup> »

كذلك لم يسبق لبشر ولم يلحق أن التفت مثل هذه اللفتة إلى القدرة التي تمسك هذا الكون وتدبره : « إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا . ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده <sup>٤</sup> .. » أو هذه اللفتة إلى انبثاقات الحياة في الكون من يد القدرة المبدعة وما يحيط بالحياة من موافقات كونية مدبرة مقدرة :

« إن الله فائق الحب والنوى ، يخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي . ذلكم الله . فأنى تؤفكون . فائق الإصباح . وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً ، ذلك تقدير العزيز العليم . وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر ، قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون . وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع ، قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون . وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء ، فأخرجنا منه خضراً ، نخرج منه حباً متراكباً ، ومن النخل من طلعها قنوان دانية ، وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه . انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون <sup>٥</sup> .. »

وهذه اللفطات الكونية كثيرة في القرآن كثرة ملحوظة ، ولا نظير لها فيما تتجه إليه خواطر البشر للتعبير عن مثل المعاني التي يعبر عنها القرآن .. وهذه وحدها كافية لمعرفة مصدر هذا الكتاب .. بغض النظر عن كل دلالة أخرى من صلب الكتاب أو من الملابسات المصاحبة له على السواء .

فالشبهة واهية سطحية . حتى حين كان القرآن لم يكتمل ، ولم تنتزل منه إلا سور وآيات عليها ذلك الطابع الإلهي الخاص ، وفيها ذلك القبس الموحى بمصدرها الفريد .

وكبراء قريش كانوا يراجعون أنفسهم ، ويردون على هذه الشبهة بين الحين والحين . ولكن الغرض يعمي ويصم . وإذ لم يهتدوا به فسيقولون : هذا إفك قديم . كما يقول القرآن الكريم !

وقد حكى كتب السيرة مواقف متعددة لزعماء قريش ، وهم يراجعون هذه الشبهة وينفونها فيما بينهم .

(١) سورة الأنعام : آية ٥٩ .

(٢) سورة الحديد : آية ٤

(٣) سورة فاطر : آية ١١

(٤) سورة فاطر : آية ٤١

(٥) سورة الأنعام : آية ٩٥ - ٩٩

من ذلك ما رواه ابن اسحق عن الوليد بن المغيرة ، وعن النضر بن الحارث ، وعن عتبة بن ربيعة وقد جاء في روايته عن الأول :

« ثم إن الوليد بن المغيرة اجتمع إليه نفر من قريش . وكان ذا سن فيهم ؛ وقد حضر الموسم . فقال لهم : يا معشر قريش ، إنه قد حضر هذا الموسم ، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه ، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا ؛ فأجمعوا فيه رأياً واحداً ، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً ، ويرد قولكم بعضه بعضاً ، فقالوا : فأنت يا أبا عبد شمس فقل ، وأقم لنا رأياً نقل به . قال : بل أنتم فقولوا أسمع . قالوا : فنقول : كاهن . قال : لا والله ، ما هو بكاهن ، لقد رأينا الكهان فما هو بزممة الكاهن ولا سجعه . قالوا : فنقول : مجنون . قال : ما هو بمجنون ، لقد رأينا الجنون وعرفناه ، فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته . قالوا : فنقول : شاعر . قال : ما هو بشاعر ، لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه فما هو بالشعر . قالوا : فنقول : ساحر . قال : ما هو بساحر ؛ لقد رأينا السحار وسحرم ، فما هو بنفثهم ولا عقدهم .. قالوا : فما نقول يا أبا عبد شمس ؟ قال : والله إن لقوله لحلاوة ، وإن أصله لعنق ، وإن فرعه لجناة<sup>١</sup> وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عرف أنه باطل ، وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا : هو ساحر جاء بقول هو سحر يفرق بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجه ، وبين المرء وعشيرته . فنفرقوا عنه بذلك ، فجعلوا يجلسون بسبل الناس - حين قدموا الموسم - لا يمر بهم أحد إلا حذروه إياه ، وذكروا لهم أمره ... »

وحكى عن الثاني ( النضر بن الحارث ) قال :

« فقال يا معشر قريش . إنه والله قد نزل بكم أمر ما أتيت له بحيلة بعد . قد كان محمد فيكم غلاماً حدثاً ، أرضاكم فيكم ، وأصدقكم حديثاً ، وأعظمكم أمانة ، حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب ، وجاءكم بما جاءكم به قلتم : ساحر ! لا والله ، ما هو بساحر . لقد رأينا السحرة ونفثهم وعقدهم . وقتل كاهن ! لا والله ما هو بكاهن . قد رأينا الكهنة وتخالجهم ، وسمعنا سجعهم . وقتل شاعر ! لا والله ما هو بشاعر . قد رأينا الشعر ، وسمعنا أصنافه كلها هزجه ورجزه . وقتل مجنون ! لقد رأينا الجنون فما هو بخنقه ولا وسوسته ولا تخليطه . يا معشر قريش ، فانظروا في شأنكم ، فإنه والله قد نزل بكم أمر عظيم ... »

والمطابقة تكاد تكون تامة - بين قوله وقول عتبة . وقد يكون هو حادثاً واحداً نسب مرة إلى هذا ومرة إلى ذاك . ولكن لا نستبعد كذلك أن يتطابق قولان لرجلين من كبار قريش في موقفين متشابهين من مواقف حيرتهم تجاه هذا القرآن !

وأما موقف عتبة فقد سبقت حكايته في استعراضنا لسورة القلم في هذا الجزء .. وهو قريب من موقف الوليد والنضر تجاه محمد وقول عتبة الذي جاء به ..

فما كان قولهم : ساحر أو كاهن ، إلا حيلة ماكرة أحياناً وشبهة مفضوحة أحياناً . والأمر أوضح من أن يلتبس عند أول تدبر وأول تفكير . وهو من ثم لا يحتاج إلى قسم بما يعلمون وما لا يعلمون : إنه لقول رسول كريم . وما هو بقول شاعر . ولا بقول كاهن .. إنما هو تنزيل من رب العالمين .

وتقرير أنه قول رسول كريم لا يعني أنه من إنشائه ، ولكن المراد هنا أنه قول من نوع آخر . لا يقوله شاعر ، ولا يقوله كاهن ، إنما يقوله رسول ، يرسل به من عند الله ، فيحمله من هناك ، من ذلك المصدر الذي أرسله .

(١) العنق : الكثير الشعب والأطراف . والجناة : ما فيه نمر يحيى .

والذي يعين هذا المعنى هو كلمة رسول . أي مرسل به من عنده ، وليس شاعراً ولا كاهناً يقوله من عند نفسه . أو بمساعدة رأي أو شيطان .. إنما هو رسول يقول ما يحمله عن أرسله . ويقرر هذا تقريراً حاسماً ما جاء بعده : « تنزيل من رب العالمين » ..

والتعقيب : « قليلاً ما تؤمنون » .. « قليلاً ما تذكرون » .. مدلوله نفي الإيمان ، ونفي التذكر . وفق تعبيرات اللغة المألوفة . وفي الحديث في وصف رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « إنه كان يقل للغو » . أي لا يلقو أصلاً .. فقد نفى عنهم أصل الإيمان وأصل التذكر . وإلا فما يقول مؤمن عن الرسول : إنه شاعر ، ولا يقول متذكر متدبر : إنه كاهن . إنما هما الكفر والغفلة ينضحان بهذا القول النكير !

\* \* \*

وفي النهاية ينبغي ذلك التهديد العريب ، لمن يفترى على الله في شأن العقيدة وهي الجدة الذي لا هوادة فيه . ينبغي لتقرير الاحتمال الواحد الذي لا احتمال غيره ، وهو صدق الرسول - صلى الله عليه وسلم - وأمانته فيما أبلغه إليهم أو يبلغه . بشهادة أن الله لم يأخذه أخذاً شديداً . كما هو الشأن لو انحرف أقل انحراف عن أمانة التبليغ :

« ولو تقول علينا بعض الأقاويل . لأخذنا منه باليمين . ثم لقطعنا منه الوتين . فما منكم من أحد عنه حاجزين » .. ومفاد هذا القول من الناحية التقريرية أن محمداً - صلى الله عليه وسلم - صادق فيما أبلغهم . وأنه لو تقول بعض الأقاويل التي لم يوح بها إليه ، لأخذه الله فقتله على هذا النحو الذي وصفته الآيات . ولما كان هذا لم يقع فهو لا بد صادق .

هذه هي القضية من الناحية التقريرية .. ولكن المشهد المتحرك الذي ورد فيه هذا التقرير شيء آخر ، يلقي ظلالاً بعيدة وراء المعنى التقريري . ظلالاً فيها رهبة وفيها هول . كما أن فيها حركة وفيها حياة . ووراءها إحياءات وإيماءات وإيقاعات !

فيها حركة الأخذ باليمين وقطع الوتين . وهي حركة عنيفة هائلة مروعة حية في الوقت ذاته . ووراءها الإحياء بقدرة الله العظيمة وعجز المخلوق البشري أمامها وضعفه .. البشر أجمعين .. كما أن وراءها الإيماء إلى جدية هذا الأمر التي لا تحتمل تسامحاً ولا بجمالة لأحد كائنات من كان . ولو كان هو محمد الكريم عند الله الأثير الحبيب . ووراءها بعد هذا كله إيقاع الرهبة والهول والخشوع !

\* \* \*

وأخيراً ينبغي الخاتمة التقريرية بحقيقة هذا الأمر وطبيعته القوية :

« وإنه لتذكرة للمتقين . وإننا لنعلم أن منكم مكذبين . وإنه لحسرة على الكافرين . وإنه لحق اليقين » .

فهذا القرآن يذكر القلوب التقية فتذكر . إن الحقيقة التي جاء بها كائنة فيها . فهو يثيرها فيها ويذكرها بها فتذكرها . فأما الذين لا يتقون فقلوبهم مطموسة غافلة لا تفتتح ولا تذكّر ، ولا تنقيد من هذا الكتاب شيئاً . وإن المتقين ليجدون فيه من الحياة والنور والمعرفة والتذكير ما لا يجده الغافلون .

« وإننا لنعلم أن منكم مكذبين » .. ولكن هذا لا يؤثر في حقيقة هذا الأمر ، ولا يغير من هذه الحقيقة . فأمرهم أهون من أن يؤثر في حقائق الأمور .

« وإنه لحسرة على الكافرين » .. بما يرفع من شأن المؤمنين ، ويحط من قدر المكذبين وبما ينهي إليه من إقرار الحق وإزهاق الباطل الذي يستمسك به الكافرون . ثم إنه حجة عليهم عند الله في اليوم الآخر ، يعذبون

به ، ويتحسرون لما يصيبيهم بسببه . فهو حسرة على الكافرين في الدنيا والآخرة .

« وإنه لحق اليقين » .. مع تكذيب المكذبين . حق اليقين . فليس مجرد اليقين ، ولكنه الحق في هذا اليقين . وهو تعبير خاص بضاعف المعنى وبضاعف التوكيد . وإن هذا القرآن لعميق في الحق ، عميق في اليقين . وإنه ليكشف عن الحق الخالص في كل آية ما يشي بأن مصدره هو الحق الأول الأصيل ..

فهذه هي طبيعة هذا الأمر وحقيقته المستيقنة . لا هو قول شاعر . ولا هو قول كاهن . ولا هو تقول على الله . إنما هو التنزيل من رب العالمين . وهو التذكرة للمتيقن . وهو حق اليقين .

هنا يجيء التلقين العلوي للرسول الكريم ، في أنسب وقت وأنسب حالة لهذا التلقين :

« فبسم ربك العظيم » ..

والتسبيح بما فيه من تزيه وتمجيد . وبما فيه من اعتراف وتحقيق . وبما فيه من عبودية وخشوع ... هو الشعور الذي يخالج القلب ، بعد هذا التقرير الأخير ، وبعد ذلك الاستعراض الطويل ، لقدرة الله العظيم ، وعظمة الرب الكريم ..



## (٧٠) سُورَةُ الْمَعَارِجِ مَكِّيَّةٌ وَأَيَّاتُهَا أَرْبَعٌ وَارْبَعُونَ

### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ  
وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَرَأَوْهُ  
قَرِيبًا ﴿٧﴾ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِزِيقِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْأَلُ حِمِيمٌ حِمِيمًا ﴿١٠﴾  
يَبْصُرُونَهُ يَوْمَ الْمُجِزِمْ لَوْ يَفْقَدِي مِنَ عَذَابٍ يَوْمِيٍّ بَيْنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَاحِبَتِيهِ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي  
تُفَوِّهِ ﴿١٣﴾ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّهَا لَنَظٌّ ﴿١٥﴾ نَزَاعَةٌ لِلشَّوِيِّ ﴿١٦﴾ تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى ﴿١٧﴾  
وَجَمَعَ فَأَوْعَى ﴿١٨﴾

\* إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٣﴾ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾  
الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴿٥﴾ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ ﴿٦﴾ لِلْيَسَائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ  
بِیَوْمِ الدِّينِ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴿٩﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿١٠﴾ وَالَّذِينَ هُمْ  
لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿١١﴾ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿١٢﴾ فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ  
فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿١٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿١٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِمْ قَائِمُونَ ﴿١٥﴾  
وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿١٦﴾ أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ ﴿١٧﴾

قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا قَبْلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿١٨﴾ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ ﴿١٩﴾ أُطِيعُ كُلَّ أَمْرٍ مِنْهُمْ أَنْ يَدْخَلَ

جَنَّةٍ نَعِيمٍ ﴿٢٨﴾ كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَا أَقْسِمُ رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ إِنَّا لَقَدِرُونَ ﴿٣٠﴾ عَلَى  
 أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرَ مَنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٣١﴾ فَذَرْنَهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يَوْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ  
 يُخْرِجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَانَتْهُمْ إِلَيْكَ نُصُبٌ يُوفِضُونَ ﴿٣٣﴾ خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرَهِقُهُمْ ذَلَّةٌ ذَاكَ الْيَوْمِ الَّذِي  
 كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٣٤﴾

هذه السورة حلقة من حلقات العلاج البطيء ، المديد ، العميق ، الدقيق ، لعقائيل الجاهلية في النفس البشرية  
 كما واجهها القرآن في مكة ؛ وكما يمكن أن يواجهها في أية جاهلية أخرى مع اختلافات في السطوح لا في  
 الأعماق ! وفي الظواهر لا في الحقائق !

أو هي جولة من جولات المعركة الطويلة الشاقة التي خاضها في داخل هذه النفس ، وفي خلال دروبها ومنحباتها ،  
 ورواسبها وركامها . وهي أضخم وأطول من المعارك الحربية التي خاضها المسلمون - فيما بعد - كما أن هذه الرواسب  
 وتلك العقائيل هي أكبر وأصعب من القوى التي كانت مرصودة ضد الدعوة الإسلامية والتي ما تزال مرصودة  
 لها في الجاهليات القديمة والحديثة !

والحقيقة الأساسية التي تعالج السورة إقرارها هي حقيقة الآخرة وما فيها من جزاء ؛ وعلى وجه الخصوص  
 ما فيها من عذاب للكافرين ، كما أوعدهم القرآن الكريم . وهي تلم - في طريقها إلى إقرار هذه الحقيقة -  
 بحقيقة النفس البشرية في الضراء والسراء . وهي حقيقة تختلف حين تكون مؤمنة وحين تكون خاوية من الإيمان .  
 كما تلم بسمات النفس المؤمنة ومنهجها في الشعور والسلوك ، واستحقاقها للتكريم . وبهوان الذين كفروا على  
 الله وما أعد لهم من مذلة ومهانة تليق بالمستكبرين .. وتقرر السورة كذلك اختلاف القيم والمقاييس في تقدير  
 الله وتقدير البشر ، واختلاف الموازين ...

وتؤلف بهذه الحقائق حلقة من حلقات العلاج الطويل لعقائيل الجاهلية وتصوراتها ، أو جولة من جولات المعركة  
 الشاقة في دروب النفس البشرية ومنحباتها . تلك المعركة التي خاضها القرآن فانتصر فيها في النهاية مجرداً من كل  
 قوة غير قوته الذاتية . فقد كان انتصار القرآن الحقيقي في داخل النفس البشرية - ابتداء - قبل أن يكون له سيف  
 يدفع الفتنة عن المؤمنين به فضلاً على أن يرغب به أعداءه على الاستسلام له !

والذي يقرأ هذا القرآن - وهو مستحضر في ذهنه لأحداث السيرة - يشعر بالقوة الغالبة والسلطان البالغ الذي  
 كان هذا القرآن يواجه به النفوس في مكة ويروضها حتى تسلس قيادها راغبة مختارة . ويرى أنه كان يواجه  
 النفوس بأساليب متنوعة تنوعاً عجبياً .. تارة يواجهها بما يشبه الطوفان الغامر من الدلائل الموحية والمؤثرات الجارفة !  
 وتارة يواجهها بما يشبه الحراسة الساحقة التي لا يثبت لها شيء مما هو راسخ في كيائها من التصورات والرواسب !  
 وتارة يواجهها بما يشبه السياط اللاذعة تلهب الحس فلا يطيق وقعها ولا يصبر على لذعها ! وتارة يواجهها بما  
 يشبه المناجاة الحبيبة ، والمسارة الودود ، التي تهف لها المشاعر وتأنس لها القلوب ! وتارة يواجهها باهول المرعب ،  
 والصرخة المفزعة ، التي تفتح الأعين على الخطر الداهم القريب ! وتارة يواجهها بالحقيقة في بساطة ونصاعة لا  
 تدع مجالاً للتلفظ عنها ولا الجدال فيها . وتارة يواجهها بالرجاء الصبوح والأمل الندي الذي يهتف لها ويناجيها .

وتارة يتخلل مساربها ودروبها ومنحنياتها فيلقي عليها الأضواء التي تكشفها لذاتها قترى ما يجري في داخلها رأي العين ، وتخلج من بعضه ، وتكره بعضه ، وتنبقظ لحركاتها وانفعالاتها التي كانت غافلة عنها ! .. ومئات من اللمسات ، ومئات من اللفات ، ومئات من الهتافات ، ومئات من المؤثرات .. يطلع عليها قارئ القرآن ، وهو يتبع تلك المعركة الطويلة ، وذلك العلاج البطيء . ويرى كيف انتصر القرآن على الجاهلية في تلك النفوس العصبية العنيدة .

وهذه السورة تكشف عن جانب من هذه المحاولة في إقرار حقيقة الآخرة ، والحقائق الأخرى التي أملت بها في الطريق إليها .

وحقيقة الآخرة هي ذاتها التي تصدت لها سورة الحاقة ، ولكن هذه السورة تعالجها بطريقة أخرى ، وتعرض لها من زاوية جديدة ، وصور وظلال جديدة ..

في سورة الحاقة كان الاتجاه إلى تصوير الهول والرعب في هذا اليوم ، ممثلين في حركات عنيفة في مشاهد الكون الهائلة : « فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة ، وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة . فيومئذ وقعت الواقعة ، وانشقت السماء فهي يومئذ واهية » .. وفي الجلال المهيب في ذلك المشهد المروع : « والمملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية » .. وفي الكشف الذي ترتج له وتستوله المشاعر : « يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافه » ..

كذلك كان الهول والرعب يتمثلان في مشاهد العذاب ، حتى في النطق بالحكم بهذا العذاب : « خذوه . فغلوه . ثم الجحيم صلوه . ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه » .. كما يتجلى في صراخ المذنبين وتأوهاتهم وحسراتهم : « يا ليتني لم أوت كتابي . ولم أدر ما حسابي . يا ليتها كانت القاضية » ..

فأما هنا في هذه السورة فاهول يتجلى في ملامح النفوس وسماواتها وخوافجها وخطواتها ، أكثر مما يتجلى في مشاهد الكون وحركاته . حتى المشاهد الكونية يكاد الهول يكون فيها نفساً ! وهو على كل حال ليس أبرز ما في الموقف من أهوال . إنما الهول مستكن في النفس يتجلى مداه في مدى ما يحدثه فيها من خلخلة وذهول وروعة : « يوم تكون السماء كالمهل ، وتكون الجبال كالعهن . ولا يسأل حميم حميماً . يَبْصُرُونَهُم يود المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذ ببنيه ، وصاحبه وأخيه ، وفصيلته التي تؤويه ، ومن في الأرض جميعاً ثم ينجي » .. وجهنهم هنا « نفس » ذات مشاعر وذات وعي تشارك مشاركة الأحياء في سمة الهول الحي : « إنها لظى . نزاعة للشوى . تدعو من أدبر وتولى وجمع فأوعى » ..

والعذاب ذاته يغلب عليه طابع نفسي أكثر منه حسياً : « يوم يخرجون من الأجداث سراغاً كأنهم إلى نصب يوفضون ، خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ، ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون » ..

فالمشاهد والصور والظلال لهذا اليوم تختلف في سورة الماعج عنها في سورة الحاقة ، باختلاف طابعي السورتين في عموميه . مع اتحاد الحقيقة الرئيسية التي تعرضها السورتان في هذه المشاهد .

ومن ثم فقد تناولت سورة الماعج - فيما تناولت - تصوير النفس البشرية في الضراء والسراء ، في حالتي الإيمان والخواء من الإيمان . وكان هذا متناسقاً مع طابعها « النفسي » الخاص : فجاء في صفة الإنسان : « إن الإنسان خلق هلوعاً . إذا مسه الشر جزوعاً ، وإذا مسه الخير منوعاً . إلا المصلين ، الذين هم على صلاتهم دائمون ... الخ » .. واستطرد السياق فصور هنا صفات النفوس المؤمنة وسماواتها الظاهرة والمضمرة تمشياً مع طبيعة السورة وأسلوبها : « إلا المصلين . الذين هم على صلاتهم دائمون . والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم . والذين يصدقون



يوم الدين . والذين هم من عذاب ربهم مشفقون . إن عذاب ربهم غير مأمون . والذين هم لقروجهم حافظون . إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين . فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون . والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون . والذين هم بشهاداتهم قاثون . والذين هم على صلاتهم يحافظون ... » .

• • •

ولقد كان الاتجاه الرئيسي في سورة الحاقة إلى تقرير حقيقة الجد الصارم في شأن العقيدة . ومن ثم كانت حقيقة الآخرة واحدة من حقائق أخرى في السورة ، كحقيقة أخذ المكذبين أخذاً صارماً في الأرض ؛ وأخذ كل من يبدل في العقيدة بلا تسامح .. فأما الاتجاه الرئيسي في سورة المعارج فهو إلى تقرير حقيقة الآخرة وما فيها من جزاء ، وموازين هذا الجزاء . فحقيقة الآخرة هي الحقيقة الرئيسية فيها .

ومن ثم كانت الحقائق الأخرى في السورة كلها متصلة اتصالاً مباشراً بحقيقة الآخرة فيها . من ذلك حديث السورة عن الفارق بين حساب الله في أيامه وحساب البشر ، وتقدير الله لليوم الآخر وتقدير البشر : « ترجع الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، فاصبر صبراً جميلاً . إنهم يرونه بعيداً ونراه قريباً ... الخ » وهو متعلق باليوم الآخر .

ومنه ذلك الفارق بين النفس البشرية في الضراء والسراء في حالي الإيمان والخلو من الإيمان . وهما مؤهلان للجزاء في يوم الجزاء .

ومنه غرور الذين كفروا وطمعهم أن يدخلوا كلهم جنات نعيم ، مع هوانهم على الله وعجزهم عن سبقه والتفلسف من عقابه . وهو متصل اتصالاً وثيقاً بمحور السورة الأصيل .

وهكذا تكاد السورة تقتصر على حقيقة الآخرة وهي الحقيقة الكبيرة التي تتصدى لإقرارها في النفوس . مع تنوع اللمسات والحقائق الأخرى المصاحبة للموضوع الأصيل .

• • •

ظاهرة أخرى في هذا الإيقاع الموسيقي للسورة ، الناشئ من بنائها التعبيري .. فقد كان التنوع الإيقاعي في الحاقة ناشئاً من تغير القافية في السياق من فقرة لفقرة . وفق المعنى والجوف فيه .. فأما هنا في سورة المعارج فالتنوع أبعد نطاقاً ، لأنه يشمل تنوع الجملة الموسيقية كلها لا إيقاع القافية وحدها . والجملة الموسيقية هنا أعمق وأعرض وأشد تركيباً . ويكثر هذا التنوع في شطر السورة الأول بشكل ملحوظ .

ففي هذا المطلع ثلاث جمل موسيقية متنوعة - مع اتحاد الإيقاع في نهاياتها - من حيث الطول ومن حيث الإيقاعات الجزئية فيها على النحو التالي :

« سأل سائل بعذاب واقع . للكافرين ليس له دافع . من الله ذي المعارج . ترجع الملائكة والروح إليه . في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة . فاصبر صبراً جميلاً » .. حيث تنتهي بمد الألف في الإيقاع الخامس .

« إنهم يرونه بعيداً . ونراه قريباً » .. حيث يتكرر الإيقاع بمد الألف مرتين .

« يوم تكون السماء كالمهل . وتكون الجبال كالعهن . ولا يسأل حميم حمياً » .. حيث تنتهي بمد الألف في الإيقاع الثالث . مع تنوع الإيقاع في الداخل .

« يُصْرُونَهُمْ يَوْمَ الْمَجرَمِ لو يفتدي من عذاب يومئذ بنيه . وصاحبه وأخيه . وفصيلته التي تؤويه . ومن في الأرض جميعاً ثم نجيجه . كلا إنها لظى » .. حيث ينتهي بمد الألف في الإيقاع الخامس كالأول .

« نزاعة للشوى .. تدعو من أدبر وتولى . وجمع فأوعى . إن الإنسان خلق هلوياً . إذا مسه الشر جزوعاً . وإذا مسه الخير منوعاً » .. حيث يتكرر إيقاع المد بالآلف خمس مرات منهما اثنتان في النهاية تختلفان عن الثلاثة الأولى .

ثم يستقيم الإيقاع في باقي السورة على الميم والنون وقبلهما واو أو ياء ..

والتنوع الإيقاعي في مطلع السورة عميق وشديد التعقيد في الصياغة الموسيقية بشكل يلفت الأذن الموسيقية إلى ما في هذا التنوع المعقد الراقى - موسيقياً - من جمال غريب على البيئة العربية وعلى الإيقاع الموسيقي العربي . ولكن الأسلوب القرآني يطويعه ويمنحه اليسر الذي يدخل به إلى الأذن العربية فتقبل عليه ، وإن كان فناً إبداعياً عميقاً جديداً على مألوفها الموسيقي<sup>١</sup> .  
والآن نستعرض السورة تفصيلاً ...

\* \* \*

« سأل سائل بعذاب واقع ، للكافرين ليس له دافع ، من الله ذي المعارج ، تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، فاصبر صبراً جميلاً ، إنهم يرونه بعيداً ونراه قريباً ، يوم تكون السماء كالمهل ، وتكون الجبال كالعهن ، ولا يسأل حميم حميماً ، يُصْرَوْنَهُمْ ، يود المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذ ببنيه ، وصاحبه وأخيه ، وفصيلته التي تؤويه ، ومن في الأرض جميعاً ثم ينجيه . كلا ! إنها لظى ، نزاعة للشوى ، تدعو من أدبر وتولى ، وجمع فأوعى » ..

كانت حقيقة الآخرة من الحقائق العسيرة الإدراك عند مشركي العرب ؛ ولقد لقيت منهم معارضة نفسية عميقة ، وكانوا يتلقونها بغاية العجب والدهش والاستغراب ؛ وينكرونها أشد الإنكار ، ويتحدون الرسول - صلى الله عليه وسلم - في صور شتى أن يأتيهم بهذا اليوم الموعود ، أو أن يقول لهم : متى يكون .  
وفي رواية عن ابن عباس أن الذي سأل عن العذاب هو النضر بن الحارث . وفي رواية أخرى عنه : قال : ذلك سؤال الكفار عن عذاب الله وهو واقع بهم .

وعلى أية حال فالسورة تحكي أن هناك سائلاً سأل وقوع العذاب واستعجله . وتقرر أن هذا العذاب واقع فعلاً ، لأنه كائن في تقدير الله من جهة ، ولأنه قريب الوقوع من جهة أخرى . وأن أحداً لا يمكنه دفعه ولا منعه . فالسؤال عنه واستعجاله - وهو واقع ليس له من دافع - يبدو تعاسة من السائل المستعجل ؛ فرداً كان أو مجموعة ! وهذا العذاب للكافرين .. إطلاقاً . فيدخل فيه أولئك السائلون المستعجلون كما يدخل فيه كل كافر . وهو واقع من الله « ذي المعارج » .. وهو تعبير عن الرفعة والتعالي ، كما قال في السورة الأخرى : « رفيع الدرجات ذو العرش » ..

وبعد هذا الافتتاح الذي يقرر كلمة الفصل في موضوع العذاب ، ووقوعه ، ومستحقه ، ومصدره ، وعلو هذا المصدر ورفعته ، مما يجعل قضاء أمراً علوياً نافذاً لا مرد له ولا دافع . . بعد هذا أخذ في وصف ذلك اليوم الذي سيقع فيه هذا العذاب ، والذي يستعجلون به وهو منهم قريب . ولكن تقدير الله غير تقدير البشر ، ومقاييسه غير مقاييسهم :

(١) الذين يعرفون شيئاً عن الأصول الموسيقية لن يجدوا صعوبة في فهم مدلول هذا الكلام . ولتقريبه للآخرين يراجع فصل : التناسق الفني في كتاب : التصوير الفني في القرآن ، دار الشروق .

« تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، فاصبر صبراً جميلاً ، إنهم يرونه بعيداً ونراه قريباً » . .

والأرجح أن اليوم المشار إليه هنا هو يوم القيامة ، لأن السياق يكاد يعين هذا المعنى . وفي هذا اليوم تصعد الملائكة والروح إلى الله . والروح : الأرجح أنه جبريل عليه السلام ، كما سمي بهذا الاسم في مواضع أخرى . وإنما أفرد بالذكر بعد الملائكة ماله من شأن خاص . وعروج الملائكة والروح في هذا اليوم يفرد كذلك بالذكر ، إيحاء بأهميته في هذا اليوم وخصوصيته ، وهم يعرجون في شؤون هذا اليوم ومهامه . ولا ندري نحن — ولم نكلف أن ندري — طبيعة هذه المهام ، ولا كيف يصعد الملائكة ، ولا إلى أين يصعدون . فهذه كلها تفصيلات في شأن الغيب لا تزيد شيئاً من حكمة النص ، وليس لنا إليها من سبيل ، وليس لنا عليها من دليل . فحسبنا أن نشعر من خلال هذا المشهد بأهمية ذلك اليوم ، الذي يشغل فيه الملائكة والروح بتحركات تتعلق بمهام ذلك اليوم العظيم .

وأما « كان مقداره خمسين ألف سنة » . . فقد تكون كناية عن طول هذا اليوم كما هو مألوف في التعبير العربي . وقد تعني حقيقة معينة ، ويكون مقدار هذا اليوم خمسين ألف سنة من سني أهل الأرض فعلاً وهو يوم واحد ! وتصور هذه الحقيقة قريب جداً الآن . فإن يومنا الأرضي هو مقياس مستمد من دورة الأرض حول نفسها في أربع وعشرين ساعة . وهناك نجوم دورتها حول نفسها تستغرق ما يعادل يومنا هذا آلاف المرات . . ولا يعني هذا أنه المقصود بالخمسين ألف سنة هنا . ولكننا نذكر هذه الحقيقة لتقرب إلى الذهن تصور اختلاف المقاييس بين يوم ويوم !

وإذا كان يوم واحد من أيام الله يساوي خمسين ألف سنة ، فإن عذاب يوم القيامة قد يرونه هم بعيداً ، وهو عند الله قريب . ومن ثم يدعو الله نبيه — صلى الله عليه وسلم — إلى الصبر الجميل على استعجالهم وتكذيبهم بذلك العذاب القريب .

« فاصبر صبراً جميلاً . إنهم يرونه بعيداً ونراه قريباً » . .

والدعوة إلى الصبر والتوجه إليه صاحبت كل دعوة ، وتكررت لكل رسول ، ولكل مؤمن يتبع الرسول . وهي ضرورية لثقل العبء ومشقة الطريق ، ولحفظ هذه النفوس متماسكة راضية ، موصولة بالهدف البعيد ، متطلعة كذلك إلى الأفق البعيد . .

والصبر الجميل هو الصبر المطمئن ، الذي لا يصاحبه السخط ولا القلق ولا الشك في صدق الوعد . صبر الواقف من العاقبة ، الراضي بقدر الله ، الشاعر بحكمته من وراء الابتلاء ، الموصول بالله المحتسب كل شيء عنده مما يقع به .

وهذا اللون من الصبر هو الجدير بصاحب الدعوة . فهي دعوة الله ، وهي دعوة إلى الله . ليس له هو منها شيء . وليس له وراءها من غاية . فكل ما يلقاه فيها فهو في سبيل الله ، وكل ما يقع في شأنها هو من أمر الله . فالصبر الجميل إذن ينبعث متناسقاً مع هذه الحقيقة ، ومع الشعور بها في أعماق الضمير .

والله صاحب الدعوة التي يقف لها المكذبون ، وصاحب الوعد الذي يستعجلون به ويكذبون ، يقدر الأحداث ويقدر مواقيتها كما يشاء وفق حكمته وتديره للكون كله . ولكن البشر لا يعرفون هذا التدبير وذلك التقدير ؛ فيستعجلون . وإذا طال عليهم الأمد يستريبون . وقد يساور القلق أصحاب الدعوة أنفسهم ، وتجول في خاطرهم أمنية ورغبة في استعجال الوعد ووقوع الموعد . . عندئذ يجيء مثل هذا التثيت وهذا التوجيه من الله الخبير :

« فاصبر صبراً جميلاً » . .

والخطاب هنا للرسول - صلى الله عليه وسلم - تثبيتاً لقلبه على ما يلقى من عنت المناوأة والتكذيب . وتقريباً للحقيقة الأخرى : وهي أن تقدير الله للأمور غير تقدير البشر : ومقاييسه المطلقة غير مقاييسهم الصغيرة : « إنهم يرونه بعيداً ونراه قريباً » . .

ثم يرسم مشاهد اليوم الذي يقع فيه ذلك العذاب الواقع ، الذي يرونه بعيداً ويراه الله قريباً . يرسم مشاهدته في مجالي الكون وأغوار النفس . وهي مشاهد تشي بالهول المذهل المزلزل في الكون وفي النفس سواء : « يوم تكون السماء كالمهل ، وتكون الجبال كالمنه » . .

والهول ذوب المعادن الكدر كدردي الزيت . والعن هو الصوف المتفش . والقرآن يقرر في مواضع مختلفة أن أحداثاً كونية كبرى ستقع في هذا اليوم ، تغير أوضاع الأجرام الكونية وصفاتها ونسبها وروابطها . ومن هذه الأحداث أن تكون السماء كالمعادن المذابة . وهذه النصوص جديرة بأن يتأملها المشتغلون بالعلوم الطبيعية والفلكية . فن المرجح عندهم أن الأجرام السماوية مؤلفة من معادن منصهرة إلى الدرجة الغازية - وهي بعد درجة الانصهار والسيولة بمراحل - فلعلها في يوم القيامة ستنطفئ ( كما قال : « وإذا النجوم انكدرت » ) وستبرد حتى تصبح معادن سائلة ! وبهذا تتغير طبيعتها الحالية وهي الطبيعة الغازية !

على أية حال هذا مجرد احتمال ينفع الباحثين في هذه العلوم أن يتدبروه . أما نحن فنقف أمام هذا النص نتملى ذلك المشهد المروع ، الذي تكون فيه السماء كذوب المعادن الكدر ، وتكون فيه الجبال كالصوف الواهن المتنفش . ونتملى ما وراء هذا المشهد من الهول المذهل الذي ينطبع في النفوس ، فيجبر عنه القرآن أعظم تعبير : « ولا يسأل حمم حميماً . يُبْصِرُونَهُمْ . يود المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذ ببنيه . وصاحبه وأخيه . وفصيلته التي تؤويه . ومن في الأرض جميعاً ثم ينجيه » .

إن الناس في هم شاغل ، لا يدع لأحد منهم أن يتلفت خارج نفسه ، ولا يجد فسحة في شعوره لغيره : « ولا يسأل حمم حميماً » . فلقد قطع الهول المروع جميع الوشائج ، وحبس النفوس على همها لا تتعدها . . وإنهم ليعرضون بعضهم على بعض « يُبْصِرُونَهُمْ » كأنما عمداً وقصداً ! ولكن لكل منهم هم ، ولكل ضمير منهم شغله . فلا يهتس في خاطر صديق أن يسأل صديقه عن حاله ، ولا أن يسأله عنه . فالكرب يلف الجميع ، والهول يغشى الجميع . .

فأبال « المجرم » ؟ إن الهول ليأخذ بحسه ، وإن الرعب ليذهب بنفسه ، وإنه ليوذ لو يفتدي من عذاب يومئذ بأعز الناس عليه ، ممن كان يفتديهم بنفسه في الحياة ، ويناضل عنهم ، ويعيش لهم . . ببنيه . وزوجه . وأخيه ، وعشيرته القريبة التي تؤويه وتحمي . بل إن لفته على النجاة لتفقدته الشعور بغيره على الإطلاق ، فيود لو يفتدي بمن في الأرض جميعاً ثم ينجيه . . وهي صورة للهفة الطاغية والفرع المذهل والرغبة الجامحة في الإفلات ! صورة مبطنة بالهول ، مغمورة بالكرب ، موشاة بالفرع ، ترسم من خلال التعبير القرآني الموحى .

وبينا المجرم في هذه الحال ، يتمنى ذلك الحال ، يسمع ما يئس ويقنط من كل بارقة من أمل ، أوكل حديث خادع من النفس . كما يسمع الملائكة حقيقة الموقف وما يجري فيه : « كلا ! إنها لظى . نزاعة للشوى . تدعو من أدبر وتولى وجمع فأوعى » . .

إنه مشهد تطير له النفس شعاعاً ، بعد ما أذهلها كرب الموقف وهوله . . « كلا ! » في ردع عن تلك الأمانى

المستحيلة في الافتداء بالبنين والزوج والأخ والعشيرة ومن في الأرض جميعاً .. « كلا ! إنها لظي » نارتلظي وتتحرق « نزاعة للشوى » تنزع الجلود عن الوجوه والرؤوس نزعا .. وهي غول مفزعة . ذات نفس حية تشارك في الهول والعذاب عن إرادة وقصد : « تدعو من أدبر وتولى وجمع فأوعى » .. تدعوه كما كان يدعى من قبل إلى الهدى فيدبر ويتولى . ولكنه اليوم إذ تدعوه جهنم لا يملك أن يدبر ويتولى ! ولقد كان من قبل مشغولاً عن الدعوة بجمع المال وحفظه في الأوعية ! فأما اليوم فالدعوة من جهنم لا يملك أن يلهو عنها . ولا يملك أن يفندي بما في الأرض كله منها !

والتوكيد في هذه السورة والسورة السابقة قبلها وفي سورة القلم كذلك على منع الخير ، وعدم الحض على طعام المسكين ، وجمع المال في الأوعية إلى جانب الكفر والتكذيب والمعصية .. هذا التوكيد يدل على أن الدعوة كانت تواجه في مكة حالات خاصة يجتمع فيها البخل والحرص والجشع إلى الكفر والتكذيب والضلالة . مما اقتضى تكرار الإشارة إلى هذا الأمر ، والتخويف من عاقبته ، بوصفه من موجبات العذاب بعد الكفر والشرك بالله .

وفي هذه السورة إشارات أخرى تفيد هذا المعنى ، وتؤكد ملامح البيئة المكية التي كانت تواجهها الدعوة . فقد كانت بيئة مشغولة بجمع المال من التجارة ومن الربا . وكان كبراء قريش هم أصحاب هذه المتاجر ، وأصحاب القوافل في رحلتي الشتاء والصيف . وكان هنالك تكالب على الثراء ، وشح النفوس يجعل الفقراء محرومين ، واليتامى مضيعين . ومن ثم تكرر الأمر في هذا الشأن وتكرر التحذير . وظل القرآن يعالج هذا الجشع وهذا الحرص ؛ ويخوض هذه المعركة مع الجشع والحرص في أغوار النفس ودروبها قبل الفتح وبعده على السواء . مما هو ظاهر لمن ينتبع التحذير من الربا ، ومن أكل أموال الناس بالباطل ، ومن أكل أموال اليتامى إسرافاً وبداراً أن يكبروا ! ومن الجور على اليتيمات واحتجازهن للزواج الجائر رغبة في أموالهن ! ومن نهر السائل ، وقهر اليتيم ، ومن حرمان المساكين ... إلى آخر هذه الحملات المتتابعة العنيفة الدالة على الكثير من ملامح البيئة . فضلاً على أنها توجيهات دائمة لعلاج النفس الإنسانية في كل بيئة . وحب المال ، والحرص عليه ، وشح النفس به ، والرغبة في احتجانه ، آفة تساور النفوس مساورة عنيفة ، وتحتاج للانطلاق من إسارها والتخلص من أوهاقها ، والتحرر من ريقها ، إلى معارك متلاحقة ، وإلى علاج طويل !

° ° °

والآن وقد انتهى من تصوير الهول في مشاهد ذلك اليوم ، وفي صورة ذلك العذاب ؛ فإنه ينتجه إلى تصوير حقيقة النفس البشرية في مواجهة الشر والخير ، في حالي إيمانها وخلوها من الإيمان . ويقرر مصير المؤمنين كما قرر مصير المجرمين :

« إن الإنسان خلق هلوعاً : إذا مسه الشر جزوعاً ، وإذا مسه الخير منوعاً . إلا المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون . والذين في أمواهم حق معلوم للسائل والمحروم . والذين يصدقون بيوم الدين . والذين هم من عذاب ربهم مشفقون . إن عذاب ربهم غير مأمون . والذين هم لفروجهم حافظون . إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين . فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون . والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون . والذين هم بشهادتهم قائمون . والذين هم على صلاتهم يحافظون . أولئك في جنات مكرمون » .

وصورة الإنسان - عند خواء قلبه من الإيمان - كما يرسمها القرآن صورة عجيبة في صدقها ودقتها وتعبيرها الكامل عن الملامح الأصلية في هذا المخلوق ؛ والتي لا يعصمه منها ولا يرفعه عنها إلا العنصر الإيماني ، الذي

بصله بمصدر يجد عنده الطمأنينة التي تمسك به من الجزع عند ملاقات الشر ، ومن الشح عند امتلاك الخير .

« إن الإنسان خلق هلوفاً : إذا مسه الشر جزوعاً . وإذا مسه الخير منوعاً » ..

لكن كما كل كلمة لمسه من ريشه مبدعة تضع خطأ في ملامح هذا الإنسان . حتى إذا اكتملت الآيات الثلاث القصار المعدودة الكلمات نطقت الصورة ونبضت بالحياة . وانتفض من خلالها الإنسان بسبانه ولامحه الثابتة . هلوفاً .. جزوعاً عند مس الشر ، يتألم للذعته ، ويجزع لوقعه ، ويحسب أنه دائم لا كاشف له . ويظن اللحظة الحاضرة سرمداً مضروباً عليه ؛ ويحسب نفسه بأوهامه في قمقم من هذه اللحظة وما فيها من الشر الواقع به . فلا يتصور أن هناك فرجاً ؛ ولا يتوقع من الله تغييراً . ومن ثم يأكله الجزع ، ويمزقه الهلع . ذلك أنه لا يأوي إلى ركن ركين يشد من عزمه ، ويعلق به رجاءه وأمله .. منوعاً للخير إذا قدر عليه . يحسب أنه من كده وكسبه فيضن به على غيره ، ويحتجته لشخصه ، ويصبح أسير ما ملك منه ، مستعبداً للحرص عليه ! ذلك أنه لا يدرك حقيقة الرزق ودوره هوفيه . ولا يتطلع إلى خير منه عند ربه وهو منقطع عنه خاوي القلب من الشعور به .. فهو هلوفاً في الحالين .. هلوفاً من الشر . هلوفاً على الخير .. وهي صورة بائسة للإنسان ، حين يخلو قلبه من الإيمان . ومن ثم يبدو الإيمان بالله مسألة ضخمة في حياة الإنسان . لا كلمة تقال باللسان ، ولا شعائر تعبدية تقام . إنه حالة نفس ومنهج حياة ، وتصور كامل للقيم والأحداث والأحوال . وحين يصبح القلب خاوياً من هذا المقوم فإنه يتأرجح ويهتز وتتناوبه الرياح كالريشة ! ويبت في قلق وخوف دائم ، سواء أصابه الشر فجزع ، أم أصابه الخير فنع . فأما حين يعمره الإيمان فهو منه في طمأنينة وعافية ، لأنه متصل بمصدر الأحداث ومدبر الأحوال ؛ مطمئن إلى قدره شاعر برحمته ، مقدر لا ابتلايه ، متطلع دائماً إلى فرجه من الضيق ، ويسره من العسر . متجه إليه بالخير ، عالم أنه يتفق بما رزقه ، وأنه مجزي على ما أنفق في سبيله ، معوض عنه في الدنيا والآخرة .. فالإيمان كسب في الدنيا يتحقق قبل جزاء الآخرة ، يتحقق بالراحة والطمأنينة والثبات والاستقرار طوال رحلة الحياة الدنيا .

وصفة المؤمنين المستثنين من الهلع ، تلك السمة العامة للإنسان ، يفصلها السياق هنا ويحددها :

« إلا المصلين . الذين هم على صلاتهم دائمون » ..

والصلاة فوق أنها ركن الإسلام وعلامة الإيمان ، هي وسيلة الاتصال بالله والاستمداد من ذلك الرصيد . ومظهر العبودية الخالصة التي يتجدد فيها مقام الربوبية ومقام العبودية في صورة معينة . وصفة الدوام التي تخصها بها هنا : « الذين هم على صلاتهم دائمون » .. تعطي صورة الاستقرار والاستطرد ، فهي صلاة لا يقطعها الترك والإهمال والكسل وهي صلة بالله مستمرة غير منقطعة .. وقد كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذا عمل شيئاً من العبادة أثبتته - أي داوم عليه - وكان يقول : « وإن أحب الأعمال إلى الله تعالى ما دام وإن قل » .. للملاحظة صفة الاطمئنان والاستقرار والثبات على الاتصال بالله ، كما ينبغي من الاحترام لهذا الاتصال . فليس هولة توصل أو تقطع ، حسب المزاج !

« والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم » ..

وهي الزكاة على وجه التخصيص والصدقات المعلومة القدر .. وهي حق في أموال المؤمنين .. أولعل المعنى أشمل من هذا وأكبر . وهو أنهم يجعلون في أموالهم نصيباً معلوماً يشعرون أنه حق للسائل والمحروم . وفي هذا

تخلص من الشح واستعلاء على الحرص ! كما أن فيه شعوراً بواجب الواجد تجاه المحروم ، في هذه الأمة المتضامنة المتكافلة . . والسائل الذي يسأل ؛ والمحروم الذي لا يسأل ولا يعبر عن حاجته فيحرم . أولعله الذي نزلت به النوازل فحرم وعف عن السؤال . والشعور بأن المحتاجين والمحرومين حقاً في الأموال هو شعور بفضل الله من جهة ، وبأسرة الإنسانية من جهة ، فوق ما فيه من تحرر شعوري من ربة الحرص والشح . وهو في الوقت ذاته ضمانة اجتماعية لتكافل الأمة كلها وتعاونها . فهي فريضة ذات دلالات شتى ، في عالم الضمير وعالم الواقع سواء . . وذكرها هنا فوق أنه يرسم خطأ في ملامح النفس المؤمنة فهو حلقة من حلقات العلاج للشح والحرص في السورة .

« والذين يصدقون بيوم الدين » . .

وهذه الصفة ذات علاقة مباشرة بموضوع السورة الرئيسي . وهي في الوقت ذاته ترسم خطأ أساسياً في ملامح النفس المؤمنة . فالتصديق بيوم الدين شرط الإيمان . وهو ذو أثر حاسم في منهج الحياة شعوراً وسلوكاً . والميزان في يد المصدق بيوم الدين غير الميزان في يد المكذب بهذا اليوم أو المستريب فيه . ميزان الحياة والقيم والأعمال والأحداث . . المصدق بيوم الدين يعمل وهو ناظر لميزان السماء لا لميزان الأرض ، ولحساب الآخرة لا لحساب الدنيا ويتقبل الأحداث خيرها وشرها وفي حسابه أنها مقدمات نتائجها هناك ، فيضيف إليها النتائج المرتقبة حين يزنها ويقومها . . والمكذب بيوم الدين يحسب كل شيء بحسب ما يقع له منه في هذه الحياة القصيرة المحدودة ، ويتحرك وحدوده هي حدود هذه الأرض وحدود هذا العمر . ومن ثم يتغير حسابه وتختلف نتائج موازينه ، وينتهي إلى نتائج خاطئة فوق ما ينحصر في مساحة من المكان ومساحة من الزمان محدودة . . وهو بائس مسكين معذب قلق لأن ما يقع في هذا الشطر من الحياة الذي يحصر فيه تأملاته وحساباته وتقديراته ، قد لا يكون مطمئناً ولا مريحاً ولا عادلاً ولا معقولاً ، مالم يصف إليه حساب الشطر الآخر وهو أكبر وأطول . ومن ثم يشقى به من لا يحسب حساب الآخرة أو يشقى غيره من حوله . ولا تستقيم له حياة رقيقة لا يجد جزاءها في هذه الأرض واضحاً . . ومن ثم كان التصديق باليوم الآخر شرط الإيمان الذي يقوم عليه منهج الحياة في الإسلام .

« والذين هم من عذاب ربهم مشفقون . إن عذاب ربهم غير مأمون » . .

وهذه درجة أخرى وراء مجرد التصديق بيوم الدين . درجة الحساسية المرهفة ، والرقابة البقطة ، والشعور بالتقصير في جنب الله على كثرة العبادة ، والخوف من تلفت القلب واستحقاقه للعذاب في أية لحظة ، والتطلع إلى الله للحماية والوقاية .

ولقد كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو من هو عند الله . وهو يعرف أن الله قد اصطفاه ورعا . . كان دائم الحذر دائم الخوف لعذاب الله . وكان على يقين أن عمله لا يعصمه ولا يدخله الجنة إلا بفضل من الله ورحمة . وقال لأصحابه : « لن يدخل الجنة أحدكم عمله » قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : « ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته »

وفي قوله هنا : « إن عذاب ربهم غير مأمون » . . إحياء بالحساسية الدائمة التي لا تغفل لحظة ، فقد تقع موجبات العذاب في لحظة الغفلة فيحق العذاب . والله لا يطلب من الناس إلا هذه البقطة وهذه الحساسية ، فإذا غلبهم ضعفهم معها ، فرحمته واسعة ، ومغفرته حاضرة . وباب التوبة مفتوح ليست عليه مغاليق ! وهذا

قوام الأمر في الإسلام بين الغفلة والقلق . والإسلام غير هذا وتلك . والقلب الموصول بالله يحذرو ويرجو ، ويخاف ويطمع ، وهو مطمئن لرحمة الله على كل حال .

« والذين هم لفروجهم حافظون . إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين . فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون . . »

وهذه تعني طهارة النفس والجماعة ، فالإسلام يريد مجتمعاً طاهراً نظيفاً ، وفي الوقت ذاته ناصعاً صريحاً . مجتمعاً تؤدي فيه كل الوظائف الحيوية ، وتلبى فيه كل دوافع الفطرة . ولكن بغير فوضى ترفع الحياء الجميل ، وبغير التواء يقتل الصراحة النظيفة . مجتمعاً يقوم على أساس الأسرة الشرعية المثينة القوام . وعلى البيت العلي الواضح المعالم . مجتمعاً يعرف فيه كل طفل أباه ، ولا ينجل من مولده . لا لأن الحياء متزوع من الوجهة والنفس . ولكن لأن العلاقات الجنسية قائمة على أساس نظيف صريح ، طويل الأمد ، واضح الأهداف ، يرمي إلى النهوض بواجب إنساني واجتماعي ، لا لمجرد إرضاء التزوة الحيوانية والشهوة الجنسية !

ومن ثم يذكر القرآن هنا من صفات المؤمنين « والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين » فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ..

فيقرنظافة الاتصال بالأزواج وبما ملكت الأمان - من الإمام حين يوجدن بسبب مشروع - والسبب المشروع الوحيد الذي يعترف به الإسلام هو السبي في قتال في سبيل الله . وهي الحرب الوحيدة التي يقرها الإسلام - والأصل في حكم هذا السبي هو ما ذكرته آية سورة محمد : « فإذا قُتِلِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أُنْجَسَتْهُمُ فَتَدَسُّوا التُّرَابَ ، فَإِذَا مَتَّأَ بَعْدَ وَإِمَا فِدَاءٌ حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا » ولكن قد يتخلل بعض السبي بلا منْ ولا فداء لملاسات واقعية ، فهذا يظل رقيقاً إذا كان المعسكر الآخر يسترق أسرى المسلمين في أية صورة من صور الرق - ولو سماه بغير اسمه ! - ويجوز الإسلام وطء الإمام عندئذ من صاحبهن وحده ، ويجعل عتقهن موكولاً إلى الوسائل الكثيرة التي شرعها الإسلام لتخفيف هذا المورد . ويقت الإسلام بمبادئه صريحاً نفيظاً لا يدع هؤلاء الأسيرات لقوضى الاختلاط الجنسي القدر كما يقع لأسيرات الحروب قديماً وحديثاً ! ولا يتدنس ويلتوي فيسبهن حرات وهن إماء في الحقيقة !

« فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون » .. وبذلك يغلق الباب في وجه كل قذارة جنسية ، في أية صورة غير هاتين الصورتين الواضحتين الصريحتين .. فلا يرى في الوظيفة الطبيعية قذارة في ذاتها ؛ ولكن القذارة في الالتواء بها . والإسلام نظيف صريح قويم<sup>١</sup> .  
« والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون » .

وهذه من القوائم الأخلاقية التي يقيم الإسلام عليها نظام المجتمع . ورعاية الأمانات والعهود في الإسلام تبدأ من رعاية الأمانة الكبرى التي عرضها الله على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان . وهي أمانة العقيدة والاستقامة عليها اختياراً لا اضطراراً . . ومن رعاية العهد الأول المقطوع على فطرة الناس وهم بعد في الأصلاب أن الله ربهم الواحد ، وهم يخلقهم على هذا العهد شهود . . ومن رعاية تلك الأمانة وهذا العهد تنبثق رعاية سائر الأمانات والعهود في معاملات الأرض وقد شدد الإسلام في الأمانة والعهد وكرر وأكد ، ليقم المجتمع على أسس متينة من الخلق والثقة والطمأنينة . وجعل رعاية الأمانة والعهد سمة النفس

(١) تراجع سورة المؤمنون جزء ١٨ ص ٢٤٥٥ - ٢٤٥٦ وسورة محمد جزء ٢٦ ص ٣٢٨٢ - ٣٢٨٥ .



المؤمنة ، كما جعل خيانة الأمانة وإخلاف العهد سمة النفس المنافقة والكافرة . ورد هذا في مواضع شتى من القرآن والسنة لا تدع مجالاً للشك في أهمية هذا الأمر البالغة في عرف الإسلام .

« والذين هم بشهاداتهم قانمون » ..

وقد ناط الله بأداء الشهادة حقوقاً كثيرة ، بل ناط بها حدود الله ، التي تقام بقيام الشهادة . فلم يكن بد أن يشدد الله في القيام بالشهادة ، وعدم التخلف عنها ابتداء ، وعدم كتمانها عند التقاضي ، ومن القيام بها أدائها بالحق دون ميل ولا تحريف . وقد جعلها الله شهادة له هوليربطها بطاعته ، فقال : « وأقيموا الشهادة لله » .. وجعلها هنا سمة من سمات المؤمنين وهي أمانة من الأمانات ، أفرداها بالذكر للتعظيم من شأنها وإبراز أهميتها .. وكما بدأ سمات النفوس المؤمنة بالصلاة ، ختمها كذلك بالصلاة :

« والذين هم على صلاتهم يحافظون » ..

وهي صفة غير صفة الدوام التي ذكرت في صدر هذه الصفات . تتحقق بالمحافظة على الصلاة في مواعيدها ، وفي فرائضها ، وفي سننها ، وفي هيئتها ، وفي الروح التي تؤدي بها . فلا يضيعونها إهمالاً وكسلاً . ولا يضيعونها بعدم إقامتها على وجهها .. وذكر الصلاة في المطلع والختام يوحى بالاحتفال والاهتمام . وبهذا تحتم سمات المؤمنين ..

وعندئذ يقرر مصير هذا الفريق من الناس بعد ما قرر من قبل مصير الفريق الآخر :

« أولئك في جنات مكرمون » ..

ويجمع هذا النص القصير بين لون من النعم الحسي ولون من النعم الروحي . فهم في جنات . وهم يلقون الكرامة في هذه الجنات . فتجتمع لهم اللذة بالنعم مع التكريم ، جزاء على هذا الخلق الكريم ، الذي يتميز به المؤمنون .

\* \* \*

ثم يعرض السياق مشهداً من مشاهد الدعوة في مكة ، والمشركون يسرعون الخطى إلى المكان الذي يكون فيه الرسول - صلى الله عليه وسلم - يتلوا القرآن . ثم يتفرقون حوالبه جماعات . ويستنكرون إسرائعهم هذا وتجمعهم في غير ما رغبة في الاهتداء بما يسمعون :

« فما للذين كفروا بقلبك مهطعين ؟ عن اليمين وعن الشمال عزين ؟ » ..

المهطع هو الذي يسرع الخطى ماداً عنقه كالقود . وعزين جمع عزة كثفة وزناً ومعنى .. وفي التعبير تهكم خفي بحركتهم المريبة . وتصوير لهذه الحركة وللهيئة التي تم بها . وتعجب منهم . وتساؤل عن هذا الحال منهم ! وهم لا يسرعون الخطى تجاه الرسول ليسمعوا ويهتدوا ، ولكن فقط ليستطلعوا في دهشة ثم يتفرقوا كي ينحلوا حلقات يتناجون في الكيد والرد على ما يسمعون !

ما لهم ؟ « أيطمع كل امرئ منهم أن يُدخل جنة نعيم ؟ » ..

وهم على هذه الحال التي لا تؤدي إلى جنة نعيم ، إنما تؤدي إلى لظى مأوى المجرمين !

أعلمهم يحسبون أنفسهم شيئاً عظيماً عند الله ؛ فهم يكفرون ويؤذون الرسول ، ويسمعون القرآن ويتناجون بالكيد . ثم يدخلون الجنة بعد هذا كله لأنهم في ميزان الله شيء عظيم ؟ !

« كلا ! » في ردع وفي تحقير .. « إنا خلقناهم مما يعلمون ! »

وهم يعلمون مم خلقوا ! من ذلك الماء المهيّن الذي يعرفون ! والتعبير القرآني المبدع يلمسهم هذه اللمسة الخفية العميقة في الوقت ذاته ؛ فيسمح بها كبرياءهم مسحاً ، وينكس بها خيلاءهم تنكيساً ، دون لفظة واحدة نائية ، أو تعبير واحد جارح . بينا هذه الإشارة العابرة تصور الهوان والزهادة والرخص أكمل تصوير ! فكيف يطمعون أن يدخلوا جنة نعيم على الكفر وسوء الصنيع ؟ وهم مخلوقون مما يعلمون ! وهم أهون على الله من أن تكون لهم دالة عليه ، وخرق لسننّه في الجزاء العادل باللظى وبالنعيم .

واستطراداً في تهوين أمرهم ، وتصغير شأنهم ، وتنكيس كبريائهم ، يقرر أن الله قادر على أن يخلق خيراً منهم ، وأنهم لا يعجزونه فيذهبون دون ما يستحقون من جزاء أليم :

« فلا أقسم برب المشارق والمغارب إنا لقادرون ، على أن نبديل خيراً منهم وما نحن بمسبوقين » .

والأمر ليس في حاجة إلى قسم . ولكن التلويع بذكر المشارق والمغارب ، يوحي بعظمة الخالق . والمشارق والمغارب قد تعني مشارق النجوم الكثيرة ومغاربها في هذا الكون الفسح . كما أنها قد تعني المشارق والمغارب المتوالية على بقاع الأرض . وهي تتوالى في كل لحظة . ففي كل لحظة أثناء دوران الأرض حول نفسها أمام الشمس يطلع مشرق ويختفي مغرب ...

وأياً كان مدلول المشارق والمغارب ، فهو يوحي إلى القلب بضخامة هذا الوجود ، وبعظمة المخلّئ لهذا الوجود . فهل يحتاج أمر أولئك المخلوقين مما يعلمون إلى قسم برب المشارق والمغارب ، على أنه - سبحانه - قادر على أن يخلق خيراً منهم ، وأنهم لا يسبقونه ولا يفتوتونه ولا يهربون من مصيرهم المحتوم ؟ ! .

\* \* \*

وعندما يبلغ السياق هذا المقطع ، بعد تصوير هول العذاب في ذلك اليوم المشهود ؛ وكرامة النعم للمؤمنين ، وهوان شأن الكافرين . يتجه بالخطاب إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ليدعهم لذلك اليوم ولذلك العذاب ، ويرسم مشهدهم فيه ، وهو مشهد مكروب ذليل :

« فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذي يعدون . يوم يخرجون من الأجداث سراغاً كأنهم إلى نصب يوفضون ، خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ، ذلك اليوم الذي كانوا يعدون » ..

وفي هذا الخطاب من تهوين شأنهم ، ومن التهديد لهم ، ما يثير الخوف والترقب . وفي مشهدهم وهيتهم وحركتهم في ذلك اليوم ما يثير الفزع والتخوف . كما أن في التعبير من التهكم والسخرية ما يناسب اعتزازهم بأنفسهم واعتراهم بمكاتبتهم ..

فهؤلاء الخارجون من القبور يسرعون الخطى كأنما هم ذاهبون إلى نصب يعبدونه .. وفي هذا التهكم تناسق مع حالهم في الدنيا . لقد كانوا يسارعون إلى الأنصاب في الأعياد ويتجمعون حولها . فهاهم أولاء يسارعون اليوم ، ولكن شتان بين يوم ويوم !

ثم تم سماتهم بقوله : « خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة » فللمح من خلال الكلمات سباهم كاملة ، وترسم لنا من قساوتهم صورة واضحة . صورة ذليلة عانية .. لقد كانوا يخوضون ويلعبون فهم اليوم آذلاء مرهقون ..

« ذلك اليوم الذي كانوا يعدون » .

فكانوا يستريبون فيه ويكذبون ويستعجلون !

\* \* \*

بهذا يلتئم المطلع والختام ، وتم هذه الحلقة من حلقات العلاج الطويل لقضية البعث والجزاء ، وتنتهي هذه الجولة من جولات المعركة الطويلة بين التصور الجاهلي والتصور الإسلامي للحياة .

\* \* \*

## (٧١) سُورَةُ نُوحٍ مَكِّيَّةٌ وَآيَاتُهَا ثَمَانِينَ وَعَشْرُونَ

### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَنْفِقُونَ لِىَ لَكَ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ إِنَّ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا أَمْرَهُ يُغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُؤْتِكُمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣﴾ إِنَّ أَجَلَ مَسْمُومٍ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾

قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاؤِي إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْوَابَهُمْ قِيًا إِذْ أَنَّهُمْ وَاسْتَعْشُوا نِيَابَهُمْ وَاسْتَكْبَرُوا وَاسْتَكْبَرُوا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جَهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَبْنِيَنَّ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ أُنَبِّتُكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِيَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾

قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنِّهِمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَكَفَرُوا بِآيَاتِنَا كُفْرًا كَبِيرًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَا تَنْدَرُنَّ ۚ الْهَيْكَلُ لَا تَنْدَرُنَّ ۚ وَدَا وَلَا سِوَاكَ لَا يَغْفِرُ وَيَعْفُو وَسِرًّا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٤﴾

مِمَّا خَطِيئَتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأَدْخِلُوهَا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا ﴿٦٥﴾

وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنْ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٦٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْنِي يَصْلُوهَا عِبَادُكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٦٧﴾ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٦٨﴾

هذه السورة كلها تنقص قصة نوح - عليه السلام - مع قومه ؛ وتصف تجربة من تجارب الدعوة في الأرض ؛ وتمثل دورة من دورات العلاج الدائم الثابت المتكرر للبشرية ، وشوطاً من أشواط المعركة الخالدة بين الخير والشر ، والهدى والضلال ، والحق والباطل .

هذه التجربة تكشف عن صورة من صور البشرية العنيدة ، الضالة ، الذاهية وراء القيادات المضللة ، المستكبرة عن الحق ، المعرضة عن دلائل الهدى وموحيات الإيمان ، المعرضة أمامها في الأنفس والآفاق ، المرقومة في كتاب الكون المفتوح ، وكتاب النفس المكنون .

وهي في الوقت ذاته تكشف عن صورة من صور الرحمة الإلهية تتجلى في رعاية الله لهذا الكائن الإنساني ، وعنايته بأن يهتدي . تتجلى هذه العناية في إرسال الرسل ترى إلى هذه البشرية العنيدة الضالة الذاهية وراء القيادات المضللة المستكبرة عن الحق والهدى .

ثم هي بعد هذا وذلك تعرض صورة من صور الجهد المضني ، والعناء المرهق ، والصبر الجميل ، والإصرار الكريم من جانب الرسل - صلوات الله عليهم - لهداية هذه البشرية الضالة العنيدة العصبية الجامحة . وهم لا مصلحة لهم في القضية ولا أجر يتقاضونه من المهتدين على الهداية ، ولا مكافأة ولا جعل يحصلونه على حصول الإيمان ! كالمكافأة أو النفقة التي تتقاضاها المدارس والجامعات والمعاهد والمعلمون ، في زماننا هذا وفي كل زمان في صورة نفقات للتعليم !

هذه الصورة التي يعرضها نوح - عليه السلام - على ربه ، وهو يقدم له حسابه الأخير بعد ألف سنة إلا خمسين عاماً قضاهها في هذا الجهد المضني ، والعناء المرهق ، مع قومه المعاندين ، الذاهبين وراء قيادة ضالة مضللة ذات سلطان ومال وعزوة . وهو يقول :

« رب . إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً . فلم يزدتهم دعائي إلا فراراً . وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم ، وأصروا واستكبروا استكباراً . ثم إني دعوتهم جهاراً . ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسراراً . فقلت : استغفروا ربكم ، إنه كان غفاراً ، يرسل السماء عليكم مدراراً ، ويمددكم بأموال وبنين ، ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً . مالكم لا ترجون لله وقاراً ؟ وقد خلقكم أطواراً ؟ ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً ؟ وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً ؟ والله أنبتكم من الأرض نباتاً ، ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً . والله جعل لكم الأرض بساطاً ، لتسلكوا منها سبلاً فجاجاً .. »

ثم يقول بعد عرض هذا الجهد الدائب الملح الثابت المصير :

« رب إنهم عصوني ، واتبعوا من لم يزد ماله وولده إلا خساراً . ومكروا مكراً كبيراً . وقالوا : لا تذرنا المتكتم ، ولا تذرنا ودّاً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً . وقد أضلوا كثيراً ... » ..  
وهي حصيلة مريرة . ولكن الرسالة هي الرسالة !

هذه التجربة المريرة تعرض على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو الذي انتهت إليه أمانة دعوة الله في الأرض كلها في آخر الزمان ، واضطلع بأكبر عبء كلفه رسول .. يرى فيها صورة الكفاح النبيل الطويل لأخ له من قبل ، لإقرار حقيقة الإيمان في الأرض . ويطلع منها على عناد البشرية أمام دعوة الحق ؛ وفساد القيادة الضالة وغلبتها على القيادة الراشدة . ثم إرادة الله في إرسال الرسل ترى بعد هذا العناد والضلال منذ فجر البشرية على يدي جدها نوح عليه السلام .

وتعرض على الجماعة المسلمة في مكة ، وعلى الأمة المسلمة بعامه ، وهي الوارثة لدعوة الله في الأرض ، وللنبيح الإلهي المنبثق من هذه الدعوة ، القائمة عليه في وسط الجاهلية المشتركة يومذاك ، وفي وسط كل جاهلية تالية .. ترى فيها صورة الكفاح والإصرار والثبات هذا المدى الطويل من أبي البشرية الثاني . كما ترى فيها عناية الله بالقلّة المؤمنة ، وإنجاءها من الهلاك الشامل في ذلك الحين .

وتعرض على المشركين ليروا فيها مصير أسلافهم المكذّبين ؛ ويدركوا نعمة الله عليهم في إرساله إليهم رسولاً رحباً بهم ، لا يدعو عليهم بالهلاك الشامل ؛ وذلك لما قدره الله من الرحمة بهم وإمهالهم إلى حين . فلم تصدر من نبيهم دعوة كدعوة نوح ، بعدما استنفد كل الوسائل ، وأهم الدعاء على القوم بما أهم :  
« ولا ترد الظالمين إلا ضلالاً » ..

« وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً . إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً » ..

• • •

ومن خلال عرض هذه الحلقة من حلقات الدعوة الإلهية على البشرية تتجلى حقيقة وحدة العقيدة وثبات أصولها ، وتأصل جذورها . كما يتجلى ارتباطها بالكون وإرادة الله وقدره ، وأحداث الحياة الواقعة وفق قدر الله . وذلك من خلال دعوة نوح لقومه : « قال : يا قوم إني لكم نذير مبين . أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون . يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى ، إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر ، لو كنتم تعلمون » .. وفي حكاية قوله لهم : « ما لكم لا ترجون لله وقاراً وقد خلقكم أطواراً ؟ ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً ؟ وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً ؟ والله أنبتكم من الأرض نباتاً ، ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً ، والله جعل لكم الأرض بساطاً لتسلكوا منها سبلاً فجاجاً » ..

ولإقرار هذه الحقيقة في نفوس المسلمين قيمته في شعورهم بحقيقة دعوتهم ، وحقيقة نسبهم العريق ! وحقيقة موكبهم المتصل من مطلع البشرية . وحقيقة دورهم في إقرار هذه الدعوة والقيام عليها . وهي منهج الله القويم القديم .

• • •

وإن الإنسان ليأخذ الدهش والعجب ، كما تغمره الروعة والخشوع ، وهو يستعرض - بهذه المناسبة - ذلك الجهد الموصول من الرسل - عليهم صلوات الله وسلامه - لهداية البشرية الضالة المعاندة . ويتدبر إرادة الله المستقرة على إرسال هؤلاء الرسل واحداً بعد واحد لهذه البشرية المعرضة العنيدة .

وقد يعن للإنسان أن يسأل : ترى تساوي الحصيلة هذا الجهد الطويل ، وتلك التضحيات النبيلة ، من لدن نوح - عليه السلام - إلى محمد - عليه الصلاة والسلام - ثم ما كان بينهما وما تلاهما من جهود المؤمنين بدعوة الله وتضحياتهم الضخام ؟

ترى هل تساوي هذا الجهد الذي وصفه نوح في هذه السورة وفي غيرها من سور القرآن ، وقد استغرق عمراً طويلاً بالغ الطول ، لم يكتف قومه فيه بالإعراض ، بل أتبعوه بالسخرية والاتهام . وهو يتلقاها بالصبر والحسن ، والأدب الجميل والبيان المنير .

ثم تلك الجهود الموصولة منذ ذلك التاريخ ، وتلك التضحيات النبيلة التي لم تنقطع على مدار التاريخ . من رسل يستهزأ بهم ، أو يحرقون بالنار ، أو ينشرون بالمنشار ، أو يهجرون الأهل والديار .. حتى يجيء الرسالة الأخيرة ، فيجهد فيها محمد - صلى الله عليه وسلم - ذلك الجهد المشهود المعروف ، هو والمؤمنون معه . ثم تتوالى الجهود المضيئة والتضحيات المذهلة من القائمين على دعوته في كل أرض وفي كل جيل ؟ ؟ ترى تساوي الحصيلة كل هذه الجهود ، وكل هذه التضحيات ، وكل هذا الجهاد المرير الشاق ؟ ثم .. ترى هذه البشرية كلها تساوي تلك العناية الكريمة من الله ، المتجلية في استقرار إرادته سبحانه على إرسال الرسل ترى بعد العناد والإعراض والإصرار والاستكبار ، من هذا الخلق الهزيل الصغير المسمى بالإنسان ؟ ! والجواب بعد التدبر : أن نعم .. وبلا جدال !

إن استقرار حقيقة الإيمان بالله في الأرض يساوي كل هذا الجهد ، وكل هذا الصبر ، وكل هذه المشقة ، وكل هذه التضحيات النبيلة المطردة من الرسل وأتباعهم الصادقين في كل جيل !

ولعل استقرار هذه الحقيقة أكبر من وجود الإنسان ذاته ؛ بل أكبر من الأرض وما عليها ؛ بل أكبر من هذا الكون الهائل الذي لا تبلغ الأرض أن تكون فيه هباءة ضائعة لا تكاد تحس أو ترى !

وقد شاءت إرادة الله أن يخلق هذا الكائن الإنساني بخصائص معينة ، يجعل استقرار هذه الحقيقة في ضميره وفي نظام حياته موكلاً إلى الجهد الإنساني ذاته ، بعون الله وتوفيقه . ولسنا نعلم لم خلق الله هذا الكائن بهذه الخصائص . ووكله إلى إدراكه وجهده وإرادته في تحقيق حقيقة الإيمان في ذاته وفي نظام حياته ؛ ولم يجعله على الإيمان والطاعة لا يعرف غيرها كالملائكة ، أو يحضه للشر والمعصية لا يعرف غيرها كإبليس .

لسنا نعلم سر هذا . ولكننا نؤمن بأن هنالك حكمة تتعلق بنظام الوجود كله في خلق هذا الكائن بهذه الخصائص ! وإذن فلا بد من جهد بشري لإقرار حقيقة الإيمان في عالم الإنسان . هذا الجهد اختار الله له صفوة من عبادِهِ هم الأنبياء والرسل . وثلة مختارة من أتباعهم هم المؤمنون الصادقون . اختارهم لإقرار هذه الحقيقة في الأرض ، لأنها تساوي كل ما يبذلون فيها من جهود مضيئة مريرة ، وتضحيات شاقة نبيلة .

إن استقرار هذه الحقيقة في قلب معناه أن ينطوي هذا القلب على قيس من نور الله ؛ وأن يكون مستودعاً لسر من أسراه ؛ وأن يكون أداة من أدوات قدره النافذ في هذا الوجود .. وهذه حقيقة لا مجرد تصوير وتقريب .. وهي حقيقة أكبر من الإنسان ذاته ومن أرضه وسمائه ، ومن كل هذا الكون الكبير !

كما أن استقرار حقيقة الإيمان في حياة البشر - أو جماعة منهم - معناه اتصال هذه الحياة الأرضية بالحياة الأبدية ، وارتفاعها إلى المستوى الذي يؤهلها لهذا الاتصال . معناه اتصال الفناء بالبقاء والجزء بالكل والمحدود بالناقص بالكمال المطلق ... وهي حصيلة ترى على كل جهد وكل تضحية ولو تحققت على الأرض يوماً أو

بعض يوم في عمر البشرية الطويل ، لأن تحققها - ولو في هذه الصورة - يرفع أمام البشرية في سائر أجيالها مشعل النور في صورة عملية واقعية ، يجاهد لتبلغ إليها طوال الأجيال !

ولقد أثبت الواقع التاريخي المتكرر أن النفس البشرية لم تبلغ إلى آفاق الكمال المقدر لها بأية وسيلة كما بلغت باستقرار حقيقة الإيمان بالله فيها . وأن الحياة البشرية لم ترتفع إلى هذه الآفاق بوسيلة أخرى كما ارتفعت بهذه الوسيلة . وأن الفترات التي استقرت فيها هذه الحقيقة في الأرض ، وتسلم أهلها قيادة البشرية كانت قمة في تاريخ الإنسان سامقة ، بل كانت حليماً أكبر من الخيال ، ولكنه متمثل في واقع يحياه الناس .

وما يمكن أن ترتقي البشرية ولا أن ترتفع عن طريق فلسفة أو علم أو فن أو مذهب من المذاهب أو نظام ، إلى المستوى الذي وصلت أو تصل إليه عن طريق استقرار حقيقة الإيمان بالله في نفوس الناس وحياتهم وأخلاقهم وتصوراتهم وقيمهم وموازنهم .. وهذه الحقيقة ينبثق منها منهج حياة كامل ، سواء جاءت مجملة كما هي في الرسائل الأولى ، أو مفصلة شاملة دقيقة كما هي في الرسالة الأخيرة .

والدليل القاطع على أن هذه العقيدة حقيقة من عند الله ، هو هذا الذي أثبتته الواقع التاريخي من بلوغ البشرية باستقرار حقيقة الإيمان في حياتها ما لم تبلغه قط بوسيلة أخرى من صنع البشر : لا علم ، ولا فلسفة ، ولا فن ، ولا نظام من النظم . وأنها حين فقدت قيادة المؤمنين الحقيقيين لم ينفعها شيء من ذلك كله ؛ بل انحدرت قيمها وموازنها وإنسانيتها ، كما غرقت في الشقاء النفسي والحيرة الفكرية والأمراض العصبية ، على الرغم من تقدمها الحضاري في سائر الميادين ، وعلى الرغم من توافر عوامل الراحة البدنية والمتاع العقلي ، وأسباب السعادة المادية بمجملتها . ولكنها لم تتل السعادة والطمأنينة والراحة الإنسانية أبداً . ولم يرتفع تصورهما للحياة قط كما ارتفع في ظل الحقيقة الإيمانية ، ولم تتوثق صلتهما بالوجود قط كما توثقت في ظل هذه العقيدة ، ولم تشعر بكرامة « النفس الإنسانية » قط كما شعرت بها في تلك الفترة التي استقرت فيها تلك الحقيقة . والدراسة الواعية للتصور الإسلامي لغاية الوجود كله وغاية الوجود الإنساني تنتهي حتماً إلى هذه النتيجة .

وهذا كله يستحق - بدون تردد - كل ما يبذله المؤمنون من جهود مضنية ، ومن تضحيات نبيلة ، لإقرار حقيقة الإيمان بالله في الأرض . وإقامة قلوب تنطوي على قيس من نور الله ، وتتصل بروح الله . وإقامة حياة إنسانية يتمثل فيها منهج الله للحياة . وترتفع فيها تصورات البشر وأخلاقهم ، كما يرتفع فيها واقع حياتهم إلى ذلك المستوى الرفيع ، الذي شهدته البشرية واقعاً في فترة من فترات التاريخ .

وستعرض البشرية كما أعرضت عن دعوة نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد وإخوانهم الكرام . وستذهب مع القيادات الضالة المضلة المعنة في الضلال . وستعذب الدعاة إلى الحق أنواعاً مختلفة من العذاب ، وتنكل بهم ألواناً شتى من النكال . كما ألقت إبراهيم في النار ، ونشرت غيرة بالمنشار ، وسخرت واستهزأت بالرسول والأنبياء على مدار التاريخ .

ولكن الدعوة إلى الله لا بد أن تمضي في طريقها كما أراد الله . لأن الحصيلة تستحق الجهود المضنية والتضحيات النبيلة ، ولو صغرت فانحصرت في قلب واحد ينطوي على قيس من نور الله ، ويتصل بروح الله !

إن هذا الموكب المتصل من الرسل والرسالات من عهد نوح - عليه السلام - إلى عهد محمد - عليه أزكى السلام - لينتهي عن استقرار إرادة الله على أطراد الدعوة إلى حقيقة الإيمان الكبيرة ، وعلى قيمة هذه الدعوة وقيمة الحصيلة . وأقل نسبة لهذه الحصيلة هي أن تستقر حقيقة الإيمان في قلوب الدعاة أنفسهم حتى يلاقوا الموت وما هو أشد من الموت في سبيلها ولا ينكصون عنها . وبهذا يرتفعون على الأرض كلها وينطلقون من



جواذبها ، ويتحررون من ربقتها . وهذا وحده كسب كبير ، أكبر من الجهد المرير . كسب للدعاة . وكسب للإنسانية التي تشرف بهذا الصنف منها وتكرم . وتستحق أن يُسجد الله الملائكة لهذا الكائن ، الذي يفسد في الأرض ويسفك الدماء . ولكنه يتباً - بجهد هو ومحاولته وتضحيته - لاستقبال قيس من نور الله . كما يتباً لأن ينهض - وهو الضعيف العاجز - بتحقيق قدر الله في الأرض ، وتحقيق منهجه في الحياة . ويبلغ من الطلاقة والتحرر الروحي أن يضحي بالحياة ، ويحتمل من المشقة ما هو أكبر من ضياع الحياة ، لينجو بعقيدته وينهض بواجبه في محاولة إقارها في حياة الآخرين ، وتحقيق السعادة لهم والتحرر والارتفاع . وحين يتحقق لروح الإنسان هذا القدر من التحرر والانطلاق ، يهون الجهد ، وتهون المشقة ، وتهون التضحية ، ويتوارى هذا كله ، لتبرز تلك الحصيلة الضخمة التي ترجح الأرض والسماء في ميزان الله ...

والآن نستعرض قصة نوح في هذه السورة ، وما تمثله من حقيقة تلك الحقيقة !

\* \* \*

« إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه : أن أنذر قومك من قبل أن يأتهم عذاب أليم . قال : يا قوم : إني لكم نذير مبين : أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعوا . يغفر لكم من ذنوبكم ، ويؤخركم إلى أجل مسمى ، إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر ، لو كنتم تعلمون .. »

تبدأ السورة بتقرير مصدر الرسالة والعقيدة وتوكيده : « إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه » .. فهذا هو المصدر الذي يتلقى منه الرسل التكليف ، كما يتلقون حقيقة العقيدة . وهو المصدر الذي صدر منه الوجود كله ، وصدرت منه الحياة . وهو الله الذي خلق البشر وأودع فطرتهم الاستعداد لأن تعرفه وتعبده ، فلما انحرفوا عنها وزاغوا أرسل إليهم رسلاً ، يردونهم إليه . ونوح - عليه السلام - كان أول هؤلاء الرسل - بعد آدم عليه السلام . وآدم لا يذكر القرآن له رسالة بعد مجيئه إلى هذه الأرض ، وممارسته لهذه الحياة ؛ ولعله كان معلماً لأبنائه وحفدته حتى إذا طال عليهم الأمد بعد وفاته ضلوا عن عبادة الله الواحد ، واتخذوا لهم أصناماً آلهة . اتخذوها في أول الأمر أنصافاً ترمز إلى قوى قدسوها . قوى غيبية أو مشهودة . ثم نسوا الرمز وعبدوا الأصنام ! وأشهرها تلك الخمسة التي سيرد ذكرها في السورة . فأرسل الله إليهم نوحاً يردهم إلى التوحيد ، ويصحح لهم تصورهم عن الله وعن الحياة والوجود . والكتب المقدسة السابقة تجعل إدريس - عليه السلام - سابقاً لنوح . ولكن ما ورد في هذه الكتب لا يدخل في تكوين عقيدة المسلم ، لشبهة التحريف والتزويد والإضافة إلى تلك الكتب .

والذي يتجه إليه من يقرأ قصص الأنبياء في القرآن ، أن نوحاً كان في فجر البشرية ؛ وأن طول عمره الذي قضى منه ألف سنة إلا خمسين عاماً في دعوته لقومه ، ولا بد أنهم كانوا طوال الأعمار بهذه النسبة .. أن طول عمره وأعمار جيله هكذا يوحي بأن البشر كانوا ما يزالون قلة لم تنكأ بعد كما تكاثرت في الأجيال التالية . وذلك قياساً على ما نراه من سنة الله في الأحياء من طول العمر إذا قل العدد ، كأن ذلك للتعويض والتعادل .. والله أعلم بذلك .. إنما هي نظرة في سنة الله وقياس !

تبدأ السورة بتقرير مصدر الرسالة وتوكيده ، ثم تذكر فحوى رسالة نوح في اختصار وهي الإنذار :

« أن أنذر قومك من قبل أن يأتهم عذاب أليم » ..

والحالة التي كان قوم نوح قد اتهاوا إليها ، من إعراض واستكبار وعناد وضلال - كما تبرز من خلال الحساب الذي قدمه نوح في النهاية لربه - تجعل الإنذار هو أنسب ما تلخص به رسالته ، وأول ما يفتتح به الدعوة لقومه ، الإنذار بعذاب أليم ، في الدنيا أو في الآخرة ، أو فيها جميعاً .

ومن مشهد التكليف ينتقل السياق مباشرة إلى مشهد التبليغ في اختصار ، البارز فيه هو الإنذار ، مع الإطعام في المغفرة على ما وقع من الخطايا والذنوب ؛ وتأجيل الحساب إلى الأجل المضروب في الآخرة للحساب ؛ وذلك مع البيان المجمل لأصول الدعوة التي يدعوه إليها :

« قال : يا قوم إني لكم نذير مبين . أن اعبدوا الله ، واتقوه ، وأطيعون . يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى . إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون » ..

« يا قوم إني لكم نذير مبين » .. مفصّل عن نذارته ، مبين عن حجته ، لا يتمم ولا يجمجم ، ولا يتلعم في دعوته ، ولا يدع لبساً ولا غموضاً في حقيقة ما يدعو إليه ، وفي حقيقة ما ينتظر المكذّبين بدعوته .

وما يدعو إليه بسيط واضح مستقيم : « أن اعبدوا الله ، واتقوه وأطيعون » .. عبادة لله وحده بلا شريك . وتقوى لله تهيمن على الشعور والسلوك . وطاعة لرسوله تجعل أمره هو المصدر الذي يستمدون منه نظام الحياة وقواعد السلوك .

وفي هذه الخطوط العريضة تتلخص الديانة السأوية على الإطلاق . ثم تفرّق بعد ذلك في التفصيل والتفريع . وفي مدى التصور وضخامته وعمقه وسعته وشموله وتناوله للجوانب المختلفة للوجود كله ، وللوجود الإنساني في التفصيل والتفريع .

وعبادة الله وحده منهج كامل للحياة ، يشمل تصور الإنسان لحقيقة الألوهية وحقيقة العبودية ؛ ولحقيقة الصلة بين الخلق والخالق ، ولحقيقة القوى والقيم في الكون وفي حياة الناس .. ومن ثم ينبثق نظام للحياة البشرية قائم على ذلك التصور ، فيقوم منهج للحياة خاص . منهج رباني مرجعه إلى حقيقة الصلة بين العبودية والألوهية ، وإلى القيم التي يقرها الله للأحياء والأشياء .

وتقوى الله .. هي الضمانة الحقيقية لاستقامة الناس على ذلك المنهج ، وعدم التفتت عنه هنا أو هناك ، وعدم الاحتيال عليه أو الالتواء في تنفيذه . كما أنها هي مبعث الخلق الفاضل المنظور فيه إلى الله ، بلا رياء ولا نظاهر ولا مفاخرة .

وطاعة الرسول .. هي الوسيلة للاستقامة على الطريق ، وتلقي الهدى من مصدره المتصل بالمصدر الأول للخلق والهداية ، وبقاء الاتصال بالسواء عن طريق محطة الاستقبال المباشرة السليمة المضمونة ! فهذه الخطوط العريضة التي دعا نوح إليها قومه في فجر البشرية هي خلاصة دعوة الله في كل جيل بعده ، وقد وعدهم عليها ما وعد الله به التائبين الثابتين :

« يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى » ..

وجزاء الاستجابة للدعوة إلى عبادة الله وتقواه وطاعة رسوله هي المغفرة والتخليص من الذنوب التي سلفت ؛ وتأخير الحساب إلى الأجل المضروب له في علم الله . وهو اليوم الآخر . وعدم الأخذ في الحياة الدنيا بعذاب الاستئصال ( وسيرد في الحساب الذي قدمه نوح لربه أنه وعدهم أشياء أخرى في أثناء الحياة ) .

ثم بين لهم أن ذلك الأجل المضروب حتمي يجيء في موعده ، ولا يؤخر كما يؤخر عذاب الدنيا .. وذلك لتقرير هذه الحقيقة الاعتقادية الكبرى :

« إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر ، لو كنتم تعلمون » ..

كما أن النص يحتمل أن يكون هذا تقريراً لكل أجل يضربه الله ؛ ليقر في قلوبهم هذه الحقيقة بوجه عام .

بمناسبة الحديث عن الوعد بتأخير حسابهم - لو أطاعوا وأتوا - إلى يوم الحساب .

\* \* \*

وراح نوح - عليه السلام - يواصل جهوده النبيلة الخالصة الكريمة لهداية قومه ، بلا مصلحة له ، ولا منفعة ؛ ويحتمل في سبيل هذه الغاية النبيلة ما يحتمل من إعراض واستكبار واستهزاء .. ألف سنة إلا خمسين عاماً .. وعدد المستجيبين له لا يكاد يزيد ؛ ودرجة الإعراض والإصرار على الضلال ترتفع وتزداد ! ثم عاد في نهاية المطاف يقدم حسابه لربه الذي كلفه هذا الواجب النبيل وذلك الجهد الثقيل ! عاد يصف ما صنع وما لاقى .. وربه يعلم . وهو يعرف أن ربه يعلم . ولكنها شكوى القلب المتعب في نهاية المطاف ، إلى الجهة الوحيدة التي يشكو إليها الأنبياء والرسل والمؤمنون حقيقة الإيمان .. إلى الله ..

« قال : رب إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً ، فلم يزدكم دعائي إلا فراراً ، وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم ، واستغشوا ثيابهم ، وأصروا ، واستكبروا استكباراً . ثم إني دعوتهم جهاراً ، ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسراراً . فقلت : استغفروا ربكم إنه كان غفاراً ، يرسل السماء عليكم مدراراً ، ويمددكم بأموال وبنين ، ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً . ما لكم لا ترجون لله وقاراً ؟ وقد خلقكم أطواراً ؟ ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً ؟ وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً ؟ والله أنبتكم من الأرض نباتاً ، ثم يعيدكم فيها ويخرجكم لإخراجا . والله جعل لكم الأرض ساطعاً ، لتسلكوا منها سبلاً فجاجاً » ..

هذا ما صنع نوح وهذا ما قال ؛ عاد يعرضه على ربه وهو يقدم حسابه الأخير في نهاية الأمد الطويل . وهو يصور الجهد الدائب الذي لا ينقطع : « إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً » ..

ولا يمل ولا يفتر ولا يئس أمام الإعراض والإصرار : « فلم يزدكم دعائي إلا فراراً » .. فراراً من الداعي إلى الله . مصدر الوجود والحياة ، ومصدر النعم والآلاء ، ومصدر الهدى والنور . وهو لا يطلب أجراً على السماع ولا ضريبة على الاهتداء ! الفرار ممن يدعوهم إلى الله ليغفر لهم ويخلصهم من جريرة الإثم والمصيبة والضلال !

فإذا لم يستطيعوا الفرار ، لأن الداعي واجههم مواجهة ، وتحين الفرصة ليصل إلى أسماعهم بدعوته ، كرهوا أن يصل صوته إلى أسماعهم . وكرهوا أن تقع عليه أنظارهم ، وأصروا على الضلال ، واستكبروا عن الاستجابة لصوت الحق والهدى : « وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم ، واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكباراً » .. وهي صورة لإصرار الداعية على الدعوة وتحين كل فرصة ليلبغهم إياها ، وإصرارهم هم على الضلال . تبرز من ثناياها ملامح الطفولة البشرية العنيدة . تبرز في وضع الأصابع في الآذان ، وستر الرؤوس والوجوه بالثياب . والتعبير يرسم بكلماته صورة العناد الطفولي الكامل ، وهو يقول : إنهم « جعلوا أصابعهم في آذانهم » وآذانهم لا تسع أصابعهم كاملة ، إنما هم يسدونها بأطراف الأصابع . ولكنهم يسدونها في عنف بالغ ، كأنما يحاولون أن يجعلوا أصابعهم كلها في آذانهم ضحاًناً لعدم تسرب الصوت إليها بتناً ! وهي صورة غليظة للإصرار والعناد ، كما أنها صورة بدائية لأطفال البشرية الكبار !

ومع الدأب على الدعوة ، وتحين كل فرصة ، والإصرار على المواجهة .. اتبع نوح - عليه السلام - كل الأساليب فجهر بالدعوة تارة ، ثم زاوج بين الإعلان والإسرار تارة : « ثم إني دعوتهم جهاراً ، ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسراراً » ..

وفي أثناء ذلك كله أطمعهم في خير الدنيا والآخرة . أطمعهم في الغفران إذا استغفروا ربهم فهو - سبحانه - غفار للذنوب : « فقلت : استغفروا ربكم إنه كان غفاراً » .. وأطمعهم في الرزق الوفير الميسور من أسبابه التي يعرفونها ويرجونها وهي المطر الغزير ، الذي تنبت به الزروع ، وتسيل به الأنهار ، كما وعدهم برزقهم الآخر من الذرية التي يحيونها - وهي البنين - والأموال التي يطلبونها ويعزونها : « يرسل السماء عليكم مدراراً ويمددكم بأموال وبنين ، ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً » ..

وقد ربط بين الاستغفار وهذه الأرزاق . وفي القرآن مواضع متكررة فيها هذا الارتباط بين صلاح القلوب واستقامتها على هدى الله ، وبين تيسير الأرزاق ، وعموم الرخاء ... جاء في موضع : « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ، ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون »<sup>١</sup> .. وجاء في موضع : « ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم . ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم »<sup>٢</sup> .. وجاء في موضع : « ألا تعبدوا إلا الله إني لكم منه نذير وبشير ، وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى ويؤت كل ذي فضل فضله »<sup>٣</sup> ..

وهذه القاعدة التي يقررها القرآن في مواضع متفرقة ، قاعدة صحيحة تقوم على أسبابها من وعد الله ، ومن سنة الحياة ؛ كما أن الواقع العملي يشهد بتحقيقها على مدار القرون . والحديث في هذه القاعدة عن الأمم لا عن الأفراد . وما من أمة قام فيها شرع الله ، وانجبت انجهاً حقيقياً لله بالعمل الصالح والاستغفار المنبئ عن خشية الله .. ما من أمة اتقت الله وعبدته وأقامت شريعته ، فحققت العدل والأمن للناس جميعاً ، إلا فاضت فيها الخيرات ، ومكن الله لها في الأرض واستخلفها فيها بالعلمان وبالصلاح سواء .

ولقد نشهد في بعض الفترات أماً لا تنقي الله ولا تقم شريعته ؛ وهي - مع هذا - موسع عليها في الرزق ، ممكن لها في الأرض .. ولكن هذا إنما هو الابتلاء : « ونبلوكم بالشر والخير فتنة » ثم هو بعد ذلك رخاء مؤوف ، تأكله آفات الاختلال الاجتماعي والانحدار الأخلاقي ، أو الظلم والبنى وإهدار كرامة الإنسان .. وأماننا الآن دولتان كبيرتان موسع عليهما في الرزق ، ممكن لهما في الأرض . إحداها رأسمالية والأخرى شيوعية . وفي الأولى يهبط المستوى الأخلاقي إلى الدرك الأسفل من الحيوانية ، ويهبط تصور الحياة إلى الدرك الأسفل كذلك فيقوم كله على الدولار ! ! وفي الثانية تهدر قيمة « الإنسان » إلى درجة دون الرقيق وتسود الجاسوسية ويعيش الناس في وجل دائم من المذابح المتوالية ؛ ويبعث كل إنسان وهو لا يضمن أنه سيصبح ورأسه بين كتفيه لا يطيح في همة تحاك في الظلام ! وليست هذه أو تلك حياة إنسانية توسم بالرخاء !

ونحضي مع نوح في جهاده النبيل الطويل . فنجد أنه يأخذ بقومه إلى آيات الله في أنفسهم وفي الكون من حولهم ، وهو يعجب من استنارهم وسوء أدبهم مع الله ، وينكر عليهم ذلك الاستهتار :  
« ما لكم لا ترجون لله وقاراً ؟ وقد خلقكم أطواراً ؟ » ..

والأطوار التي يخاطب بها قوم نوح في ذلك الزمان لا بد أن تكون أمراً يدركونه ، أو أن يكون أحد مدلولاتها

(١) سورة الأعراف . آية : ٩٦

(٢) سورة المائدة . آية : ٦٥ - ٦٦

(٣) سورة هود . آية ٢ - ٣

ما يملك أولئك القوم في ذلك الزمان أن يدركوه ، ليرجو من وراء تذكيرهم به أن يكون له في نفوسهم وقع مؤثر ، يقودهم إلى الاستجابة . والذي عليه أكثر المفسرين أنها الأطوار الجنينية من النطفة إلى العلقة إلى المضغة إلى الهيكل إلى الخلق الكامل .. وهذا يمكن أن يدركه القوم إذا ذكر لهم . لأن الأجنة التي تسقط قبل اكتمالها في الأرحام يمكن أن تعطيهم فكرة عن هذه الأطوار . وهذا أحد مدلولات هذه الآية . ويمكن أن يكون مدلولها ما يقوله علم الأجنة . من أن الجنين في أول أمره يشبه حيوان الخلية الواحدة ؛ ثم بعد فترة من الحمل يمثل الجنين شبه الحيوان المتعدد الخلايا . ثم يأخذ شكل حيوان مائي . ثم شكل حيوان ثديي . ثم شكل المخلوق الإنساني .. وهذا أبعد عن إدراك قوم نوح . فقد كشف هذا حديثاً جديداً . وقد يكون هذا هو مدلول قوله تعالى في موضع آخر بعد ذكر أطوار الجنين : « ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين » .. كما أن هذا النص وذاك قد تكون لهما مدلولات أخرى لم تتكشف للعلم بعد .. ولا نقيدهما ..

وعلى أية حال فقد وجه نوح قومه إلى النظر في أنفسهم ، وأنكر عليهم أن يكون الله خلقهم أطواراً ، ثم هم بعد ذلك لا يستشعرون في أنفسهم توقيراً للجليل الذي خلقهم .. وهذا أعجب وأنكر ما يقع من مخلوق ! كذلك وجههم إلى كتاب الكون المفتوح : « ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً ؟ وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً ؟ » .. والسموات السبع لا يمكن حصرها في مدلول مما تقول به الفروض العلمية في التعريف بالكون . فهي كلها مجرد فروض . إنما وجه نوح قومه إلى السماء وأخبرهم - كما علمه الله - أنها سبع طباق . فبين القمر نور وبين الشمس سراج . وهم يرون القمر ويرون الشمس ، ويرون ما يطلق عليه اسم السماء . وهو هذا الفضاء ذو اللون الأزرق . أما ما هو ؟ فلم يكن ذلك مطلوباً منهم . ولم يجزم أحد إلى اليوم بشيء في هذا الشأن .. وهذا التوجيه يكفي لإثارة التطلع والتدبر فيما وراء هذه الخلائق الهائلة من قدرة مبدعة .. وهذا هو المقصود من ذلك التوجيه . ثم عاد نوح فوجه قومه إلى النظر في نشأتهم من الأرض وعودتهم إليها بالموت ليقدر لهم حقيقة إخراجهم منها بالبعث : « والله أنبتكم من الأرض نباتاً ، ثم يعيدكم فيها ويخرجنكم إخراجاً » ..

والتعبير عن نشأة الإنسان من الأرض بالإنبات تعبير عجيب موح . وهو يكرر في القرآن في صور شتى . كقوله تعالى : « والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكداً » . وهو يشير في هذا إلى نشأة الناس كشأة النبات . كما يقرن نشأة الإنسان بنشأة النبات في مواضع متفرقة : ففي سورة الحج يجمع بينهما في آية واحدة في صدد البرهنة على حقيقة البعث فيقول : « يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإننا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة ، لنبين لكم ، ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً ، ثم لتبلغوا أشدكم ، ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكي لا يعلم من بعد علم شيئاً . وترى الأرض هامدة ، فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج » .. وفي سورة « المؤمنون » يذكر أطوار النشأة الجنينية قريباً مما ذكرت في سورة الحج ويبيء بعدها : « فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب » .. وهكذا .

وهي ظاهرة تستدعي النظر ولا ريب . فهي توحى بالوحدة بين أصول الحياة على وجه الأرض ، وأن نشأة الإنسان من الأرض كشأة النبات . من عناصرها الأولية يتكون . ومن عناصرها الأولية يتغذى وينمو ، فهو نبات من نباتها . وهبه الله هذا اللون من الحياة كما وهب النبات ذلك اللون من الحياة . وكلاهما من نتاج

الأرض ، وكلاهما يرضع من هذه الأم !

وكذلك ينشئ الإيمان في المؤمن تصوراً حقيقياً حياً لعلاقته بالأرض وبالأحياء . تصوراً فيه دقة العلم وفيه حيوية الشعور . لأنه قائم على الحقيقة الحية في الضمير . وهذه ميزة المعرفة القرآنية الفريدة .

والناس الذين نبثوا من الأرض يعودون إلى جوفها مرة أخرى . يعيدهم الله إليها كما أنبثهم منها . فيختلط رفاتهم بتربها ، وتندمج ذراتهم في ذراتها ، كما كانوا فيها من قبل أن ينبثوا منها ! ثم يخرجهم الذي أول مرة ؛ وينبثهم كما أنبثهم أول مرة .. مسألة سهلة يسيرة لا تستدعي التوقف عندها لحظة ، حين ينظر الإنسان إليها من هذه الزاوية التي يعرضها القرآن منها !

ونوح - عليه السلام - وجه قومه إلى هذه الحقيقة لتستشعر قلوبهم يد الله وهي تنبثهم من هذه الأرض نباتاً ، وهي تعيدهم فيها مرة أخرى . ثم تتوقع النشأة الأخرى وتحسب حسابها ، وهي كائنة بهذا اليسر وبهذه البساطة . بساطة البدهة التي لا تقبل جدلاً !

وأخيراً وجه نوح قلوب قومه إلى نعمة الله عليهم في تيسير الحياة لهم على هذه الأرض وتذليلها لسيرهم ومعاشهم وانتقالهم وطرائق حياتهم : « والله جعل لكم الأرض بساطاً ، لتسلكوا منها سبلاً فجاجاً » ..

وهذه الحقيقة القريبة من مشاهدتهم وإدراكهم تواجههم مواجهة كاملة ، ولا يملكون الفرار منها كما كانوا يفرون من صوت نوح وإنذاره . فهذه الأرض بالقياس إليهم مبسطة ممهدة - حتى جبالها قد جعل لهم عبرها دروباً وفجاجاً ، كما جعل في سهولها من باب أولى . وفي سبلها ودروبها يمشون ويركبون وينتقلون ؛ ويتغنون من فضل الله ، ويتعاشون في يسر وتبادل للمنافع والأرزاق .

وهم كانوا يدركون هذه الحقيقة المشاهدة لهم بدون حاجة إلى دراسات علمية عويصة ، يدرسون بها النواميس التي تحكم وجودهم على هذه الأرض ، وتيسر لهم الحياة فيها . وكلما زاد الإنسان علماً أدرك من هذه الحقيقة جوانب جديدة وأفاقاً بعيدة<sup>١</sup> .

هكذا سلك نوح - أو حاول أن يسلك - إلى آذان قومه وقلوبهم وعقولهم بشتى الأساليب ، ومتنوع الوسائل في دأب طويل ، وفي صبر جميل ، وفي جهد نبيل ، ألف سنة إلا خمسين عاماً . ثم عاد إلى ربه الذي أرسله إليهم ، يقدم حساباً ، ويثبث شكواه ، في هذا البيان المفصل ، وفي هذه اللهجة المؤثرة . ومن هذا البيان الدقيق نطلع على تلك الصورة النبيلة من الصبر والجهد والمشقة ، وهي حلقة واحدة في سلسلة الرسالة السماوية لهذه البشرية الضالة العصية ! فإذا كان بعد كل هذا البيان ؟

« قال نوح : رب إنهم عصوني ، واتبعوا من لم يزد ماله وولده إلا خساراً . ومكروا مكراً كباراً . وقالوا لا تذرنا آلهتك ، ولا تذرنا ودّاً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً . وقد أضلوا كثيراً . ولا تزد الظالمين إلا ضلالاً » ..

رب إنهم عصوني ! بعد كل هذا الجهاد ، وبعد كل هذا العناء . وبعد كل هذا التوجيه . وبعد كل هذا التنوير . وبعد الإنذار والإطعام والوعد بالمال والبنين والرخاء .. بعد هذا كله كان العصيان . وكان السير وراء القيادات الضالة المضلّة ، التي تخدع الأتباع بما تملك من المال والأولاد ، ومظاهر الجاه والسلطان . ممن

(١) تراجع سورة الملك عند قوله تعالى : « هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور . ص ٣٦٣٧ -

لم يزد ماله وولده إلا خساراً « فقد أغراهم المال والولد بالضلال والإضلال ، فلم يكن وراءهما إلا الشقاء والخسران .

هؤلاء القادة لم يكتفوا بالضلال .. « ومكروا مكراً كبيراً » . مكراً متناهيّاً في الكبر . مكروا بإبطال الدعوة وإغلاق الطريق في وجهها إلى قلوب الناس . ومكروا لتزيين الكفر والضلال والجاهلية التي تخطط فيها القوم . وكان من مكروهم تحريض الناس على الاستمسك بالأصنام التي يسمونها آلهة : « وقالوا : لا تدرن آهتكم » .. بهذه الإضافة : « آهتكم » لإثارة النخوة الكاذبة والحمية الآتمة في قلوبهم . وخصصوا من هذه الأصنام أكبرها شأنًا فخصوها بالذكر ليجب ذكرها في قلوب العامة المضللين الحمية والاعتزاز .. « ولا تدرن ودأ ، ولا سواعاً ، ولا يغوث ، ويعوق ، ونسراً » .. وهي أكبر آهتهم التي ظلت تعبد في الجاهليات بعدهم إلى عهد الرسالة المحمدية . وهكذا تلك القيادات الضالة المضلّة تقم أصناماً ، تختلف أسماءها وأشكالها ، وفق النعرة السائدة في كل جاهلية ؛ وتجمع حوالها الأنباع ، وتهيج في قلوبهم الحمية لهذه الأصنام ، كي توجههم من هذا الخطام إلى حيث نشاء ، وتبقيهم على الضلال الذي يكفل لها الطاعة والانقياد : « وقد أضلوا كثيراً » ككل قيادة ضالة تجمع الناس حول الأصنام .. أصنام الأحجار . وأصنام الأشخاص . وأصنام الأفكار .. سواء ! ! للصعد عن دعوة الله ، وتوجيه القلوب بعيداً عن الدعاة ، بالمكر الكبار ، والكيد والإصرار !

\* \* \*

هنا انبعث من قلب النبي الكريم نوح - عليه السلام - ذلك الدعاء على الظالمين الضالين المضللين ، الماكرين الكائدين :

« ولا تزد الظالمين إلا ضلالاً » ..

ذلك الدعاء المنبعث من قلب جاهد طويل ، وعانى كثيراً ، وانتهى - بعد كل وسيلة - إلى اقتناع بأن لا خير في القلوب الظالمة الباغية العاتية ؛ وعلم أنها لا تستحق الهدى ولا تستأهل النجاة . وقبل أن يعرض السياق بقية دعاء نوح - عليه السلام - يعرض ما صار إليه الظالمون الخاطئون في الدنيا والآخرة جميعاً ! فأمر الآخرة كأمر الدنيا حاضر بالقياس إلى علم الله ، وبالقياس إلى الوقوع الثابت الذي لا تغيير فيه :

« مما خطيئتهم أغرقوا فأدخلوا ناراً . فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً » .

فبخطيئتهم وذنوبهم ومعصياتهم أغرقوا فأدخلوا ناراً . والتعقيب بالفاء مقصود هنا ، لأن إدخالهم النار موصول بإغراقهم ؛ والفواصل الزمنية القصير كأنه غير موجود ، لأنه في موازين الله لا يحسب شيئاً . فالترتيب مع التعقيب كائن بين إغراقهم في الأرض وإدخالهم النار يوم القيامة . وقد يكون هو عذاب القبر في الفترة القصيرة بين الدنيا والآخرة .. « فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً » ..

لا بنون ولا مال ولا سلطان ولا أولياء من الآلهة المدعاة !

وفي آيتين اثنتين قصيرتين ينتهي أمر هؤلاء العصاة العتاة ، ويطوى ذكرهم من الحياة ! وذلك قبل أن يذكر السياق دعاء نوح عليهم بالهلاك والفناء .. ولا يفصل هنا قصة غرقهم ، ولا قصة الطوفان الذي أغرقهم . لأن الظل المراد إبقاؤه في هذا الموقف هو ظل الإجهاز السريع ، حتى ليعبر المسافة بين الإغراق والإحراق في حرف الفاء ! على طريقة القرآن في إيقاعاته التعبيرية والتصويرية المبدعة . فنقف نحن في ظلال

السياق لا نتعداها إلى تفصيل قصة الإغراق .. ولا الإحراق .. !

ثم يكمل دعاء نوح الأخير ؛ وابتأله إلى ربه في نهاية المطاف :

« وقال نوح : رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً . إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً . رب اغفر لي ولوالدي ، ولن ادخل بيتي مؤمناً ، وللمؤمنين والمؤمنات ولا ترد الظالمين إلا تباراً » .. فقد أُمم قلب نوح أن الأرض تحتاج إلى غسل يطهر وجهها من الشر العارم الخالص الذي انتهى إليه القوم في زمانه . وأحياناً لا يصلح أي علاج آخر غير تطهير وجه الأرض من الظالمين ، لأن وجودهم يجمد الدعوة إلى الله نهائياً ، ويحول بينها وبين الوصول إلى قلوب الآخرين . وهي الحقيقة التي عبر عنها نوح ، وهو يطلب الإجهاز على أولئك الظالمين إجهازاً كاملاً لا يبقى منهم دياراً - أي صاحب ديار - فقال : « إنك إن تذرهم يضلوا عبادك » .. ولقطة « عبادك » توحى بأنهم المؤمنون . فهي تحجيء في السياق القرآني في مثل هذا الموضع بهذا المعنى . وذلك بفتنتهم عن عقيدتهم بالقوة الغاشمة ، أو بفتنة قلوبهم بما ترى من سلطان الظالمين وتركهم من الله في عافية !

ثم إنهم يوجدون بيئة وجواً يولد فيها الكفار ، وتوحي بالكفر من الناشئة الصغار ، بما يطبعهم به الوسط الذي ينشئه الظالمون ، فلا توجد فرصة لترى الناشئة النور ، من خلال ما تغمرهم به البيئة الضالة التي صنعوها . وهي الحقيقة التي أشار إليها قول النبي الكريم نوح عليه السلام ، وحكاها عنه القرآن : « ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً » .. فهم يطلقون في جو الجماعة أباطيل وأضاليل ، وينشئون عادات وأوضاعاً ونظماً وتقاليدهم ، ينشأ معها المواليد فاجراً كفاراً ، كما قال نوح ..

من أجل هذا دعا نوح - عليه السلام - دعوته الماحقة الساحقة . ومن أجل هذا استجاب الله دعوته ، فغسل وجه الأرض من ذلك الشر ؛ وجرف العواثير التي لا تجرفها إلا قوة الجبار القدير .

وإلى جانب الدعوة الساحقة الماحقة التي جعلها خاتمة دعائه وهو يقول : « ولا ترد الظالمين إلا تباراً » - أي هلاكاً ودماراً - إلى جانب هذا كان الابتال الخاشع الودود :

« رب اغفر لي ولوالدي ، ولن ادخل بيتي مؤمناً ، وللمؤمنين والمؤمنات ... » ..

ودعاء نوح النبي لربه أن يغفر له .. هو الأدب النبوي الكريم في حضرة الله العلي العظيم .. أدب العبد في حضرة الرب . العبد الذي لا ينسى أنه بشر ، وأنه يخطئ ، وأنه يقصر ، مهما طمع ويعبد ، وأنه لا يدخل الجنة بعمله إلا أن يتغمده الله بفضل ، كما قال أخوه النبي الكريم محمد - صلى الله عليه وسلم - وهذا هو الاستغفار الذي دعا قومه العصاة الخاطئين إليه ، فاستكبروا عليه .. وهو هو النبي يستغفر بعد كل هذا الجهد وكل هذا العناء . يستغفر وهو يقدم لربه سجل الحساب !

ودعاؤه لوالديه .. هو بر النبوّة بالوالدين المؤمنين - كما نفهم من هذا الدعاء - ولو لم يكونا مؤمنين لروجع فيهما كما روجع في شأن ولده الكافر الذي أغرق مع المغرقين ( كما جاء في سورة هود ) .

ودعاؤه الخاص لمن دخل بيته مؤمناً .. هو بر المؤمن بالمؤمن ؛ وجب الخير لأخيه كما يحبه لنفسه ، وتخصيص الذي يدخل بيته مؤمناً ، لأن هذه كانت علامة النجاة ، وحصر المؤمنين الذين سيصحبهم معه في السفينة . ودعاؤه العام بعد ذلك للمؤمنين والمؤمنات .. هو بر المؤمن بالمؤمنين كافة في كل زمان ومكان . وشعوره بأصرة القرى على مدار الزمن واختلاف السكن . وهو السر العجيب في هذه العقيدة التي تربط بين أصحابها



برباط الحب الوثيق ، والشوق العميق ، على تباعد الزمان والمكان . السر الذي أودعه الله هذه العقيدة ، وأودعه هذه القلوب المربوطة برباط العقيدة ..

وفي مقابل هذا الحب للمؤمنين ، كان الكره للظالمين .

« ولا تزد الظالمين إلا تباراً » ..

\* \* \*

وتختم السورة ، وقد عرضت تلك الصورة الوضيئة لجهاد النبي الكريم نوح عليه السلام . وتلك الصورة المطموسة لإصرار المعاندين الظالمين .. وقد تركت هذه وتلك في القلب حباً لهذا الروح الكريم وإعجاباً بهذا الجهاد النبيل ، وزاداً للسير في هذا الطريق الصاعد ، أياً كانت المشاق والمتاعب . وأياً كانت التضحيات والآلام . فهو الطريق الوحيد الذي ينتهي بالبشرية إلى أقصى الكمال المقدر لها في هذه الأرض . حين ينتهي بها إلى الله ، العلي الأعلى ، الجليل العظيم ..

\* \* \*

## (٧٢) سُورَةُ الْجِنِّ مَكِّيَّةٌ وَآيَاتُهَا ثَمَانٍ وَعِشْرُونَ

### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرَكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُ كَانَ يَفُولُ سَفِينًا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّنْ تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَن لَّنْ بَيْعَتْ اللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْتَهَا مُكْتَ حَرَمًا شَدِيدًا وَشُهَبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدِ لِّلسَّمْعِ ﴿٩﴾ فَمَن يَسْمَعُ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شُهَابًا رَّصَدًا ﴿١٠﴾ وَأَنَّا لَا تَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدْدًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَن يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَحَافُ بَحْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٤﴾ وَأَنَّا مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَمِنَّا الْفَاسِقُونَ فَمَن أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴿١٥﴾ وَأَمَّا الْفَاسِقُونَ فَكَانُوا أَلْجُوهُمْ حَظَبًا ﴿١٦﴾

وَالْوِاسْتَقْمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَّاءً غَدَقًا ﴿١٧﴾ لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّا أَلَمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴿١٩﴾ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿٢٠﴾

قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أَشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ﴿٢١﴾

قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٦١﴾

قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٦٢﴾ إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَةً ۚ وَمَنْ يَعْصِ  
 اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَيَسْأَلُونَ مَنْ أضعفُ ناصراً وأقلُّ  
 عدداً ﴿٦٤﴾

قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقْرَبُ مَا تُوَعَدُونَ أَمْ لِرَبِّي أَمَدٌ ﴿٦٥﴾ عَلِيمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٦٦﴾  
 إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿٦٧﴾ لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَاتِ رَبِّهِمْ  
 وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿٦٨﴾

هذه السورة تبده الحس - قبل أن ينظر إلى المعاني والحقائق الواردة فيها - بشيء آخر واضح كل الوضوح فيها .. إنها قطعة موسيقية مطردة الإيقاع ، قوية التنغم ، ظاهرة الرنين ؛ مع صبغة من الحزن في إيقاعها ، ومسحة من الأسى في تنغمها ، وطائفت من الشجي في رنينها ، يساند هذه الظاهرة ويتناسق معها صور السورة وظلالها ومشاهداتها ، ثم روح الإيحاء فيها . وبخاصة في الشطر الأخير منها بعد انتهاء حكاية قول الجن ، والاتجاه بالخطاب إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - هذا الخطاب الذي يثير العطف على شخص الرسول في قلب المستمع لهذه السورة ، عطفاً مصحوباً بالحب وهو يؤمر أن يعلن تجرده من كل شيء في أمر هذه الدعوة إلا البلاغ ، والرقابة الإلهية المضروبة حوله وهو يقوم بهذا البلاغ :

« قل : إنما أدعو ربي ولا أشرك به أحداً . . قل : إني لا أملك لكم ضراً ولا رشداً . . قل : إني لن يجيرني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحداً ، إلا بلاغاً من الله ورسالاته ، ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبداً ، حتى إذا رَأَوْا ما يُوعَدُونَ فَيَسْأَلُونَ مَنْ أضعفُ ناصراً وأقلُّ عدداً . . قل : إن أدري أقرب ما توعدون أَمْ يجعلُ له ربي أمداً ، عالم الغيب فلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ، إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً ، ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم ، وأحاط بما لديهم ، وأحصى كل شيء عدداً .. وذلك كله إلى جانب الإيقاع النفسي للحقائق التي وردت في حكاية قول الجن ، وبيانهم الطويل المديد . وهي حقائق ذات ثقل ووزن في الحس والتصور ، والاستجابة لها تغشى الحس بحالة من التدبر والتفكير ، تناسب مسحة الحزن ورنه الشجي التمشية في إيقاع السورة الموسيقي !  
 وقراءة هذه السورة بشيء من الترتيل الهادئ ، توقع في الحس هذا الذي وصفناه من المسحة الغالبة عليها ..

• • •

فإذا تجاوزنا هذه الظاهرة التي تبده الحس ؛ إلى موضوع السورة ومعانيها واتجاهها فإننا نجد حافلة بشتى الدلالات والإيحاءات .

إنها ابتداء شهادة من عالم آخر بكثير من قضايا العقيدة التي كان المشركون يمجّدونها ويمجّدون فيها أشد الجدل ، ويرجمون في أمرها رجماً لا يستندون فيه إلى حجة ، ويزعمون أحياناً أن محمداً - صلى الله عليه وسلم - يتلقى من الجن ما يقوله لهم عنها ! فتجني الشهادة من الجن أنفسهم بهذه القضايا التي يمجّدونها ويمجّدون فيها ؛ وبتكذيب دعواهم في استمداد محمد من الجن شيئاً . والجن لم يعلموا بهذا القرآن إلا حين سمعوه من محمد - صلى الله عليه وسلم - فهاهم وراهم ومسهم منه ما يدهش ويذهل ، وملا نفوسهم وقاض حتى ما يملكون السكوت على ما سمعوا ، ولا الإجمال فيما عرفوا ، ولا الاختصار فيما شعروا . فانطلقوا يحدثون في روعة المأخوذ ، ووهلة المشدود ، عن هذا الحادث العظيم ، الذي شغل السماء والأرض والإنس والجن والملائكة والكواكب . وترك آثاره ونتائجه في الكون كله ! .. وهي شهادة لها قيمتها في النفس البشرية حقاً .

ثم إنها تصحيح لأوهام كثيرة عن عالم الجن في نفوس المخاطبين ابتداء بهذه السورة ، وفي نفوس الناس جميعاً من قبل ومن بعد ؛ ووضع حقيقة هذا الخلق المغيّب في موضعها بلا غلو ولا اعتساف . فقد كان العرب المخاطبون بهذا القرآن أول مرة يعتقدون أن للجن سلطاناً في الأرض ، فكان الواحد منهم إذا أمسى بواد أو قفر ، لجأ إلى الاستعاذة بعظيم الجن الحاكم لما نزل فيه من الأرض ، فقال : أعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه .. ثم بات آمناً ! كذلك كانوا يعتقدون أن الجن تعلم الغيب وتخبر به الكهان فيتنبأون بما يتنبأون . وفيهم من عبد الجن وجعل بينهم وبين الله نسباً ، وزعم له سبحانه وتعالى زوجة منهم تلده الملائكة ! والاعتقاد في الجن على هذا النحو أو شبهه كان فاشياً في كل جاهلية ، ولا تزال الأوهام والأساطير من هذا النوع تسود بيئات كثيرة إلى يومنا هذا ! ! !

وبينا كانت الأوهام والأساطير تغمر قلوب الناس ومشاعرهم وتصوراتهم عن الجن في القديم ، وما تزال .. نجد في الصف الآخر اليوم منكرين لوجود الجن أصلاً ، يصفون أي حديث عن هذا الخلق المغيّب بأنه حديث خرافة ..

وبين الإغراق في الوهم ، والإغراق في الإنكار ، يقرر الإسلام حقيقة الجن ، ويصحح التصورات العامة عنهم ، ويحرر القلوب من خوفها وخضوعها لسلطانهم الموهوم :

فالجن لهم حقيقة موجودة فعلاً وهم كما يصفون أنفسهم هنا : « وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك كنا طرائق قدداً » .. ومنهم الضالون المضلون ومنهم السذج الأبرياء الذين ينخدعون : « وأنه كان يقول سفيهاً على الله شططاً ، وأنا ظننا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذباً » .. وهم قابلون للهداية من الضلال ، مستعدون لإدراك القرآن سماعاً وفهماً وتأثراً : « قل : أوحى إليّ أنه استمع نفر من الجن فقالوا : إنا سمعنا قرأناً عجباً يهدي إلى الرشد فآمنّا به ، ولن نشرك بربنا أحداً » .. وأنهم قابلون بخلقتهم لتوقيع الجزاء عليهم وتحقيق نتائج الإيمان والكفر فيهم : « وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به ، فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخساً ولا رهقاً . وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون ، فمن أسلم فأولئك تحروا رشداً ، وأما القاسطون ، فكانوا لجهنم حطباً » .. وأنهم لا يتفعون الإنس حين يلوذون بهم بل يرهقونهم : « وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً » .. وأنهم لا يعلمون الغيب ، ولم تعد لهم صلة بالسما : « وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهاباً ، وأنا كنا نعد منها مقاعد للسمع ، فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً ، وأنا لا ندرى أشراً تريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشداً » .. وأنهم لا صهر بينهم وبين الله - سبحانه وتعالى - ولا نسب : « وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولداً » .. وأن الجن لا قوة لهم مع قوة الله ولا حيلة : « وأنا ظننا أن لن نعجز

الله في الأرض ولن نعيّزه هرباً ..

وهذا الذي ذكر في هذه السورة عن الجن بالإضافة إلى ما جاء في القرآن من صفات أخرى كتنسيخ طائفة من الشياطين لسليان - وهم من الجن - وأنهم لم يعلموا بموته إلا بعد فترة ، فدل هذا على أنهم لا يعلمون الغيب : « فلما قضينا عليه الموت ما دهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته ، فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين<sup>١</sup> » ..

ومثل قوله تعالى عن خصيصة من خصائص إبليس وقبيله - وهو من الجن - غير أنه تمحض للشرب والفساد والإغراء : « إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم<sup>٢</sup> » .. وما يدل عليه من أن كيان الجن غير مرئي للبشر ، في حين أن كيان الإنس مرئي للجن .

هذا بالإضافة إلى ما قرره في سورة الرحمن عن المادة التي منها كيان الجن والمادة التي منها كيان الإنسان في قوله : « خلق الإنسان من صلصال كالفخار ، وخلق الجن من مارج من نار » .. يعطي صورة عن ذلك الخلق المغيّب ، تثبت وجوده ، وتحدد الكثير من خصائصه ، وفي الوقت ذاته تكشف الأوهام والأساطير ، العالقة بالأذهان عن ذلك الخلق ، وتدع تصور المسلم عنه واضحاً دقيقاً متحرراً من الوهم والخرافة ، ومن التسعّف في الإنكار الجامح كذلك !

وقد تكفلت هذه السورة بتصحيح ما كان مشركو العرب وغيرهم يظنونونه عن قدرة الجن ودورهم في هذا الكون . أما الذين ينكرون وجود هذا الخلق إطلاقاً ، فلا أدري علام يبنون هذا الإنكار ، بصيغة الجزم والقطع ، والسخرية من الاعتقاد بوجوده ، وتسميته خرافة !

ألأنهم عرفوا كل ما في هذا الكون من خلاق فلم يجدوا الجن من بينها ؟ ! إن أحداً من العلماء لا يزعم هذا حتى اليوم . وإن في هذه الأرض وحدها من الخلاق الحية كثيراً مما يكشف وجوده يوماً بعد يوم ، ولم يقل أحد إن سلسلة الكشوف للأحياء في الأرض وقفت أو ستقف في يوم من الأيام !

ألأنهم عرفوا كل القوى المكنونة في هذا الكون فلم يجدوا الجن من بينها ؟ ! إن أحداً لا يدعي هذه الدعوى . فهناك قوى مكنونة تكشف كل يوم ، وهي كانت مجهولة بالأمس . والعلماء جادون في التعرف إلى القوى الكونية ، وهم يعلنون في تواضع قادتهم إليه كشوفهم العلمية ذاتها ، أنهم يقفون على حافة المجهول في هذا الكون ، وأنهم لم يكادوا يبدؤون بعد !

ألأنهم رأوا كل القوى التي استخدموها ، فلم يروا الجن من بينها ؟ ! ولا هذه . فإنهم يتحدثون عن الكهرباء بوصفه حقيقة علمية منذ توصلوا إلى تحطيم الذرة . ولكن أحداً منهم لم ير الكهرباء قط . وليس في معاملهم من الأجهزة ما يفرضون به كهرباً من هذه الكهارب التي يتحدثون عنها !

فقيم إذن هذا الجزم بنفي وجود الجن ؟ ومعلومات البشر عن هذا الكون وقواه وسكانه من الضالة بحيث لا تسمح لإنسان يحترم عقله أن يجزم بشيء ؟ ! لأن هذا الخلق المسمى الجن تعلقت به خرافات شتى وأساطير كثيرة ؟ إن طريقتنا في هذه الحالة هو إبطال هذه الخرافات والأساطير كما صنع القرآن الكريم ، لا التبجح بنفي وجود هذا الخلق من الأساس ، بلا حجة ولا دليل ! ومثل هذا الغيب ينبغي تلقي نبشه من المصدر الوحيد

(١) سورة سبأ . آية : ١٤ .

(٢) سورة الأعراف . آية : ٢٧ .

الموثوق بصحته ، وعدم معارضة هذا المصدر بتصورات سابقة لم تستمد منه . فإيقوله هو كلمة الفصل في مثل هذا الموضوع .

\* \* \*

والسورة التي بين أيدينا - بالإضافة إلى ما سبق - تساهم مساهمة كبيرة في إنشاء التصور الإسلامي عن حقيقة الألوهية ، وحقيقة العبودية ، ثم عن هذا الكون وخلائقه ، والصلة بين هذه الخلائق المتنوعة .

وفي مقالة الجن ما يشهد بوحداية الله ، ونفي صاحبة الولد ، وإثبات الجزاء في الآخرة ؛ وأن أحداً من خلق الله لا يعجزه في الأرض ولا يفلت من يديه ويفوته ، فلا يلاقى جزاءه العادل . وتتكرر بعض هذه الحقائق فيما يوجه للرسول - صلى الله عليه وسلم - من الخطاب : « قل : إنما أدعوا ربى ولا أشرك به أحداً » . . . « قل : إني لن ينجيني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحداً » .. وذلك بعد شهادة الجن بهذه الحقيقة شهادة كاملة صريحة .

كما أن تلك الشهادة تقرر أن الألوهية لله وحده ، وأن العبودية هي أسمى درجة يرتفع إليها البشر : « وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبداً » .. ويؤكد السياق هذه الحقيقة فيما يوجه للرسول - صلى الله عليه وسلم - من خطاب : « قل : إني لا أملك لكم ضرراً ولا رشداً » ..

والغيب موكول لله وحده ؛ لا تعرفه الجن : « وأنا لا ندرى أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشداً » .. ولا تعرفه الرسل إلا ما يطلعهم الله عليه منه لحكمة يعلمها : « قل : إن أدري أقرب ما توعدون أم يجعل له ربي أمداً . عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً ، إلا من ارتضى من رسول ، فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً ... » ..

أما العباد والعبيد في هذا الكون ، فقد علمتنا السورة أن بين بعضها والبعض الآخر مشاركات ومنافذ ، ولو اختلف تكوينها ، كالمشاركات التي بين الجن والإنس ، مما حكته السورة وحكاها القرآن في مواضع أخرى . فالإنسان ليس بمعزل - حتى في هذه الأرض - عن الخلائق الأخرى . وبينه وبينها اتصال وتفاعل في صورة من الصور . وهذه العزلة التي يحسها الإنسان بنفسه - بله العزلة الفردية أو القبلية أو القومية - لا وجود لها في طبيعة الكون ولا في واقعه . وأخرى بهذا التصور أن يفسح في شعور الإنسان بالكون وما يعمره من أرواح وقوى وأسرار . قد يجهلها الإنسان ، ولكنها موجودة بالفعل من حوله ، فهو ليس الساكن الوحيد لهذا الكون كما ينع له أحياناً أن يشعر !!

ثم إن هناك ارتباطاً بين استقامة الخلائق على الطريقة ، وتحركات هذا الكون ونتائجها ، وقدر الله في العباد : « وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقاً لنفتنهم فيه . ومن يُعْرِض عن ذكر ربه يسلكه عذاباً صعباً » .. وهذه الحقيقة تُولف جانباً من التصور الإسلامي للارتباطات بين الإنسان والكون وقدر الله . وهكذا تمتد إبعاءات السورة إلى مساحات ومسافات وأبعاد وآماد واسعة بعيدة ، وهي سورة لا تتجاوز الثمانين والعشرين آية ، نزلت في حادثة معينة ومناسبة خاصة ..

\* \* \*

فأما هذا الحادث الذي أشارت إليه السورة . حادث استعاضة نفر من الجن للقرآن . فتختلف بشأنه الروايات . قال الإمام الحافظ أبو بكر البيهقي في كتابه : « دلائل النبوة » : أخبرنا أبو الحسن علي بن أحمد بن

عبدان ، أخبرنا أحمد بن عبيد الصغار ، حدثنا إسماعيل القاضي ، أخبرنا مسدد ، حدثنا أبو عوانة ، عن أبي بشر ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : « ما قرأ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على الجن ولا رآهم . انطلق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء ، أرسلت عليهم الشهب ، فرجعت الشياطين إلى قومهم ، فقالوا : ما لكم ؟ فقالوا : حيل بيننا وبين خبر السماء ، وأرسلت علينا الشهب . قالوا : ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شيء حدث ، فاضربوا مشارق الأرض ومغاريها ، وانظروا ما هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء . فانطلقوا يضربون مشارق الأرض ومغاريها يبتغون ما هذا الذي حال بينهم وبين خبر السماء . فانصرف أولئك النفر الذين توجهوا نحو تهامة إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو بنخلة عامداً إلى سوق عكاظ ، وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر ، فلما سمعوا القرآن استمعوا إليه ، فقالوا : هذا والله الذي حال بينكم وبين خبر السماء ، فهناك حين رجعوا إلى قومهم قالوا : « إنا سمعنا قرآناً عجيباً يهدي إلى الرشد فأمنّا به ولن نشرك بربنا أحداً .. » وأنزل الله على نبيه - صلى الله عليه وسلم - : « قل : أوحى إلي أنه استمع نفر من الجن .. » وإنما أوحى إليه قول الجن (ورواه البخاري عن مسدد بنحو هذا ، وأخرجه مسلم عن شيبان ابن فروخ عن أبي عوانة بهذا النص) .

فهذه رواية . وهناك رواية أخرى .. قال مسلم في صحيحه : حدثنا محمد بن المثنى حدثنا عبد الأعلى ، حدثنا داود وهو ابن أبي هند ، عن عامر ، قال : سألت علقمة : هل كان ابن مسعود شهد مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ليلة الجن ؟ قال : فقال علقمة : أنا سألت ابن مسعود - رضي الله عنه - فقلت : هل شهد أحد منكم مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ليلة الجن ؟ قال : لا ، ولكننا كنا مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ذات ليلة ، فقدقدناه فالتمسناه في الأودية والشعاب ، فقيل : استطير ؟ اغتيل ؟ قال : فبتنا بشر ليلة بات بها قوم . فلما أصبحنا إذا هو ، جاء من قبل حراء . قال : قتلنا : يا رسول الله ، فقدناك فطلبناك فلم نجدك ، فبتنا بشر ليلة بات بها قوم . فقال : « أتاني داعي الجن ، فذهبت معهم فقرأت عليهم القرآن » . قال : فانطلق بنا فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم » وسألوه الزاد فقال : « كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع في أيديكم أوفر ما يكون لحماً ، وكل بكرة أو روثة علف لدوابكم . قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « فلا تستنجوا بهما فإنهما طعام إخوانكم .. »

وهناك رواية أخرى عن ابن مسعود أنه كان تلك الليلة مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولكن إسناد الرواية الأولى أوثق . فنضرب عن هذه وأمثالها .. ومن الروايتين الواردين في الصحيحين يتبين أن ابن عباس يقول : إن الرسول - صلى الله عليه وسلم - لم يعرف بحضور النفر من الجن ، وأن ابن مسعود يقول : إنهم استدعوه . ويوفق البيهقي بين الروايتين بأنهما حادثان لا حادث واحد .

وهناك رواية ثالثة لابن اسحق قال :

« ولما مات أبو طالب نالت قريش من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من الأذى ما لم تكن تنال منه في حياة عمه أبي طالب ، فخرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى الطائف يلتمس النصرة من ثقيف ، والمنعة بهم من قومه ، ورجاء أن يقلبوا منه ما جاءهم به من الله عز وجل ، فخرج إليهم وحده .

« قال ابن إسحق : فحدثني يزيد بن زياد ، عن محمد بن كعب القرظي قال : لما انتهى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى الطائف عمد إلى نفر من ثقيف هم يومئذ سادة ثقيف وأشرافهم ، وهم إخوة ثلاثة :

باليل بن عمرو بن عمير ، ومسعود بن عمرو بن عمير ، وحبيب بن عمرو بن عمير ... وعند أحدهم امرأة من قريش من بني جمح . فجلس إليهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فدعاهم إلى الله ، وكلهم بما جاءهم له من نصرته على الإسلام ، والقيام معه على من خالفه من قومه . فقال له أحدهم : هو يمرط ثياب الكعبة ( أي يمزقها ) إن كان الله أرسلك ! وقال الآخر : أما وجد الله أحداً يرسله غيرك ؟ وقال الثالث : والله لا أكلمك أبداً لئن كنت رسولاً من الله كما تقول لأنت أعظم خطراً من أن أرد عليك الكلام . ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي لي أن أكلمك . فقام رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من عندهم وقد يش من خير ثقيف . وقد قال لهم - فيما ذكر لي - : « إذ فعلتم ما فعلتم فاكموا عني » . وكره رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يبلغ قومه عنه ، فبذروهم ( أي يحرشهم ) ذلك عليه !

« فلم يفعلوا ، وأغروا به سفهائهم وعبيدهم يسونه ويصيحون به ، حتى اجتمع عليه الناس ، وألجأوه إلى حائط ( أي بستان ) لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة - وهما فيه - ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه ، فعمد إلى ظل حيلة من عنب ( أي طاقه من قضبان الكرم ) فجلس فيه ، وابنا ربيعة ينظران إليه ويريان ما لقي من سفهاء أهل الطائف ... فلما اطمان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال - فيما ذكر لي - : « اللهم إليك أشكو ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين وأنت ربي ، إلى من تكلني ؟ إلى عبد يتجهمني ؟ أم إلى عدو ملكته أمري ؟ إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي ، ولكن عافيتك هي أوسع لي . أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك ، أو يحل علي سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك .. »

« قال : فلما رآه ابنا ربيعة عتبة وشيبة وما لقي تحركت له رحمهما ، فدعوا غلاماً لهما نصرانياً يقال له : عداس . فقال له : خذ قطعاً من هذا العنب ، فضعه في هذا الطبق ، ثم اذهب به إلى ذلك الرجل ، فقل له يأكل منه . ففعل عداس ، ثم أقبل به حتى وضعه بين يدي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثم قال له : كل . فلما وضع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيه يده قال : « بسم الله » ثم أكل . فنظر عداس في وجهه ثم قال : والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد . فقال له رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « ومن أهل أي البلاد أنت يا عداس ؟ وما دينك ؟ قال : نصراني ، وأنا رجل من أهل تينوى . فقال له رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « من قرية الرجل الصالح يونس بن متى ؟ » فقال عداس : وما يدريك ما يونس ابن متى ؟ فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « ذاك أخي . كان نبياً وأنا نبي » فأكب عداس على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بقل رأسه ويديه وقدميه . قال : يقول ابنا ربيعة أحدهما لصاحبه أما غلامك فقد أفسده عليك ! فلما جاءهما عداس قالاه : ويحك يا عداس مالك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه ؟ قال : يا سيدي ما في الأرض شيء خير من هذا . لقد أخبرني بأمر ما يعلمه إلا نبي . قالاه : ويحك يا عداس ! لا بصرفنك عن دينك ، فإن دينك خير من دينه !

« قال : ثم إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - انصرف من الطائف راجعاً إلى مكة ، حين يش من خير ثقيف ، حتى إذا كان بنخلة قام من جوف الليل يصلي . فر به نفر من الجن الذين ذكرهم الله تبارك وتعالى ، وهم - فيما ذكر لي - سبعة نفر من جن أهل نصيبين ، فاستمعوا له ، فلما فرغ من صلاته ولوا إلى قومههم منذرين ، قد آمنوا وأجابوا إلى ما سمعوا . فقصص الله خبرهم عليه - صلى الله عليه وسلم - قال الله عز وجل : « وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن » إلى قوله : « ويجركم من عذاب أليم » . وقال تبارك وتعالى :



« قل أوحى إلي أنه استمع نفر من الجن » إلى آخر القصة من خبرهم في هذه السورة .

وقد علق ابن كثير في تفسيره على رواية ابن إسحاق هذه فقال : « هذا صحيح . ولكن قوله : إن الجن كان استماعهم تلك الليلة فيه نظر . فإن الجن كان استماعهم في ابتداء الإحياء كما دل عليه حديث ابن عباس - رضي الله عنهما - المذكور . وخروجه - صلى الله عليه وسلم - إلى الطائف كان بعد موت عمه . وذلك قبل الهجرة بسنة أو سنتين كما قرره ابن إسحاق وغيره . والله أعلم . »

وإذا صحت رواية ابن إسحاق عن أن الحادث وقع عقب عودة الرسول - صلى الله عليه وسلم - من الطائف ، مكسور الخاطر من التصرف اللثيم العنيد الذي واجهه به كبراء قثيف ، وبعد ذلك الدعاء الكسير الودود لربه ومولاه ، فإنه ليكون عجباً حقاً من هذا الجانب . أن يصرف الله إليه ذلك النفر من الجن ، وأن يبلغه ما فعلوا وما قالوا لقومهم ، وفيه من الدلالات اللطيفة المحيية ما فيه ..

وأياً كان زمان هذا الحادث وملاساته فهو أمر ولا شك عظيم . عظم في دلالاته وفيما انطوى عليه . وفيما أعقبه من مقالة الجن عن هذا القرآن وعن هذا الدين .. فلتنمض مع هذا كله كما يعرضه القرآن الكريم .

\* \* \*

« قل : أوحى إلي أنه استمع نفر من الجن فقالوا : إنا سمعنا قرآنًا عجيباً يهدي إلى الرشd فأما به ، ولن نشرك بربنا أحداً ، وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولداً ، وأنه كان يقول سفيهاً على الله شططاً ، وأنا ظننا أن لن نقول الإنس والجن على الله كذباً . وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً . وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحداً » ..

والنفر ما بين الثلاثة والتسعة كالرهط . وقيل كانوا سبعة .

وهذا الافتتاح يدل على أن معرفة النبي - صلى الله عليه وسلم - بأمر استماع الجن له ، وما كان منهم بعد أن سمعوا القرآن منه .. كانت بوحى من الله سبحانه إليه ، وإخباراً عن أمر وقع ولم يعلم به الرسول - صلى الله عليه وسلم - ولكن الله أطلعه عليه . وقد تكون هذه هي المرة الأولى ، ثم كانت هناك مرة أو مرات أخرى قرأ النبي فيها على الجن عن علم وقصد . ويشهد بهذا ما جاء بشأن قراءته - صلى الله عليه وسلم - سورة الرحمن « أخرجه الترمذي بإسناده - عن جابر رضي الله عنه قال : « خرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على أصحابه فقرأ عليهم سورة الرحمن إلى آخرها ، فسكتوا . فقال : « لقد قرأها على الجن فكانوا أحسن ردوداً منكم . كنت كلما أتيت على قوله تعالى : « فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ » قالوا : لا بشيء من نعمك ربنا نكذب ، فلك الحمد » .. وهذه الرواية تؤيد رواية ابن مسعود - رضي الله عنه التي سبقت الإشارة إليها في المقدمة .

ولا بد أن هذه المرة التي تحكيها هذه السورة هي التي تحكيها آيات الأحقاف : « وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن . فلما حضروه قالوا : أنصتوا . فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين . قالوا : يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى ، مصدقاً لما بين يديه ، يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم . يا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويحرمكم من عذاب أليم . ومن لا ينجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض وليس له من دونه أولياء ، أولئك في ضلال مبين » ..

فإن هذه الآيات - كالسورة - تنبئ عن وهلة المفاجأة بهذا القرآن للجن ، مفاجأة أطارت تماسكهم ، وزلزلت قلوبهم ، وهزت مشاعرهم ، وأطلقت في كيانهم دفعة عنيفة من التأثر امتلاً بها كيانهم كله وقاض ، فانطلقوا إلى قومهم بنفوس محتشة ملوءة فائضة بما لا تملك له دفعاً ، ولا تملك عليه صبراً ، قبل أن تفيض على الآخرين

في هذا الأسلوب المتدفق ، النابض بالحرارة والانفعال ، وبالجد والاحتفال في نفس الأوان ، وهي حالة من يفاعاً أول مرة بدفعة قوية ترج كيانه ، وتخلخل تماسكه ، وتدفعه دفعاً إلى نقل ما يحسه إلى نفوس الآخرين في حماسة واندفاع ، وفي جد كذلك واحتفال !

« إنا سمعنا قرآناً عجاً » ..

فأول ما بداهم منه أنه « عجب » غير مألوف ، وأنه يثير الدهش في القلوب ، وهذه صفة القرآن عند من يتلقاه بحس واع وقلب مفتوح ، ومشاعر مرهفة ، وذوق ذواق .. عجب ! ذو سلطان متسلط ، وذو جاذبية غلابة ، وذو إيقاع يلمس المشاعر ويهز أوتار القلوب .. عجب ! فعلاً . يدل على أن أولئك النفر من الجن كانوا حقيقة يتدقون !

« يهدي إلى الرشd » ..

وهذه هي الصفة الثانية البارزة كذلك في هذا القرآن ، والتي أحسها النفر من الجن ، حين وجدوا حقيقتها في قلوبهم .. وكلمة الرشd في ذاتها ذات دلالة واسعة المدى . فهو يهدي إلى الهدى والحق والصواب . ولكن كلمة الرشd تلقي ظللاً آخر وراء هذا كله . ظل النضوج والاستواء والمعرفة الرشيدة للهدى والحق والصواب . ظل الإدراك الذاتي البصير لهذه الحقائق والمقومات ، فهو ينشئ حالة ذاتية في النفس تهتدي بها إلى الخير والصواب . والقرآن يهدي إلى الرشd بما ينشئه في القلب من تفتح وحساسية ، وإدراك ومعرفة ، واتصال بمصدر النور والهدى ، واتساق مع النواميس الإيفية الكبرى . كما يهدي إلى الرشd بمنهج التنظيمي للحياة وتصريفها . هذا المنهج الذي لم تبلغ البشرية في تاريخها كله ، في ظل حضارة من الحضارات ، أو نظام من الأنظمة ، ما بلغته في ظلّه أفراداً وجماعات ، قلوباً ومجتمعات ، أخلاقاً فردية ومعاملات اجتماعية .. على السواء .

« فأما به » ..

وهي الاستجابة الطبيعية المستقيمة لسامع القرآن ، وإدراك طبيعته ، والتأثر بحقيقته .. يعرضها الوحي على المشركين الذين كانوا يسمعون هذا القرآن ثم لا يؤمنون . وفي الوقت ذاته ينسبونه إلى الجن ، فيقولون : كاهن أو شاعر أو مجنون .. وكلها صفات للجن فيها تأثير . وهؤلاء هم الجن مبهورين بالقرآن مسحورين متأثرين أشد التأثر ، منفعلين أشد الانفعال ، لا يملكون أنفسهم من الهزة التي ترج كيانهم رجاً .. ثم يعرفون الحق ، فيستجيون له مدعئين معلّنين هذا الإذعان : « فأما به » غير منكرين لما مس نفوسهم منه ولا معاندين ، كما كان المشركون يفعلون !

« ولن نشرك ربنا أحداً » ..

فهو الإيمان الخالص الصريح الصحيح . غير مشوب بشرك ، ولا ملتبس بوهم ، ولا ممتزج بخرافة ، الإيمان الذي ينبعث من إدراك حقيقة القرآن ، والحقيقة التي يدعو إليها القرآن ، حقيقة التوحيد لله بلا شريك .

« وأنه تعالى جد ربنا ، ما اتخذ صاحبة ولا ولداً » ..

والجد : الحظ والصيب . وهو القدر والمقام . وهو العظمة والسلطان .. وكلها إشاعات من اللفظ تناسب المقام . والمعنى الإجمالي منها في الآية هو التعبير عن الشعور باستعلاء الله – سبحانه – وبعظمته وجلاله عن أن يتخذ صاحبة – أي زوجة – وولداً بنين أو بنات !

وكانت العرب تزعم أن الملائكة بنات الله ، جاءته من صهر مع الجن ! فجاءت الجن تكذب هذه الخرافة

الأسطورية في تسبيح الله وتنزيهه ، واستنكاف من هذا التصور أن يكون ! وكانت الجن حرية أن تفخر بهذا الصهر الخرافي الأسطوري لو كان يشبه أن يكون ! فهي قذيفة ضخمة تطلق على ذلك الزعم الواهي في تصورات المشركين ! وكل تصور يشبه هذه التصورات ، بمن زعموا أن الله ولدا سبحانه في أية صورة وفي أي تصوير ! « وأنه كان يقول سفهنا على الله شططاً ، وأنا ظننا أن لن نقول الإنس والجن على الله كذباً » ..

وهذه مراجعة من الجن لما كانوا يسمعون من سفهاتهم من الشرك بالله ، وادعاء الصاحبة والولد والشريك ، بعدما تبين لهم من سماع القرآن أنه لم يكن حقاً ولا صواباً ، وأن قائله إذن سفهاء فيهم خرق وجهل ، وهم يعللون تصديقهم هؤلاء السفهاء من قبل بأنهم كانوا لا يتصورون أن أحداً يمكن أن يكذب على الله من الإنس أو الجن . فهم يستعظمون ويستولون أن يجرؤ أحد على الكذب على الله . فلما قال لهم سفهائهم : إن الله صاحبة وولداً ، وإن له شريكاً صدقوهم ، لأنهم لم يتصوروا أنهم يكذبون على الله أبداً . وهذا الشعور من هؤلاء النفر بنكارة الكذب على الله ، هو الذي أهلهم للإيمان . فهو دلالة على أن قلوبهم نظيفة مستقيمة : إنما جاءها الضلال من الفرارة والبراءة ! فلما مسها الحق انتفضت ، وأدركت ، وتذوقت وعرفت . وكان منهم هذا الهتاف المدوي : « إنا سمعنا قرئناً عجيباً يهدي إلى الرشد فآمنا به ، ولن نشرك بربنا أحداً . وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولداً » ..

وهذه الانتفاضة من مس الحق ، جديرة بأن تنبه قلوباً كثيرة مخلوعة في كبراء قريش ، وزعمهم أن الله شركاء أو صاحبة وولداً . وأن تثير في هذه القلوب الحذر واليقظة ، والبحث عن الحقيقة فيما يقوله محمد - صلى الله عليه وسلم - وما يقوله كبراء قريش ، وأن تزلزل الثقة العمياء في مقالات السفهاء من الكبراء ! وقد كان هذا كله مقصوداً بذكر هذه الحقيقة . وكان جولة من المعركة الطويلة بين القرآن وبين قريش العصية المعاندة ؛ وحلقة من حلقات العلاج البطيء لعقائيل الجاهلية وتصوراتها في تلك القلوب . التي كان الكثير منها غراً بريئاً ، ولكنه مضلل مقود بالوهم والخرافة وأضاليل المضللين من القادة الجاهليين !

« وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً » ..

وهذه إشارة من الجن إلى ما كان متعارفاً في الجاهلية - وما يزال متعارفاً إلى اليوم في بيئات كثيرة - من أن للجن سلطاناً على الأرض وعلى الناس ، وأن لهم قدرة على النفع والضرر ، وأنهم محكمون في مناطق من الأرض أو البحر أو الجو . . إلى آخر هذه التصورات . مما كان يقتضي التقوم إذا باتوا في فلاة أو مكان موحش ، أن يستعينوا بسيد الوادي من سفهاء قومه ، ثم يبيتون بعد ذلك آمنين !

والشيطان مسلط على قلوب بني آدم - إلا من اعتصم بالله فهو في نجوة منه - وأما من يركن إليه فهو لا ينفعه . فهو له عدو . إنما يرهقه ويؤذيه . . وهؤلاء النفر من الجن يحكون ما كان يحدث : « وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً » .. ولعل هذا الرهق هو الضلال والقلق والحيرة التي تنوش قلوب من يركنون إلى عدوهم ، ولا يعتصمون بالله منه ويستعينون ! كما هم مأمورون منذ أبيهم آدم وما كان بينه وبين إبليس من العداة القديم !

والقلب البشري حين يلجأ إلى غير الله ، طمعاً في نفع ، أو دفعاً لضرر ، لا يناله إلا القلق والحيرة ، وقلة الاستقرار والطمأنينة . . وهذا هو الرهق في أسوأ صوره . . الرهق الذي لا يشعر معه القلب بأمن ولا راحة ! إن كل شيء - سوى الله - وكل أحد ، متقلب غير ثابت ، ذاهب غير دائم ، فإذا تعلق به قلب بقي يتأرجح ويتقلب ويتوقع ويتوجس : وعاد يغير اتجاهه كلما ذهب هذا الذي عقد به رجاءه . والله وحده هو

الباقى الذي لا يزول . الحي الذي لا يموت . الدائم الذي لا يتغير . فن اتجه إليه اتجه الى المستقر الثابت الذي لا يزول ولا يحول :

« وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحداً » .

يتحدثون إلى قومهم ، عن أولئك الرجال من الإنس الذين كانوا يعوذون برجال من الجن ، يقولون : إنهم كانوا يظنون - كما أنكم تظنون - أن الله لن يبعث رسولا . ولكن ها هو ذا قد بعث رسولا ، بهذا القرآن الذي يهدي إلى الرشـد . . أو أنهم ظنوا أنه لن يكون هناك بعث ولا حساب - كما ظننتم - فلم يعملوا للآخرة شيئا ، وكذبوا ما وعدهم الرسول - صلى الله عليه وسلم - من أمرها ، لأنهم كانوا لا يعتقدون من قبل فيها .

وكلا الظنين لا ينطبق على الحقيقة ، وفيه جهل وقلة إدراك لحكمة الله في خلق البشر . فقد خلقهم باستعداد مزدوج للخير والشر والهدى والضلال ( كما نعرف من هذه السورة أن للجن هذه الطبيعة المزدوجة كذلك إلا من تمحض منهم للشر كإبليس ، وطرد من رحمة الله بمعصيته الفاجرة ، وانتهى إلى الشر الخالص بلا ازدواج ) ومن ثم اقتضت رحمة الله أن يعين أولئك البشر بالرسـل ، يستجيشون في نفوسهم عنصر الخير ، ويستنفذون ما في فطرتهم من استعداد للهدى . فلا مجال للاعتقاد بأنه لن يبعث إليهم أحداً .

هذا إذا كان المعنى هو بعث الرسل . فأما بعث الآخرة فهو ضرورة كذلك هذه النشأة التي لا تستكمل حسابا في الحياة الدنيا ، لحكمة أرادها الله ، وتتعلق بتنسيق الوجود يعلمه ولا نعلمه ، فجعل البعث في الآخرة لتسوفي الخلائق حسابا ، وتنتهي إلى ما تؤهلها له سيرتها الأولى في الحياة الدنيا . فلا مجال للظن بأنه لن يبعث أحداً من الناس . فهذا الظن مخالف للاعتقاد في حكمة الله وكماله . سبحانه وتعالى .

وهؤلاء النفر من الجن يصححون لقومهم ظنهم ، والقرآن في حكايته عنهم يصحح للمشركين أوهامهم .

• • •

ومضي الجن في حكاية ما لقوه وما عرفوه من شأن هذه الرسالة في جنبات الكون ، وفي أرجاء الوجود ، وفي أحوال السماء والأرض ، لينفضوا أيديهم من كل محاولة لا تتفق مع إرادة الله بهذه الرسالة ، ومن كل ادعاء بمعرفة الغيب ، ومن كل قدرة على شيء من هذا الأمر :

« وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهاباً . وأنا كنا نعد منها مقاعد للسمع فن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً . وأنا لا ندرى أشـر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشداً ؟ » .

وهذه الوقائع التي حكاها القرآن عن الجن من قوهم ، توجي بأنهم قبل هذه الرسالة الأخيرة - ربما في الفترة بينها وبين الرسالة التي قبلها وهي رسالة عيسى عليه السلام - كانوا يحاولون الاتصال بالملأ الأعلى ، واستراق شيء مما يدور فيه ، بين الملائكة ، عن شؤون الخلائق في الأرض ، مما يكلفون قضاء تنفيذاً لمشيئة الله وقدره . ثم يوحون بما التقطوه لأوليائهم من الكهان والعرافين ، ليقوم هؤلاء بفتنة الناس وفق خطة إبليس ! على أيدي هؤلاء الكهان والعرافين الذين يستغلون القليل من الحق فيميزجونه بالكثير من الباطل ، ويروجونه بين جماهير الناس في الفترة بين الرسالتين ، وخلو الأرض من رسول . . أما كيفية هذا وصورته فلم يقل لنا عنها شيئاً ، ولا ضرورة لتقصيها . إنما هي جملة هذه الحقيقة وفحواها .

وهذا النفر من الجن يقول : إن استرا ، السمع لم يعد ممكناً ، وإنهم حين حاولوه الآن - وهو ما يعبرون

عنه بلمس السماء - وجدلوا الطريق إليه محروساً بحرس شديد ، يرميهم بالشهب ، فتنقض عليهم وتقتل من توجه إليه منهم . ويعلمون أنهم لا يدرون شيئاً عن الغيب المقدر للبشر : « وأنا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشداً » . . فهذا الغيب موكول لعلم الله لا يعلمه سواه . فأما نحن فلا نعلم ماذا قدر الله لعباده في الأرض : قدر أن ينزل بهم الشر . فهم متروكون للضلال ، أم قدر لهم الرشداً - وهو الهداية - وقد جعلوها مقابلة للشر . فهي الخير ، وعاقبتها هي الخير .

وإذا كان المصدر الذي يزعم الكهان أنهم يستقون منه معلوماتهم عن الغيب ، يقرر أنه هو لا يدري عن ذلك شيئاً ، فقد انقطع كل قول ، وبطل كل زعم ، وانتهى أمر الكهانة والعرافة . وتحمض الغيب لله ، لا يجترئ أحد على القول بمعرفته ، ولا على التنبؤ به . وأعلن القرآن تحرير العقل البشري من كل وهم وكل زعم من هذا القبيل ! وأعلن رشداً البشرية منذ ذلك اليوم وتحررها من الخرافات والأساطير !

أما أين يقف ذلك الحرس ؟ ومن هو ؟ وكيف يرمي الشياطين بالشهب ؟ فهذا كله مما لم يقل لنا عنه القرآن ولا الأثر شيئاً ، وليس لنا مصدر سواهما نستقي منه عن هذا الغيب شيئاً ؛ ولو علم الله أن في تفصيله خيراً لنا لفعل . وإذا لم يفعل فحاولنا نحن في هذا الاتجاه عبثاً ؛ لا يضيف إلى حياتنا ولا إلى معرفتنا المشعة شيئاً !

ولا مجال كذلك للاعتراض أو الجدل حول الشهب ، وأنها تسير وفق نظام كوني ، قبل البعثة وبعدها ووفق ناموس يحاول علماء الفلك تفسيره ، بنظريات تخطئ وتصيب . وحتى على فرض صحة هذه النظريات فإن هذا لا يدخل في موضوعنا ، ولا يمنع أن ترجم الشياطين بهذه الشهب عند انطلاقها . وأن تنطلق هذه الشهب رجوماً وغير رجوم وفق مشيئة الله الذي يجري عليها القانون !

فأما الذين يرون في هذا كله مجرد تمثيل وتصوير لحفظ الله للذكر من الالتباس بأي باطل ، وأنه لا يجوز أن يؤخذ على ظاهره . . فسبب هذا عندهم أنهم يحيثون إلى القرآن بتصورات مقررة سابقة في أذهانهم ، أخذوها من مصادر أخرى غير القرآن . ثم يحاولون أن يفسروا القرآن وفق تلك التصورات السابقة المقررة في أذهانهم من قبل . . ومن ثم يرون الملائكة تمثيلاً لقوة الخير والطاعة . والشياطين تمثيلاً لقوة الشر والمعصية . والرجوم تمثيلاً للحفظ والصيانة . . الخ لأن في مقرراتهم السابقة - قبل أن يواجهوا القرآن - أن هذه المسميات : الملائكة والشياطين أو الجن ، لا يمكن أن يكون لها وجود مجسم على هذا النحو ، وأن تكون لها هذه التحركات الحسية ، والتأثيرات الواقعية !! !

من أين جاءوا بهذا ؟ من أين جاءوا بهذه المقررات التي يحاكمون إليها نصوص القرآن والحديث ؟ إن الطريق الأمثل في فهم القرآن وتفسيره ، وفي التصور الإسلامي وتكوينه . . أن ينفص الإنسان من ذهنه كل تصور سابق ، وأن يواجه القرآن بغير مقررات تصورية أو عقلية أو شعورية سابقة ، وأن يبني مقرراته كلها حسناً بصور القرآن والحديث حقائق هذا الوجود . ومن ثم لا يحاكم القرآن والحديث لغير القرآن . ولا ينفي شيئاً يشبه القرآن ولا يؤوله ! ولا يثبت شيئاً ينفيه القرآن أو يبطله . وما عدا المثبت والمنفي في القرآن ، فله أن يقول فيه ما يهديه إليه عقله وتجربته . .

نقول هذا بطبيعة الحال للمؤمنين بالقرآن . . . وهم مع ذلك يؤولون نصوصه هذه لتوائم مقررات سابقة في

عقولهم ، وتصورات سابقة في أذهانهم لما ينبغي أن تكون عليه حقائق الوجود<sup>١</sup> ..

فأما الذين لا يؤمنون بهذا القرآن ، ويعتسفون نفي هذه التصورات لمجرد أن العلم لم يصل إلى شيء منها ، فهم مضحكون حقاً ! فالعلم لا يعلم أسرار الموجودات الظاهرة بين يديه ، والتي يستخدمها في تجاربه . وهذا لا ينبغي وجودها طبعاً ! فضلاً على أن العلماء الحقيقيين أخذت كثرة منهم تؤمن بالمجهول على طريق المتدينين ، أو على الأقل لا ينكرون ما لا يعلمون ! لأنهم بالتجربة وجدوا أنفسهم - عن طريقة العلم ذاته - أمام مجاهيل فيما بين أيديهم مما كانوا يحسبون أنهم فرغوا من الإحاطة بعلمه ! فتواضعوا تواضعاً علمياً نبيلاً ليست عليه سمة الادعاء ، ولا طابع التناول على المجهول ، كما يتناول مدعو العلم ومدعو التفكير العلمي ، ممن ينكرون حقائق الديانات ، وحقائق المجهول !

إن الكون من حولنا حافل بالأسرار ، عامر بالأرواح ، حاشد بالقوى . وهذه السورة من القرآن - كغيرها - تمنحنا جوانب من الحقائق في هذا الوجود ، تعين على بناء تصور حقيقي صحيح للوجود وما فيه من قوى وأرواح وحيوات تعج من حولنا ، وتتفاعل مع حياتنا وذواتنا . وهذا التصور هو الذي يميز المسلم ويقف به وسطاً بين الوهم والخرافة ، وبين الادعاء والتناول . ومصدره هو القرآن والسنة . وإليهما يحاكم المسلم كل تصور آخر وكل قول وكل تفسير ..

وإن هنالك مجالاً للعقل البشري معيناً في ارتداد آفاق المجهول : والإسلام يدفعه إلى هذا دفعاً .. ولكن وراء هذا المجال المعين ما لا قدرة لهذا العقل على ارتياده ، لأنه لا حاجة به إلى ارتياده . وما لا حاجة له به في خلافة الأرض فلا مجال له إليه ، ولا حكمة في إعانته عليه . لأنه ليس من شأنه ، ولا داخلها في حدود اختصاصه . والقدر الضروري له منه ليعلم مركزه في الكون بالقياس إلى ما حوله ومن حوله ، قد تكفل الله سبحانه ببيانه له ، لأنه أكبر من طاقته . وبالقدر الذي يدخل في طاقته . ومنه هذا الغيب الخاص باللائكة والشياطين والروح والمنشأ والمصير ..

فأما الذين اهتموا بهدى الله ، فقد وقفوا في هذه الأمور عند القدر الذي كشفه الله لهم في كتبه وعلى لسان رسله . وأفادوا منه الشعور بعظمة الخالق ، وحكمته في الخلق ، والشعور بموقف الإنسان في الأرض من هذه العوالم والأرواح . وشغلوا طاقاتهم العقلية في الكشف والعلم المهياً للعقل في حدود هذه الأرض وما حولها من أجرام بالقدر الممكن لهم . واستغلوا ما علموه في العمل والإنتاج وعمران هذه الأرض والقيام بالخلافة فيها ، على هدى من الله ، متجهين إليه ، مرتفعين إلى حيث يدعوهم للارتفاع .

وأما الذين لم يهتدوا بهدى الله فانقسموا فرقتين كبيرتين :

فرقة ظلت مجاهد بعقولها المحدودة لإدراك غير المحلود من ذاته تعالى ، والمعرفة الحقيقية المغيبة عن غير طريق الكتب المتزلة . وكان منهم فلاسفة حاولوا تفسير هذا الوجود وارتباطاته ، فظفروا بتعثرات كالأطفال الذين يصعدون جبلاً شاهقاً لا غاية لقمته ، أو يحاولون حل لغز الوجود وهم لم يتقنوا بعد أبجدية الهجاء ! وكانت لهم تصورات مضحكة - وهم كبار فلاسفة - مضحكة حقاً حين يقرنها الإنسان إلى التصور الواضح المستقيم الجميل الذي ينشئه القرآن . مضحكة بعثراتها . ومضحكة بمفارقاتها . ومضحكة بتخلخلها . ومضحكة بقزامها

(١) وما أبرئ نفسي أنني فيما سبق من مؤلفاتي وفي الأجزاء الأولى من هذه الظلال قد انسقت إلى شيء من هذا .. وأرجو أن أندرکه في الطبعة التالية إذا وفق الله .. وما أقرره هنا هو ما أعفده الحق بهداية من الله .

بالمقاييس إلى عظمة الوجود الذي يفسرونه بها .. لا أستفي من هذا فلاسفة الإغريق الكبار ، ولا فلاسفة المسلمين الذين قلدوهم في منهج التفكير . ولا فلاسفة العصر الحديث ! وذلك حين يقاس تصورهم إلى التصور الإسلامي للوجود<sup>١</sup> .

فهذه فرقة . فأما الفرقة الأخرى ، فقد يشت من جدوى هذا الاتجاه في المعرفة . فعدلت عنه إلى حصر نفسها وجهدها في العلم التجريبي والتطبيقي . ضاربة صفحاً عن المجهول ، الذي ليس إليه من سبيل . وغير مهتدية فيه بهدى الله . لأنها لا تستطيع أن تدرك الله ! وهذه الفرقة كانت في أوج غلوها خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . ولكنها أخذت منذ مطلع هذا القرن تفتق من الغرور العلمي الجامح ، على هروب المادة من بين أيديها وتحويلها إلى إشعاع « مجهول الكنه » ويكاد يكون مجهول القانون !

وبقي الإسلام ثابتاً على صخرة اليقين . يمنح البشر من المجهول القدر الذي لهم فيه خير . ويوفر طاقهم العقلية للعمل في خلافة الأرض . ويبني لعقولهم المجال الذي تعمل فيه في أمن . ويهديهم للتي هي أقوم في المجهول وغير المجهول !

\* \* \*

بعد ذلك أخذ الجن يصفون حالهم وموقفهم من هدى الله ؛ بما نفهم منه أن لهم طبيعة مزدوجة كطبيعة الإنسان في الاستعداد للهدى والضلال . ويحدثنا هذا النفر عن عقيدتهم في ربهم وقد آمنوا به . وعن ظنهم بعاقبة من يعتدي ومن يضل :

« وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك ، كنا طرائق قدداً . وأنا ظننا أن لن نعجز الله في الأرض ولن نعجزه هرباً . وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به ، فن يؤمن بربه فلا يخاف بخساً ولا رهقاً . وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون : فن أسلم فأولئك تحروا رشداً . وأما القاسطون فكانوا لجهنم خطباً » ..

وهذا التقرير من الجن بأن منهم صالحين وغير صالحين ، مسلمين وقاسطين ، يفيد ازدواج طبيعة الجن ، واستعدادهم للخير والشر كالإنسان – إلا من تمحض للشر منهم وهو إبليس وقبيله – وهو تقرير ذو أهمية بالغة في تصحيح تصورنا العام عن هذا الخلق . فأغلبنا حتى الدارسين الفاقهين – على اعتقاد أن الجن يمثلون الشر ، وقد خلصت طبيعتهم له . وأن الإنسان وحده بين الخلائق هو ذو الطبيعة المزدوجة . وهذا ناشئ من مقررات سابقة في تصوراتنا عن حقائق هذا الوجود كما أسلفنا . وقد آن أن نراجعها على مقررات القرآن الصحيحة !

وهذا النفر من الجن يقول : « وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك » .. ويصف حالهم بصفة عامة : « كنا طرائق قدداً » .. أي لكل منا طريقته المنفصلة المقدودة المنقطعة عن طريقة الفريق الآخر .

ثم بين النفر معتقدهم الخاص بعد إيمانهم :

« وأنا ظننا أن لن نعجز الله في الأرض ، ولن نعجزه هرباً » ..

فهم يعرفون قدرة الله عليهم في الأرض ، ويعرفون عجزهم عن الهرب من سلطانه – سبحانه – والإفلات من قبضته ، والفكاك من قدره . فلا هم يعجزون الله وهم في الأرض ، ولا هم يعجزونه بالهرب منها . وهو ضعف العبد أمام الرب ، وضعف المخلوق أمام الخالق . والشعور بسلطان الله القاهر الغالب .

(١) فكرة الإسلام عن الكون والحياة والإنسان .. بحث يرجو المؤلف أن يوفق إلى إخراجه بعون الله .

وهؤلاء الجن هم الذين يعوذ بهم رجال من الإنس ! وهم الذين يستعين بهم الإنس في الحوائج ! وهم الذين جعل المشركون بين الله - سبحانه - وبينهم نسباً ! وهؤلاء هم يعترفون بعجزهم وقدرته الله . وضعفهم وقوة الله ، وانكسارهم وقهر الله ، فيصححون ، لا قومهم فحسب بل للمشركين كذلك ، حقيقة القوة الواحدة الغالبة على هذا الكون ومن فيه .

ثم يصفون حالهم عندما سمعوا الهدى ، وقد قرروه من قبل ، ولكنهم يكررونه هنا بمناسبة الحديث عن فرقهم وطوائفهم تجاه الإيمان :

« وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به .. »

كما ينبغي لكل من يسمع الهدى . وهم سمعوا القرآن . ولكنهم يسمونه هدى كما هي حقيقته ونتيجته . ثم يقررون ثقتهم في ربهم ، وهي ثقة المؤمن في مولاه :

« فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخساً ولا رهقاً .. »

وهي ثقة الطمئن إلى عدل الله ، وإلى قدرته ، ثم إلى طبيعة الإيمان وحقيقته .. فالله - سبحانه - عادل . ولن يخس المؤمن حقه ، ولن يرهقه بما فوق طاقته . والله - سبحانه - قادر . فسيحمي عبده المؤمن من البخس وهو نقص الاستحقاق إطلاقاً ، ومن الرهق وهو الجهد والمشقة فوق الطاقة . ومن ذا الذي يملك أن يخس المؤمن أو يرهقه وهو في حماية الله ورعايته ؟ ولقد يقع للمؤمن حرمان من بعض أعراض هذه الحياة الدنيا ؛ ولكن هذا ليس هو البخس ، فالعوض عما يحرمه منها يمنع عنه البخس . وقد يصيبه الأذى من قوى الأرض ؛ لكن هذا ليس هو الرهق ، لأن ربه يدركه بطاقة تحتل الألم وتفيد منه وتكبر به ! وصلته بربه تهون عليه المشقة فتحمضها لخيره في الدنيا والآخرة .

المؤمن إذن في أمان نفسي من البخس ومن الرهق : « فلا يخاف بخساً ولا رهقاً .. » وهذا الأمان يولد الطمأنينة والراحة طوال فترة العافية ، فلا يعيش في قلق وتوجس . حتى إذا كانت الضراء لم يلهع ولم يزعج ، ولم تغلق على نفسه المنافذ .. إنما يعد الضراء ابتلاء من ربه يصبر له فيؤجر . ويرجو فرج الله منها فيؤجر . وهو في الحالين لم يخف بخساً ولا رهقاً . ولم يكابد بخساً ولا رهقاً .

وصدق النفر المؤمن من الجن في تصوير هذه الحقيقة المنيرة .

ثم يقررون تصورهم لحقيقة الهدى والضلال ، والجزاء على الهدى والضلال :

« وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون . فمن أسلم فأولئك تحروا رشداً . وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباءً .. »  
والقاسطون : الجائرون المجانيون للعدل والصلاح . وقد جعلهم هذا النفر من الجن فريقاً يقابل المسلمين . وفي هذا إيماة لطيفة بليغة المدلول . فالسلم عادل مصلح ، يقابله القاسط : الجائر المفسد ..

« فمن أسلم فأولئك تحروا رشداً .. » والتعبير بلفظ « تحروا » يوحي بأن الاهتداء إلى الإسلام معناه الدقة في طلب الرشd والاهتداء - ضد النفي والضلال - ومعناه تحري الصواب واختياره عن معرفة وقصد بعد تبيين ووضوح . وليس هو خبط عشواء ولا انسياقاً بغير إدراك . ومعناه أنهم وصلوا فعلاً إلى الصواب حين اختاروا الإسلام .. وهو معنى دقيق وجميل ..

« وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباءً » أي تقرر أمرهم وانتهى إلى أن يكونوا حطباءً لجهنم ، تنلظي بهم وترداد اشتعلاً ، كما تنلظي النار بالحطب ..



ودل هذا على أن الجن يعذبون بالنار . ومفهومه أنهم كذلك ينعمون بالجنة .. هكذا يوحى النص القرآني . وهو الذي نستمد منه تصورنا . فليس لقاتل بعد هذا أن يقول شيئاً يستند فيه إلى تصور غير قرآني ، عن طبيعة الجن وطبيعة النار أو طبيعة الجنة .. فيكون ما قاله الله حقاً بلا جدال ! وما ينطبق على الجن مما يبنوه لقومهم ، ينطبق على الإنس وقد قاله لهم الوحي بلسان نبيهم ..

• • •

وإلى هنا كان الوحي يحكي قول الجن بألفاظهم المباشرة عن أنفسهم ؛ ثم عدل عن هذا النسق إلى تلخيص مقالة لهم عن فعل الله مع الذين يستقيمون على الطريقة إليه ، وذكرها بفحواها لا بألفاظها : « وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقاً لفتنهم فيه ، ومن يُعرض عن ذكر ربه يسلكه عذاباً صعداً » ..

يقول الله - سبحانه - إنه كان من مقالة الجن عنا : ما فحواه أن الناس لو استقاموا على الطريقة ، أو أن القاسطين لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم نحن ماء موفوراً تغدقه عليهم ، فيفيض عليهم بالرزق والرخاء .. « لفتنهم فيه » .. ونبتليهم أيشكرون أم يكفرون .

وهذا العدول عن حكاية قول الجن إلى ذكر فحوى قولهم في هذه النقطة ، يزيد مدلولها تأكيداً بنسبة الإخبار فيها والوعد إلى الله سبحانه . ومثل هذه اللفظات كثير في الأسلوب القرآني ، لإحياء المعاني وتقويتها وزيادة الانتباه إليها .

وهذه اللفظة تحتوي جملة حقائق ، تدخل في تكوين عقيدة المؤمن ، وتصوره عن مجريات الأمور وارتباطاتها . والحقيقة الأولى : هي الارتباط بين استقامة الأمم والجماعات على الطريقة الواحدة الواصلة إلى الله ، وبين إغداق الرخاء وأسبابه ؛ وأول أسبابه توافر الماء وابدواقه . وما تزال الحياة تجري على خطوات الماء في كل بقعة . وما يزال الرخاء يتبع هذه الخطوات المباركة حتى هذا العصر الذي انتشرت فيه الصناعة ، ولم تعد الزراعة هي المصدر الوحيد للرزق والرخاء . ولكن الماء هو الماء في أهميته العمرانية ..

وهذا الارتباط بين الاستقامة على الطريقة وبين الرخاء والتمكين في الأرض حقيقة قائمة . وقد كان العرب في جوف الصحراء يعيشون في شظف ، حتى استقاموا على الطريقة ، ففتحت لهم الأرض التي يغدودق فيها الماء ، وتتدفق فيها الأرزاق . ثم حادوا عن الطريقة فاستلبت منهم خيراتهم استلاباً . وما يزالون في نكد وشظف ، حتى يفيثوا إلى الطريقة ، فيتحقق فيهم وعد الله .

وإذا كانت هناك أمة لا تستقيم على طريقة الله ، ثم تنال الوفرة والغنى ، فإنها تعذب بأفات أخرى في إنسانيتها أو أمنها أو قيمة الإنسان وكرامته فيها ، تسلب عن ذلك الغنى والوفرة معنى الرخاء . وتحيل الحياة فيها لعنة مشؤومة على إنسانية الإنسان وخلقه وكرامته وأمنه وطمأنينته ( كما سبق بيانه في سورة نوح ) ..

والحقيقة الثانية التي تنبثق من نص هذه الآية : هي ان الرخاء ابتلاء من الله للعباد وفتنة . ونبلوكم بالشر والخير فتنة . والصبر على الرخاء والقيام بواجب الشكر عليه والإحسان فيه أشق وأندر من الصبر على الشدة ! على عكس ما يلوح للنظرة العجلى .. فكثيرون هم الذين يصبرون على الشدة ويتماسكون لها ، بحكم ما تثيره في النفس من تجمع وبقطة ومقاومة ؛ ومن ذكر لله والتجاء إليه واستعانة به ، حين تسقط الأسناد في الشدة فلا يبقى إلا ستره . فأما الرخاء فينسي ويلهي ، ويرخي الأعضاء وينم عناصر المقاومة في النفس ، ويبغى الفرصة

للغرور بالنعمة والاستئانة للشيطان !

إن الابتلاء بالنعمة في حاجة ملحة إلى بقطة دائمة تعصم من الفتنة .. نعمة المال والرزق كثيراً ما تقود إلى فتنة البطر وقلة الشكر ، مع السرف أو مع البخل ، وكلاهما آفة للنفس والحياة ... ونعمة القوة كثيراً ما تقود إلى فتنة البطر وقلة الشكر مع الطغيان والجور ، والتطاول بالقوة على الحق وعلى الناس ، والتهجم على حرمان الله .. ونعمة الجمال كثيراً ما تقود إلى فتنة الخيلاء والتيه وتردى في مدارك الإثم والغواية .. ونعمة الذكاء كثيراً ما تقود إلى فتنة الغرور والاستخفاف بالآخرين وبالقيم والموازين .. وما تكاد تخلو نعمة من الفتنة إلا من ذكر الله فعصمه الله ..

والحقيقة الثالثة أن الإعراض عن ذكر الله ، الذي قد تنتهي إليه فتنة الابتلاء بالرخاء ، مؤد إلى عذاب الله . والنص يذكر صفة للعذاب « يسلكه عذاباً صعباً » .. توحى بالمشقة مذ كان الذي يصعد في المرتفع يجد مشقة في التصعيد كلما تصعد . وقد درج القرآن على الرمز للمشقة بالتصعيد . فجاء في موضع : « فن يرد الله أن يديه يشرح صدره للإسلام ، ومن يرد أن يضلّه يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء » . وجاء في موضع : « سأرهقه صعوداً » . وهي حقيقة مادية معروفة . والتقابل واضح بين الفتنة بالرخاء وبين العذاب الشاق عند الجزاء !

\* \* \*

والآية الثالثة في السياق يجوز أن تكون حكاية لقول الجن ، ويجوز أن تكون من كلام الله ابتداء :

« وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً » ..

وهي في الحالتين توحى بأن السجود - أو مواضع السجود وهي المساجد - لا تكون إلا لله ، فهناك يكون التوحيد الخالص ، ويتوارى كل ظل لكل أحد ، ولكل قيمة ، ولكل اعتبار . وينفرد الجو ويتمحض للعبودية الخالصة لله . ودعاء غير الله قد يكون بعبادة غيره ؛ وقد يكون بالالتجاء إلى سواء ؛ وقد يكون باستحضار القلب لأحد غير الله .

فإن كانت الآية من مقولات الجن فهي تأكيد لما سبق من قولهم : « ولن نشرك بربنا أحداً » في موضع خاص ، وهو موضع العبادة والسجود . وإن كانت من قول الله ابتداء ، فهي توجيه بمناسبة مقالة الجن وتوحيدهم لربهم ، يبيح في موضعه على طريقة القرآن .

وكذلك الآية التالية :

« وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبداً » ..

أي متجمعين متكئين عليه ، حين قام يصلي ويدعو ربه . والصلاة معناها في الأصل الدعاء .

فإذا كانت من مقولات الجن ، فهي حكاية منهم عن مشركي العرب ، الذين كانوا يتجمعون فئات حول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو يصلي أو وهو يتلو القرآن كما قال في « سورة الماعراج » : « فإلذين كفروا بقلبك مهطعين عن اليمين وعن الشمال عزين ؟ » .. يتسمعون في دهش ولا يستجيبون . أو وهم يتجمعون

(١) سورة الأنعام . آية : ١٢٥ .

(٢) سورة الدثر . آية : ١٧ .

لايقاع الأذى به ، ثم يعصمه الله منهم كما وقع ذلك مراراً .. ويكون قول الجن هذا لقومهم للتعجيب من أمر هؤلاء المشركين !

وإذا كانت من إخبار الله ابتداء ، فقد تكون حكاية عن حال هذا النفر من الجن ، حين سمعوا القرآن .. العجب .. فأخذوا ودهشوا ، وتكأوا على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بعضهم لصق بعض ، كما تكون لبدة الصوف المنسوق شعرها ، بعضه لصق بعض ! .. ولعل هذا هو الأقرب للدلول الآية لانساقه مع العجب والدهشة والارتياح والوهلة البادية في مقالة الجن كلها ! والله أعلم ..

• • •

وعندما تنتهي حكاية مقالة الجن عن هذا القرآن ، وعن هذا الأمر ، الذي فاجأ نفوسهم ، وهز مشاعرهم وأطلعهم على انشغال السماء والأرض والملائكة والكواكب بهذا الأمر ، وعلى ما أحدثه من آثار في نسق الكون كله ؛ وعلى الجذ الذي يتضمنه ، والنواميس التي تصاحبه .

عندما ينتهي هذا كله يتوجه الخطاب إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - في إيقاعات جادة صارمة حاسمة ، بالتبليغ ، والتجرد من هذا الأمر كله بعد التبليغ ، والتجرد كذلك من كل دعوى في الغيب أو في حظوظ الناس ومقاديرهم .. وذلك كله في جو عليه مسحة من الحزن والشجى تناسب ما فيه من جد ومن صرامة :

« قل : إنما أدعو ربي ولا أشرك به أحداً . قل : إني لا أملك لكم ضراً ولا رشداً . قل : إني لن ينجيني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحداً . إلا بلأعاً من الله ورسالاته . ومن بعض الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبداً . حتى إذا رآوا ما يوعدون فسيعلمون من أضعف ناصراً وأقل عدداً . قل : إن أدري أقرب ما توعدون أم يجعل له ربي أمداً . عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً . إلا من ارتضى من رسول . فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً . ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم ، وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عدداً » ..

قل يا محمد للناس : « إنما أدعو ربي ولا أشرك به أحداً » .. وهذا الإعلان ينجي بعد إعلان الجن لقومهم : « ولن نشرك بربنا أحداً » .. فيكون له طعمه وله إيقاعه . فهي كلمة الإنس والجن ، يتعارفان عليها . فمن شذ عنها كالمشركين فهو يشذ عن العالمين .

• • •

« قل : إني لا أملك لكم ضراً ولا رشداً » .. يؤمر الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يتجرد ، ويؤمر أن ينفض يديه من كل ادعاء لشيء هو من خصائص الله الواحد الذي يعبد ولا يشرك به أحداً . فهو وحده الذي يملك الضر ويملك الخير . ويجعل مقابل الضر الرشيد ، وهو الهداية ، كما جاء التعبير في مقالة الجن من قبل : « وأنا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشداً » .. فيتطابق القولان في اتجاههما وفي ألفاظهما تقريباً ، وهو تطابق مقصود في القصة والتعقيب عليها ، كما يكثر هذا في الأسلوب القرآني ..

وبهذا وذلك يتجرد الجن - وهو موضع الشبهة في المقدرة على النفع والضر - ويتجرد النبي - صلى الله عليه وسلم - وتتفرد الذات الإلهية بهذا الأمر . ويستقيم التصور الإيماني على هذا التجرد الكامل الصريح الواضح .

« قل : إني لن ينجيني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحداً . إلا بلأعاً من الله ورسالاته ... » ..

وهذه هي القولة الرهيبة ، التي تملأ القلب بجديّة هذا الأمر .. أمر الرسالة والدعوة .. والرسول - صلى الله

عليه وسلم - يؤمر بإعلان هذه الحقيقة الكبيرة .. إني لن ينجيني من الله أحد ، ولن أجد من دونه ملجأً أو حماية ، إلا أن أبلغ هذا الأمر ، وأؤدي هذه الأمانة ، فهذا هو الملجأ الوحيد ، وهذه هي الإجارة المأمونة . إن الأمر ليس أمري ، وليس لي فيه شيء إلا التبليغ ، ولا مفر لي من هذا التبليغ . فأنا مطلوب به من الله ولن ينجيني منه أحد ، ولن أجد من دونه ملجأً يعصمني ، إلا أن أبلغ وأؤدي !

يا للرهبة ! ويا للروعة ! ويا للجد !

إنها ليست تطوعاً يتقدم به صاحب الدعوة . إنما هو التكليف . التكليف الصارم الجازم ، الذي لا مفر من أدائه . فאלله من ورائه !

وإنها ليست اللذة الذاتية في حمل الهدى والخير للناس . إنما هو الأمر العلوي الذي لا يمكن التلفت عنه ولا التردد فيه !

وهكذا يتبين أمر الدعوة ويتحدد .. إنها تكليف وواجب . وراء الهول ، وراء الجد ، وراء الكبير المتعال ! « ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبداً . حتى إذا رأوا ما يوعدون فسيعلمون من أضعف ناصراً وأقل عدداً » .

فهو التهديد الظاهر والمخفوف لمن يبلغه هذا الأمر ثم يعصي . بعد التلويح بالجد الصارم في التكليف بذلك البلاغ .

وإذا كان المشركون يركنون إلى قوة وإلى عدد ، وقيسون قوتهم إلى قوة محمد - صلى الله عليه وسلم - والمؤمنين القلائل معه ، فسيعلمون حين يرون ما يوعدون - إما في الدنيا وإما في الآخرة - « من أضعف ناصراً وأقل عدداً » .. وأي الفريقين هو الضعيف المخذول القليل الهزيل !

ونعود إلى مقالة الجن فنجدهم يقولون : « وأنا ظننا أن لن نعمز الله في الأرض ولن نعهز هرباً » فنجد التعقيب على القصة يتناسق معها . ونجد القصة تمهد للتعقيب فيجيء في أوانه وموعده المطلوب !

\* \* \*

ثم يؤمر الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يتجرد وينفض يديه من أمر الغيب أيضاً :

« قل : إن أدري أقرب ما توعدون أم يجعل له ربي أمداً .. »

إن الدعوة ليست من أمره ، وليس له فيها شيء ، إلا أن يبلغها قياماً بالتكليف ، والتجاء بنفسه إلى منطقة الأمان - الذي لا يبلغه إلا أن يبلغ ويؤدي . وإن ما يوعدونه على العصيان والتكذيب هو كذلك من أمر الله ، وليس له فيه يد ، ولا يعلم له موعداً . فما يدري أقرب هو أم بعيد يجعل له الله أمداً ممتداً . سواء عذاب الدنيا أو عذاب الآخرة . فكله غيب في علم الله ؛ وليس للنبي من أمره شيء ، ولا حتى علم مواعده متى يكون ! والله - سبحانه - هو المختص بالغيب دون العالمين :

« عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً » ..

ويقف النبي - صلى الله عليه وسلم - متجرداً من كل صفة إلا صفة العبودية . فهو عبد الله . وهذا وصفه في أعلى درجاته ومقاماته .. ويتجرد التصور الإسلامي من كل شبهة ومن كل غش . والنبي - صلى الله عليه

وسلم - يؤمر أن يبلغ فيبلغ : « قل : إن أدري أقرب ما توعدون أم يجعل له ربي أمداً ، عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً » ..

\* \* \*

هناك فقط استثناء واحد .. وهو ما يأذن به الله من الغيب ، فيطلع عليه رسله ، في حدود ما يعاونهم على تبليغ دعوته إلى الناس . فما كان ما يوحي به إليهم إلا غيباً من غيبه ، يكشفه لهم في حينه ويكشفه لهم بقدر ، ويرعاهم وهم يبلغونه ، ويراقبهم كذلك .. ويؤمر الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يعلن هذا في صورة جادة رهيبة :

« إلا من ارتضى من رسول ، فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً ، ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم ، وأحاط بما لديهم ، وأحصى كل شيء عدداً » ..

فالرسل الذين يرتضيههم الله لتبليغ دعوته ، يطلعهم على جانب من غيبه ، هو هذا الوحي : موضوعه ، وطريقته ، والملائكة الذين يحملونه ، ومصدره ، وحفظه في اللوح المحفوظ .. إلى آخر ما يتعلق بموضوع رسالتهم مما كان في ضمير الغيب لا يعلمه أحد منهم .

وفي الوقت ذاته يحيط هؤلاء الرسل بالأرصاد والحراس من الحفظة ، للحفظ وللرقابة . يحومهم من وسوسة الشيطان ونزغته ، ومن وسوسة النفس وتمنياتها ، ومن الضعف البشري في أمر الرسالة ، ومن النسيان أو الانحراف . ومن سائر ما يعترض البشر من النقص والضعف ..

والتعبير الرهيب - « فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً » .. يصور الرقابة الدائمة الكاملة للرسول ، وهو يؤدي هذا الأمر العظيم .. « ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم » .. والله يعلم . ولكن المقصود هو أن يقع منهم البلاغ فيتعلق به علمه في عالم الواقع .

« وأحاط بما لديهم » .. فما من شيء في نفوسهم وفي حياتهم ومن حولهم ، إلا وهو في قبضة العلم لا يند منه شيء ..

« وأحصى كل شيء عدداً » .. لا يقتصر على ما لدى الرسل ، بل يحيط بكل شيء إحصاء وعدداً ، وهو أدق الإحاطة والعلم !

وتصور هذه الحال . والرسول محوط بالحراس والأرصاد . وعلم الله على كل ما لديه . وكل ما حوله . وهو يتلقى التكليف جندياً لا يملك إلا أن يؤدي . ويمضي في طريقه ليس متروكاً لنفسه ، ولا متروكاً لضعفه ، ولا متروكاً لهواه ، ولا متروكاً لما يحبه ويرضاه . إنما هو الجد الصارم والرقابة الدقيقة . وهو يعلم هذا ويستقيم في طريقه لا يتلفت هنا أو هناك . فهو يعلم ماذا حوله من الحرس والرصد ، ويعلم ما هو مسلط عليه من علم وكشف !

إنه موقف يثير العطف على موقف الرسول ، كما يثير الرهبة حول هذا الشأن الخطير .

\* \* \*

وبهذا الإيقاع الهائل الرهيب تختم السورة ، التي بدأت بالروعة والرفعة والانبهار بادية في مقالة الجن الطويلة المفصلة ، الخافلة بآثار البهر والرفعة والارتياح !

وتقرر السورة التي لا تتجاوز الثماني والعشرين آية ، هذا الحشد من الحقائق الأساسية التي تدخل في تكوين

## الجزء التاسع والعشرون

عقيدة المسلم ، وفي إنشاء تصوره الواضح المتزن المستقيم ، الذي لا يغلو ولا يفرط ، ولا يغلق على نفسه نوافذ المعرفة ، ولا يجري - مع هذا - خلف الأساطير والأوهام !  
وصدق النفر الذي آمن حين سمع القرآن ، وهو يقول : « إنا سمعنا قرآنًا عجيباً يهدي إلى الرشد فآمنّا به » ..

\* \* \*

(٧٣) سُورَةُ الْمُزَّمِّلِ مَكِّيَّةٌ  
وَأَيَّاتُهَا عِشْرُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الْمَزْمِلُ ① قُمْ أَلَيْلًا إِلَّا قَلِيلًا ② نِصْفَهُ ③ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ④ أَوْزِدْ عَلَيْهِ ⑤ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ  
تَرْتِيلًا ⑥ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ⑦ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلًا ⑧ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ  
سَبْعًا طَوِيلًا ⑨ وَأَذْكُرِ آمَمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ⑩ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ  
فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ⑪

وَأَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاجْهَرْمْ جَهْرًا جَمِيلًا ⑫ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ⑬ إِنَّ  
لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا ⑭ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ⑮ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ  
كَغَيْبٍ مَهِيلًا ⑯

إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ رَسُولًا شَهِيدًا عَلَيْكَ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ⑰ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ  
أَخْذًا وَبِيلًا ⑱ فَكَيْفَ نُنْقِذُكَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ⑲ السَّمَاءُ مِنْفَطِرٌ بِهِ ⑳ كَانَ وَعْدُهُ  
مَفْعُولًا ㉑ إِنَّ هَذِهِ ㉒ تَذَكُّرَةٌ ㉓ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ㉔

\* إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ ㉕ وَثُلُثَهُ ㉖ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ ㉗ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ  
الَّيْلَ وَالنَّهَارَ ㉘ عَلِمَ الْآنَ مُخْصَوهُ فَتَابْ عَلَيْكَ ㉙ فَاقْرَأْ ㉚ وَامَّا تَبَسَّرَ ㉛ مِنَ الْقُرْآنِ ㉜ عَلِمَ أَنَّ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَّرْضَىٰ  
وَأَعْرُوتَ ㉝ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ ㉞ وَءَاخِرُونَ يُقْلِعُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ㉟ فَاقْرَأْ ㊱ وَامَّا تَبَسَّرَ

مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ يَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا لِلَّهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٠﴾

يروي في سبب نزول هذه السورة أن قريشاً اجتمعت في دار الندوة تدبر كيدها للنبي - صلى الله عليه وسلم - وللدعوة التي جاءهم بها . فبلغ ذلك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فاعتم له ؛ والتف بشيابه وتزمل ونام مهموماً . فجاءه جبريل عليه السلام بشطر هذه السورة الأول « يا أيها المزمل قم الليل إلا قليلاً .. الخ » وتأخر شطر السورة الثاني من قوله تعالى : « إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ... إلى آخر السورة . تأخر عاماً كاملاً . حين قام رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وطائفة من الذين معه ، حتى ورمت أقدامهم ، فنزل التخفيف في الشطر الثاني بعد اثني عشر شهراً .

وتروى رواية أخرى تتكرر بالنسبة لسورة المدثر كذلك - كما سيجيء في عرض سورة المدثر إن شاء الله . وخلاصتها أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان يتحدث في غار حراء - قبل البعثة بثلاث سنوات - أي يتطهر ويتعبد - وكان تحتته - عليه الصلاة والسلام - شهراً من كل سنة - هو شهر رمضان - يذهب فيه إلى غار حراء على مبدعة نحو ميلين من مكة ، ومعه أهله قريباً منه . فيقيم فيه هذا الشهر ، يطعم من جاءه من المساكين ، ويقضي وقته في العبادة والتفكير فيما حوله من مشاهد الكون ، وفيما وراءها من قدرة مبدعة .. وهو غير مطمئن لما عليه قومه من عقائد الشرك الملهله ، وتصوراتها الواهية ، ولكن ليس بين يديه طريق واضح ، ولا منهج محدد ، ولا طريق قاصد يطمئن إليه ويرضاه .

وكان اختياره - صلى الله عليه وسلم - لهذه العزلة طرفاً من تدبير الله له ليعده لما ينتظره من الأمر العظيم . ففي هذه العزلة كان يخلو إلى نفسه ، ويخلص من زحمة الحياة وشواغلها الصغيرة ؛ ويفرغ لموحيات الكون ، ودلائل الإبداع ؛ وتسبح روحه مع روح الوجود ؛ وتتعانق مع هذا الجمال وهذا الكمال ؛ وتتعامل مع الحقيقة الكبرى وتمرن على التعامل معها في إدراك وفهم .

ولا بد لأي روح يراد لها أن تؤثر في واقع الحياة البشرية فتحوها وجهة أخرى .. لا بد لهذه الروح من خلوة وعزلة بعض الوقت ، وانقطاع عن شواغل الأرض ، وضجة الحياة ، وهوم الناس الصغيرة التي تشغل الحياة . لا بد من فترة للتأمل والتدبر والتعامل مع الكون الكبير وحقائقه الطليقة . فالاستغراق في واقع الحياة يعمل النفس تألفه وتستقيم له ، فلا تحاول تغييره . أما الانخلاع منه فترة ، والانعزال عنه ، والحياة في طلاقة كاملة من أسر الواقع الصغير ، ومن الشواغل التافهة فهو الذي يؤهل الروح الكبير لرؤية ما هو أكبر ، ويدربه على الشعور بتكامل ذاته بدون حاجة إلى عرف الناس ، والاستمداد من مصدر آخر غير هذا العرف الشائع ! وهكذا دبر الله لمحمد - صلى الله عليه وسلم - وهو يعدده لحمل الأمانة الكبرى ، وتغيير وجه الأرض ، وتعديل خط التاريخ .. دبر له هذه العزلة قبل تكليفه بالرسالة بثلاث سنوات . ينطلق في هذه العزلة شهراً من الزمان ، مع روح الوجود الطليقة ، ويتدبر ما وراء الوجود من غيب مكنون ، حتى يحين موعد التعامل مع هذا الغيب عندما يأذن الله .

فلما أن أذن ، وشاء - سبحانه - أن يفيض من رحمته هذا الفيض على أهل الأرض ، جاء جبريل عليه



السلام إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - وهو في غار حراء .. وكان ما قصه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من أمره معه فيها رواه ابن إسحق عن وهب بن كيسان ، عن عبيد ، قال :

« فجاءني جبريل وأنا نائم بنمت من ديباج فيه كتاب فقال : اقرأ . قال : قلت : ما أقرأ ( وفي الروايات : ما أنا بقارئ ) قال : ففتني به ( أي ضغطني ) حتى ظننت أنه الموت . ثم أرسلني فقال : اقرأ . قلت : ما أقرأ . قال : ففتني حتى ظننت أنه الموت . ثم أرسلني فقال : اقرأ . قلت : ما أقرأ : قال : ففتني حتى ظننت أنه الموت . ثم أرسلني فقال : اقرأ . قال : قلت : ماذا أقرأ ؟ قال : ما أقول ذلك إلا افتداء منه أن يعود لي بمثل ما صنع بي . فقال : « اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذي علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم » .. قال : فقرأتها . ثم انتهى فانصرف عني . وهبت من نومي فكأنما كتبت في قلبي كتاباً . قال : فخرجت حتى إذا كنت في وسط من الجبل سمعت صوتاً من السماء يقول : يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل . قال : فرفعت رأسي إلى السماء أنظر . فإذا جبريل في صورة رجل ، صاف قدميه في أفق السماء يقول : يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل . قال : فوقف أنظر إليه . فما أقدم وما تأخر . وجعلت أحول وجهي عنه في أفاق السماء . قال : فلا أنظر في ناحية منها إلا رأيته كذلك . فما زلت واقفاً ما أقدم أمامي وما أرجع ورائي ، حتى بعثت خديجة رسلها في طلي ، فبلغوا أعلى مكة ، ورجعوا إليها وأنا واقف في مكاني ذلك . ثم انصرف عني وانصرفت راجعاً إلى أهلي ، حتى أتيت خديجة ، فجلست إلى فخذها مضيفاً إليها ( أي ملتصقاً بها مائلاً إليها ) فقالت : يا أبا القاسم أين كنت ؟ فوالله لقد بعثت في طلبك حتى بلغوا مكة ورجعوا إليّ . ثم حدثتني بالذي رأيت فقالت : « أبشر يا بن عم واثبت . فوالذي نفس خديجة بيده إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة » .

ثم فتر الوحي مدة عن النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى أن كان بالجبل مرة أخرى فنظر فإذا جبريل ، فأدركته منه رجفة ، حتى جثى وهوى إلى الأرض ، وانطلق إلى أهله يرجف ، يقول : « زملوني . دثروني » .. ففعلوا . وظل يرجف مما به من الروع . وإذا جبريل يناديه : « يا أيها المزمل » .. ( وقيل : يا أيها المدثر ) والله أعلم أيتهما كانت .

وسواء صحت الرواية الأولى عن سبب نزول شطر السورة . أو صحت هذه الرواية الثانية عن سبب نزول مطلعها ، فقد علم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه لم يعد هناك نوم ! وأن هنالك تكليفاً ثقيلاً ، وجهاداً طويلاً ، وأنه الصحو والكد والجهد منذ ذلك النداء الذي يلاحقه ولا يدعه ينام !

وقيل لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - « قم » .. فقام . وظل قائماً بعدها أكثر من عشرين عاماً ! لم يسترح . ولم يسكن . ولم يعيش لنفسه ولا لأهله . قام وظل قائماً على دعوة الله . يحمل على عاتقه العبء الثقيل الباهظ ولا ينوء به . عبء الأمانة الكبرى في هذه الأرض . عبء البشرية كلها ، وعبء العقيدة كلها ، وعبء الكفاح والجهاد في ميادين شتى .

حمل عبء الكفاح والجهاد في ميدان الضمير البشري الغارق في أوهام الجاهلية وتصوراتها ، المثقل بأثقال الأرض وجوازها ، المكبل بأوهاق الشهوات وأغلالها .. حتى إذا خلص هذا الضمير في بعض صحابته مما ينقله من ركام الجاهلية والحياة الأرضية بدأ معركة أخرى في ميدان آخر .. بل معارك متلاحقة .. مع أعداء دعوة الله المتألبين عليها وعلى المؤمنين بها ، الحريصين على قتل هذه الغرسة الزكية في منبتها ، قبل أن تنمو وتمد جنورها في التربة وفروعها في الفضاء ، وتظلل مساحات أخرى .. ولم يكذب فرغ من معارك الجزيرة العربية حتى كانت

الروم تعدّ لهذه الأمة الجديدة وتنبأ للبطش بها على تخومها الشمالية .

وفي أثناء هذا كله لم تكن المعركة الأولى - معركة الضمير - قد انتهت . فهي معركة خالدة ، الشيطان صاحبها ، وهو لا يني لحظة عن مزاوله نشاطه في أعماق الضمير الإنساني .. ومحمد - صلى الله عليه وسلم - قائم على دعوة الله هناك . وعلى المعركة الدائبة في ميادينها المتفرقة . في شطف من العيش والدنيا مقبلة عليه . وفي جهد وكد والمؤمنون يستروحون من حوله ظلال الأمن والراحة . وفي نصب دائم لا ينقطع .. وفي صبر جميل على هذا كله . وفي قيام الليل . وفي عبادة لربه ، وترتيل لقرآنه وتبئيل إليه ، كما أمره أن يفعل وهو يناديه : « يا أيها المزمّل . قم الليل إلا قليلا . نصفه أو انقص منه قليلا ، أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا . إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً . إن ناشئة الليل هي أشد وطأً وأقوم قيلاً . إن لك في النهار سبحاً طويلاً . واذكر اسم ربك وتبئيل إليه تبتيلاً ، رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذهُ وكيلاً . واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرًا جميلاً » .

وهكذا قام محمد - صلى الله عليه وسلم - وهكذا عاش في المعركة الدائبة المستمرة أكثر من عشرين عاماً . لا يليه شأن عن شأن في خلال هذا الأمد . منذ أن سمع النداء العلوي الجليل وتلقى منه التكليف الرهيب .. جزاء الله عنا وعن البشرية كلها خير الجزاء ..

\* \* \*

وشر السورة الأول يمضي على إيقاع موسيقي واحد . ويكاد يكون على روي واحد . هو اللام المطلقة الممدودة . وهو إيقاع رخى وقور جليل ؛ يتمشى مع جلال التكليف ، وجدية الأمر ، ومع الأحوال المتتابعة التي يعرضها السياق .. هول القول الثقيل الذي أسلفنا ، وهول التهديد المروع : « وذري والمكذبين أولي النعمة ومهلهم قليلاً ، إن لدينا أنكلاً وجحيماً » ، وطعاماً ذا غصة وعداباً أليماً .. وهول الموقف الذي يتجلى في مشاهد الكون وفي أغوار النفوس : « يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيباً مهيلاً » .. « فكيف تتقون إن كفرتم يوماً يجعل الولدان شيباً ، السماء منفطر به ، كان وعده مفعولاً » .

فأما الآية الأخيرة الطويلة التي تمثل شطر السورة الثاني ؛ فقد نزلت بعد عام من قيام الليل حتى ورمت أقدام الرسول - صلى الله عليه وسلم - وطائفة من الذين معه . والله يعدّه ويعدهم بهذا القيام لما يعدّهم له ! فتزل التخفيف ، ومعه التطمين بأنه اختيار الله لهم وفق علمه وحكمته بأعبائهم وتكليفهم التي قدرها في علمه عليهم .. أما هذه الآية فذات نسق خاص . فهي طويلة وموسيقاها متموجة عريضة ، وفيها هدوء واستقرار ، وقافية تناسب هذا الاستقرار : وهي الميم وقبلها مد الياء : « غفور رحيم » .

\* \* \*

والسورة بشرها تعرض صفحة من تاريخ هذه الدعوة . تبدأ بالنداء العلوي الكريم بالتكليف العظيم . وتصور الإعداد له والتهيئة بقيام الليل ، والصلاة ، وترتيل القرآن ، والذكر الخاشع المتبئيل . والاتكال على الله وحده ، والصبر على الأذى ، والهجر الجميل للمكذبين ، والتخليّة بينهم وبين الجبار القهار صاحب الدعوة وصاحب المعركة ! ..

وتنتهي بلمسة الرفق والرحمة والتخفيف والتيسير . والتوجيه للطاعات والقربات ، والتلوّيح برحمة الله ومغفرته : « إن الله غفور رحيم » ..

وهي تمثل بشرها صفحة من صفحات ذلك الجهد الكريم النبيل الذي بذله ذلك الرهط المختار من

البشرية - البشرية الضالة ، ليردها إلى ربها ، ويصبر على أذاها ، ويجاهد في ضمايرها ، وهو متجرد من كل ما في الحياة من عرض يغري ، ولذاعة تُلهي ، وراحة ينعم بها الخليون . ونوم يلتذ به الفارغون !  
والآن نستعرض السورة في نصها القرآني الجميل .

• • •

« يا أيها المزمل . قم الليل إلا قليلاً . نصفه أو انقص منه قليلاً ، أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلاً . إنا سنلقي عليك قولاً ثقیلاً . إن ناشئة الليل هي أشد وطأً وأقوم قيلاً . إن لك في النهار سبحاً طويلاً ، واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلاً . رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلاً » ..

« يا أيها المزمل .. قم .. » .. إنها دعوة السماء ، وصوت الكبير المتعال .. قم .. قم للأمر العظيم الذي ينتظرك ، والعبء الثقيل المهيأ لك . قم للجهد والتعب والكد والتعب . قم فقد مضى وقت النوم والراحة .. قم قتيماً لهذا الأمر واستعد ..

وإنها لكلمة عظيمة رهيبة تنتزع - صلى الله عليه وسلم - من دفاء الفراش ، في البيت الهادئ والحضن الدافئ . لتدفع به في الخضم ، بين الزعازع والأنواء ، وبين الشد والجذب في ضماير الناس وفي واقع الحياة سواء . إن الذي يعيش لنفسه قد يعيش مستريحاً ، ولكنه يعيش صغيراً ويموت صغيراً . فأما الكبير الذي يحمل هذا العبء الكبير .. فماله والنوم ؟ وماله والراحة ؟ وماله والفراش الدافئ ، والعيش الهادئ ؟ والمتاع المريح ؟ ! ولقد عرف رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حقيقة الأمر وقدره ، فقال لخديجة - رضي الله عنها - وهي تدعوه أن يطمئن وينام : « مضى عهد النوم يا خديجة ! أجل مضى عهد النوم وما عاد منذ اليوم إلا السهر والتعب والجهد الطويل الشاق !

« يا أيها المزمل . قم الليل إلا قليلاً . نصفه أو انقص منه قليلاً . أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلاً » ..

إنه الإعداد للهمة الكبرى بوسائل الإعداد الإلهية المضمونة .. قيام الليل . أكثره أكثر من نصف الليل ودون ثلثيه . وأقله ثلث الليل .. قيامه للصلاة وترتيل القرآن . وهو مد الصوت به وتجويده . بلا تغن ولا نظير ولا تخلع في التنعيم .

وقد صح عن وتر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالليل أنه لم يتجاوز إحدى عشرة ركعة . ولكنه كان يقضي في هذه الركعات ثلثي الليل إلا قليلاً ، يرتل فيه القرآن ترتيلاً .

روى الإمام أحمد في مسنده قال : حدثنا يحيى بن سعيد - هو ابن أبي عروبة - عن قتادة ، عن زرار بن أوفى ، عن سعيد بن هشام .. أنه أتى ابن عباس فسأله عن الوتر فقال : ألا أنبئك بأعلم أهل الأرض بوتر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ؟ قال : نعم . قال : أثت عائشة فسألها ، ثم أرجع إلي فأخبرني بردها عليك ... ثم يقول سعيد بن هشام : قلت : يا أم المؤمنين أنبئيني عن خلق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قالت : ألست تقرأ القرآن ؟ قلت : بلى . قالت : فإن خلق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان القرآن . فهمت أن أقوم ، ثم بدا لي قيام رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قلت : يا أم المؤمنين ، أنبئيني عن قيام رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قالت : ألست تقرأ هذه السورة : « يا أيها المزمل » ؟ قلت : بلى . قالت : فإن الله افترض قيام الليل في أول هذه السورة ؛ فقام رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه حولاً حتى انتفخت أقدامهم . وأمسك الله ختامها في السماء اثني عشر شهراً . ثم أنزل التخفيف في آخر هذه السورة ، فصار قيام الليل تطوعاً من بعد فريضة .. فهمت أن أقوم ، ثم بدا لي وتر رسول الله - صلى الله

عليه وسلم - فقلت : يا أم المؤمنين أنبئيني عن وتر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قالت : كنا نعدله سواكه وظهوره ، فيبعثه الله كما شاء أن يبعثه من الليل ، فيتسوك ، ثم يتوضأ ، ثم يصلي ثمان ركعات لا يجلس فيهن ، إلا عند الثامنة ، فيجلس ويذكر ربه تعالى ويدعو ، ثم ينهض وما يسلم ، ثم يقوم ليصلي التاسعة ، ثم يقعد فيذكر الله وحده ، ثم يدعو ، ثم يسلم تسليماً يسمعون . ثم يصلي ركعتين وهو جالس بعدما يسلم ، فتلك إحدى عشرة ركعة يا بني ، فلما أسن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأخذ اللحم أوتر بسبع ثم صلى ركعتين وهو جالس بعدما يسلم ، فتلك تسع يا بني . وكان رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - إذا صلى صلاة أحب أن يداوم عليها . وكان إذا شغله عن قيام الليل نوم أو وجع أو مرض صلى من نهار اثني عشرة ركعة . ولا أعلم نبي الله - صلى الله عليه وسلم - قرأ القرآن كله في ليلة حتى أصبح ، ولا صام شهراً كاملاً غير رمضان ... »<sup>١</sup>

وكان هذا الإعداد للقول الثقيل الذي سينزله الله عليه ..

« إنا سنلقي عليك قولاً ثقیلاً » ..

هو هذا القرآن وما وراءه من التكليف .. والقرآن في منبأه ليس ثقیلاً فهو ميسر للذكر . ولكنه ثقیل في ميزان الحق ، ثقیل في أثره في القلب : « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله ! فأنزله الله على قلب أثبت من الجبل ينتقله .. »

وإن تلقى هذا الفيض من النور والمعرفة واستيعابه ، لثقیل ، يحتاج إلى استعداد طويل .

وإن التعامل مع الحقائق الكونية الكبرى المجردة ، لثقیل ، يحتاج إلى استعداد طويل .

وإن الاتصال بالملأ الأعلى وبروح الوجود وأرواح الخلائق الحية والجامدة على النحو الذي تهباً لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - لثقیل ، يحتاج إلى استعداد طويل .

وإن الاستقامة على هذا الأمر بلا تردد ولا ارتياب ، ولا تلفت هنا أو هناك وراء الموانع والجواذب والمعوقات ، لثقیل ، يحتاج إلى استعداد طويل .

وإن قيام الليل والناس نيام ، والانقطاع عن غبش الحياة اليومية وسفاسفها ، والاتصال بالله ، وتلقي فيضه ونوره ، والأنس بالوحدة معه والخلو إليه ، وترتيل القرآن والكون ساكن ، وكأنما هو ينتزل من الملأ الأعلى وتتجاوب به أرجاء الوجود في لحظة الترتيل بلا لفظ بشري ولا عبارة ؛ واستقبال إشعاعاته وإيحاءاته وإيقاعاته في الليل الساجي .. إن هذا كله هو الزاد لاحتمال القول الثقيل ، والعبء الباهظ والجهد المبرير الذي ينتظر الرسول وينتظر من يدعو بهذه الدعوة في كل جيل ! وينير القلب في الطريق الشاق الطويل ، ويعصمه من وسوسة الشيطان ، ومن التيه في الظلمات الحافة بهذا الطريق المثير .

« إن ناشئة الليل هي أشد وطأً وأقوم قبلاً » ..

« ناشئة الليل » هي ما ينشأ منه بعد العشاء ، والآية تقول : « إن ناشئة الليل هي أشد وطأً » : أي أجهد للبدن ، « وأقوم قبلاً » : أي أثبت في الخير ( كما قال مجاهد ) فإن مغالبة هتاف النوم وجاذبية الفراش ، بعد كد النهار ، أشد وطأً وأجهد للبدن ؛ ولكنها إعلان لسيطرة الروح ، واستجابة لدعوة الله ، وإثارة للأنس به ، ومن ثم

(١) وأخرجه مسلم من حديث قتادة .. وهناك أحاديث كثيرة وأقوال متعددة في صلاة الرسول - صلى الله عليه وسلم - بالليل ووتره ، صحت فيها كفيات متعددة لهذه الصلاة ( يراجع زاد المعاد لابن القيم في هديه صلى الله عليه وسلم في قيام الليل ) .

فإنها أقوم قليلاً ، لأن للذكر فيها حللته ، وللصلاة فيها خشوعها ، وللمناجاة فيها شفافيتها . وإنها لتسكب في القلب أنساً وراحة وشفافية ونوراً ، قد لا يجدها في صلاة النهار وذكره . . والله الذي خلق هذا القلب يعلم مداخله وأوتاره ، ويعلم ما يتسرب إليه وما يوقع عليه ، وأي الأوقات يكون فيها أكثر تفتحاً واستعداداً وتهيئاً ، وأي الأسباب أعلق به وأشد تأثيراً فيه .

والله - سبحانه - وهو يعد عبده ورسوله محمداً - صلى الله عليه وسلم - ليتلقى القول الثقيل ، وينهض بالعبء الجسم ، اختار له قيام الليل ، لأن ناشئة الليل هي أشد وطأً وأقوم قليلاً . ولأن له في النهار مشاغله ونشاطه الذي يستغرق كثيراً من الطاقة والالتفات :

« إن لك في النهار سبباً طويلاً » ..

فلينقص النهار في هذا السبح والنشاط ، وليخلص لربه في الليل ، يقوم له بالصلاة والذكر :

« واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتلاً » ..

وذكر اسم الله ، ليس هو مجرد ترديد هذا الاسم الكريم باللسان ، على عدة المسبحة المثوبة أو الألفية ! إنما هو ذكر القلب الحاضر مع اللسان الذاكر ، أو هو الصلاة ذاتها وقراءة القرآن فيها . والتبتل هو الانقطاع الكلي عما عدا الله ، والاتجاه الكلي إليه بالعبادة والذكر ، والخلوص من كل شاغل ومن كل خاطر ، والحضور مع الله بكامل الحس والمشاعر .

ولما ذكر التبتل وهو الانقطاع عما عدا الله ، ذكر بعده ما يفيد أنه ليس هناك إلا الله ، يتجه إليه من يريد الاتجاه :

« رب المشرق والمغرب ، لا إله إلا هو ، فاتخذة وكيلاً » ..

فهو رب كل متجه .. رب المشرق والمغرب .. وهو الواحد الأحد الذي لا إله إلا هو . فالانقطاع إليه هو الانقطاع للحقيقة الوحيدة في هذا الوجود ، والتوكل عليه هو التوكل على القوة الوحيدة في هذا الوجود . والاتكال على الله وحده هو الثمرة المباشرة للاعتقاد بوحديته ، وهيئته على المشرق والمغرب ، أي على الكون كله .. والرسول الذي ينادى : قم .. لينهض بعثه الثقيل ، في حاجة ابتداء للتبتل لله والاعتماد عليه دون سواه . فن هنا يستمد القوة والزاد للعبء الثقيل في الطريق الطويل .

\* \* \*

ثم وجه الله الرسول إلى الصبر الجميل على ما يلقاه من قومه من الاتهام والإعراض والصد والتعطيل . وأن يخلي بينه وبين المكذبين ! ويمهلهم قليلاً . فإن لدى الله لهم عذاباً وتنبلياً :

« واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرًا جميلاً . وذرنى والمكذبين أولي النعمة ومهلهم قليلاً . إن لدينا أنكالاً وجحماً . وطعماً ذا غصة وعذاباً ألياً . يوم ترجف الأرض والجبال ، وكانت الجبال كتيلاً مهيلاً .. إنا أرسلنا إليكم رسلاً شاهداً عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسلاً ، فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذاً وبيلاً . فكيف نتقون إن كفرتم يوماً يجعل الولدان شيباً ، السماء منفطر به كان وعده مفعولاً » ..

وإذا صحت الرواية الأولى عن نزول مطلع هذه السورة في بدء البعثة ، فإن هذا الشوط الثاني منها يكون قد نزل متأخراً بعد الجهر بالدعوة ، وظهور المكذبين والمتطاولين ، وشدتهم على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وعلى المؤمنين . فأمّا إذا صحت الرواية الثانية فإن شطر السورة الأول كله يكون قد نزل بمناسبة ما نال

النبي - صلى الله عليه وسلم - من أذى المشركين وصدهم عن الدعوة .

وعلى أية حال فإننا نجد التوجه إلى الصبر ، بعد التوجه إلى القيام والذكر ، وهما كثيراً ما يقتربان في صدق تزويد القلب بزداد هذه الدعوة في طريقها الشاق الطويل ، سواء طريقها في مسارب الضمير أو طريقها في جهاد المناوئين ، وكلاهما شاق عسير .. نجد التوجه إلى الصبر . « واصبر على ما يقولون » .. مما يغيظ ويحتمل ، « واهجرهم هجراً جميلاً » .. لا عتاب معه ولا غضب ، ولا هُجر فيه ولا مشادة . وكانت هذه هي خطة الدعوة في مكة - وبخاصة في أوائلها .. كانت مجرد خطاب للقلوب والضمائر ، ومجرد بلاغ هادئ ومجرد بيان منبر .

واهجر الجميل مع التطاول والتكذيب ، يحتاج إلى الصبر بعد الذكر . والصبر هو الوصية من الله لكل رسول من رسله ، مرة ومرة ومرة ؛ ولعباده المؤمنين يرسله . وما يمكن أن يقوم على هذه الدعوة أحد إلا والصبر زاده وعتاده ، والصبر جنته وسلاحه ، والصبر ملجؤه وملاذه . ففي جهاد .. جهاد مع النفس وشهواتها وانحرافاتها وضعفها وشروطها وعجلتها وقنوطها .. وجهاد مع أعداء الدعوة ووسائلهم وتدابيرهم وكيدهم وأذاهم . ومع النفوس عامة وهي تنفصى من تكاليف هذه الدعوة ، وتتفلت ، وتتخفى في أزياء كثيرة وهي تخالف عنها ولا تستقيم عليها . والداعية لا زاد له إلا الصبر أمام هذا كله ، والذكر وهو قرين الصبر في كل موضع تقريباً !

اصبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلاً .. وخل بيني وبين المكذبين ، فأنا بهم كفيل : « وذري والمكذبين أولي النعمة ومهلهم قليلاً » .. كلمة يقولها الجبار القهار القوي المتين .. « وذري والمكذبين » .. والمكذبون بشر من البشر ، والذي يتهدهم هو الذي أنشأهم ابتداء وخلق هذا الكون العريض « بكن » ولا تزيد ! ذري والمكذبين .. ففي دعوتي . وما عليك إلا البلاغ . ودعهم يكذبون واهجرهم هجراً جميلاً . وسأولى أنا حربهم ، فاسترح أنت من التفكير في شأن المكذبين !

إنها القاصمة المزلزلة المذهلة حين يخلو الجبار ، إلى هذه الخلائق الهينة المضعوفة .. « أولي النعمة » مهما يكن من جبروتهم في الأرض على أمثالهم من المخاليق !

« ومهلهم قليلاً » ولو مهلهم الحياة الدنيا كلها ما كانت إلا قليلاً . وإن هي إلا يوم أو بعض يوم في حساب الله . وفي حسابهم هم أنفسهم حين تطلو ، بل إنهم ليحسوها في يوم القيامة ساعة من نهار ! فهي قليل أياً كان الأمد ، ولو مضوا من هذه الحياة ناجين من أخذ الجبار المنتقم الذي يعمل قليلاً ويأخذ تنكيلاً : « إن لدينا أنكلاً وجحياً وطعاماً ذا غصة وعذاباً ألياً » ..

والأنكال - هي القيود - والجحيم والطعام ذو الغصة الذي يمزق الحلق والعذاب الأليم .. كلها جزء مناسب « لأولي النعمة » ! الذين لم يرعوا النعمة ، ولم يشكروا المنعم ، فاصبر يا محمد عليهم صبراً جميلاً وخل بيني وبينهم . ودعهم فإن عندنا قيوداً تنكل بهم وتؤذيهم ، وجحياً يحجمهم وتصلبهم ، وطعاماً تلازمه الغصة في الحلق ، وعذاباً ألياً في يوم مخيف ...

ثم يرسم مشهد هذا اليوم المخيف :

« يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيباً مهيلاً » ..

فها هي ذي صورة للهول تتجاوز الناس إلى الأرض في أكبر مجالها . فترجف وتخاف وتتفتت وتنهار . فكيف بالناس المهزبل الضعاف !

ويلتفت السياق أمام مشهد الهول المفزع ، إلى المكذبين أولي النعمة ، يذكرهم فرعون الجبار ، وكيف أخذه الله أخذ عزيز قهار :

« إنا أرسلنا إليك رسولاً شاهداً عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولاً ، فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذاً وبيلاً » .

هكذا في اختصار يهز قلوبهم ويخلعها خلعاً ، بعد مشهد الأرض والجبال وهي ترجف وتهار .

فذلك أخذ الآخرة وهذا أخذ الدنيا ؛ فكيف تنجون بأنفسكم وتقوها هذا الهول الرعب ؟

« فكيف تتقون - إن كفرتم - يوماً يجعل الولدان شيباً السماء منفطر به ؟ » ..

وإن صورة الهول هنا لتتشق لها السماء ، ومن قبل رجفت لها الأرض والجبال . وإنها لتشيب الولدان . وإنه هول ترسم صورته في الطبيعة الصامتة ، وفي الإنسانية الحية .. في مشاهد ينقلها السياق القرآني إلى حس المخاطبين كأنها واقعة .. ثم يؤكد تأكيدهم . « كان وعده مفعولاً » .. واقعاً لا خلف فيه . وهو ما شاء فعل وما أراد كان !

وأمام هذا الهول الذي يتمثل في الكون كما يتمثل في النفس يلمس قلوبهم لتتذكر وتختار طريق السلامة .. طريق الله ..

« إن هذه تذكرة ، فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً » ..

وإن السبيل إلى الله لآمن وأيسر ، من السبيل المريب ، إلى هذا الهول العصيب !

وبينا تزلزل هذه الآيات قوائم المكذبين ، تنزل على قلب الرسول - صلى الله عليه وسلم - والقلعة المؤمنة المستضعفة إذ ذاك بالروح والثقة واليقين . إذ يحسون أن ربهم معهم ، يقتل أعداءهم وينكل بهم . وإن هي إلا مهلة قصيرة ، إلى أجل معلوم . ثم يقضى الأمر ، حينئذ يجيء الأجل ويأخذ الله أعداءه وأعداءهم بالنكال والجحيم والعذاب الأليم .

إن الله لا يدع أوليائه لأعدائه . ولو أمهل أعداءه إلى حين ...

• • •

والآن يجيء شطر السورة الثاني في آية واحدة طويلة ، نزلت بعد مطلع السورة بعام على أرجح الأقوال :

« إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه ، وطائفة من الذين معك . والله يقدر الليل والنهار . علم أن لن تحصوه فتاب عليكم ، فاقرأوا ما تيسر من القرآن . علم أن سيكون منكم مرضى . وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله . فاقرأوا ما تيسر منه ، وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ، وأقرضوا الله قرضاً حسناً ، وما تقدموا لأنفسكم من خير نجده عند الله هو خيراً وأعظم أجراً ، واستغفروا الله ، إن الله غفور رحيم » ..

إنها لمسة التخفيف الندية ، تسمح على التعب والنصب والمشقة . ودعوة التيسير الإلهي على النبي والمؤمنين . وقد علم الله منه ومنهم خلوصهم له . وقد انتفضت أقدامهم من القيام الطويل للصلاة بقدر من القرآن كبير . وما كان الله يريد لنبيه أن يشقى بهذا القرآن وبالقيام . إنما كان يريد أن يعده للأمر العظيم الذي سيواجهه طوال ما بقي له من الحياة . هو والمجموعة القليلة من المؤمنين الذين قاموا معه .

وفي الحديث مودة وتطمين : « إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك » .. إنه رآك ! إن قيامك وصلاتك أنت وطائفة من الذين معك قبلت في ميزان الله .. إن ربك يعلم

أنك وهم تجافت جنوبيكم عن المضاجع ؛ وتركت دفاء الفراش في الليلة القارسة ، ولم تسمع نداء المضاجع المغربي وسمعت نداء الله .. إن ربك يعطف عليك ويريد أن يخفف عنك وعن أصحابك .. « والله يقدر الليل والنهار » .. فيطيل من هذا ويقصر من ذلك . فيطول الليل ويقصر . وأنت ومن معك ماضون تقومون أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه . وهو يعلم ضعفكم عن الموالاة . وهو لا يريد أن يعتنكم ولا أن يشق عليكم . إنما يريد لكم الزاد وقد تزودتم فخففوا على أنفسكم ، وخذوا الأمر هيناً : « فاقراءوا ما تيسر من القرآن » .. في قيام الليل بلا مشقة ولا عنت .. وهناك - في علم الله - أمور تنتظركم تستنفد الجهد والطاقة ، ويشق معها القيام الطويل : « علم أن سيكون منكم مرضى » يصعب عليهم هذا القيام « وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله » .. في طلب الرزق والكد فيه ، وهو ضرورة من ضرورات الحياة . والله لا يريد أن تدعوا أمور حياتكم وتنقطعوا لعبادة الشعائر انقطاع الرهبان ! « وآخرون يقائلون في سبيل الله » .. فقد علم الله أن سيأذن لكم في الانتصار من ظلمكم بالقتال ، ولإقامة راية للإسلام في الأرض بحشاشها البغاة ! فخففوا إذن على أنفسكم « فاقراءوا ما تيسر منه » بلا عسر ولا مشقة ولا إجهاد .. واستقيموا على فرائض الدين : « وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة » .. وتصدقوا بعد ذلك قرضاً لله يبقى لكم خيره .. « وأقرضوا الله قرضاً حسناً ، وما تقدموا لأنفسكم من خير نجده عند الله هو خيراً وأعظم أجراً » .. واتجهوا إلى الله مستغفرين عن تقصيركم . فالإنسان يقصر ويخطئ مهما جد وتحرى الصواب : « واستغفروا الله إن الله غفور رحيم » ..

إنها لمسة الرحمة والود والتيسير والطمأنينة نجيء بعد عام من الدعوة إلى القيام ! ولقد خفف الله عن المسلمين ، فجعل قيام الليل لهم تطوعاً لا فريضة . أما رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقد مضى على نهجه مع ربه ، لا يقل قيامه عن ثلث الليل ، يناجي ربه ، في خلوة من الليل وهدأة ، ويستمد من هذه الحضرة زاد الحياة وزاد الجهاد . على أن قلبه ما كان بنام وإن نامت عيناه . فقد كان قلبه - صلى الله عليه وسلم - دائماً مشغولاً بذكر الله ، متنبلاً لمولاه . وقد فرغ قلبه من كل شيء إلا من ربه . على ثقل ما يحمل على عاتقه ، وعلى مشقة ما يعاني من الأعباء الثقال ..





# (٧٤) سُورَةُ الْمُدَّثِّرِ مَكِّيَّةٌ وَأَيَّاتُهَا سِتٌّ وَخَمْسُونَ

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يُنَادِيهَا الْمُدَّثِّرُ ١ قُمْ فَأَنْذِرْ ٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ٣ وَبَيْتَكَ فَطَهِّرْ ٤ وَالْزُجَرَ فَاكْجُرْ ٥ وَلَا تَمْنُنْ ٦ تَسْتَغْنِي ٧ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ٨

فَإِذَا نُفِرَ فِي الْأَقْصَى ٩ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ١٠ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ١١ ذُرِّي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ١٢ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ١٣ وَبَنِينَ شُهُودًا ١٤ وَمَهْدَتْ لَهُ مُمْتَهِدًا ١٥ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ١٦ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ١٧ سَأَرْهَقُهُ سُعُودًا ١٨ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ١٩ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ٢٠ ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ٢١ ثُمَّ نَظَرَ ٢٢ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ٢٣ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ٢٤ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سَحَرٌ يُؤْمَرُ ٢٥ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ٢٦ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ٢٧ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ٢٨ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ٢٩ لَوَاحَةٌ لِلْبَشَرِ ٣٠ عَلَيْهِ نَسِئَةٌ عَشْرَةٌ ٣١

وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً ٣٢ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيَقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَرَزَقُوا مِنَ اللَّهِ أَنْهُمْ إِبْرَئِيلُ ٣٣ وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلَيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا ٣٤ كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنِ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ٣٥ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ٣٦ وَمَا يَهْدِي إِلَّا ذُرِّيُّ الْبَشَرِ ٣٧

كَلَّا وَالْفَرِّ ٣٨ وَاللَّيْلِ إِذَا أَدْبَرَ ٣٩ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ ٤٠ إِنَّهَا إِلَّا خُدَى الْكَبِيرِ ٤١ نَذِيرًا لِلْبَشَرِ ٤٢

لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٦٧﴾ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهينٌ ﴿٦٨﴾ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٦٩﴾ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٧٠﴾ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٧١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ﴿٧٢﴾ قَالُوا لَوْ نَكُنْ مِنَ الْمَصْلِينَ ﴿٧٣﴾ وَلَوْ نَكُنْ نَظْمِ الْمُسْكِينِ ﴿٧٤﴾ وَكُنَّا نَحْمُوسُ مَعَ الْخَافِضِينَ ﴿٧٥﴾ وَكُنَّا نَكْذِبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٧٦﴾ حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ ﴿٧٧﴾ فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴿٧٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٧٩﴾ كَانَتْهُمْ حُرٌّ مُسْتَنْفَرَةً ﴿٨٠﴾ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴿٨١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُفْحًا مُنَشَّرَةً ﴿٨٢﴾ كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ ﴿٨٣﴾ كَلَّا إِنَّهُ تَذَكُّرَةٌ ﴿٨٤﴾ فَمَنْ شَاءَ ذَكُرْهُ ﴿٨٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَسَاءَ اللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَعْرِفَةِ ﴿٨٦﴾

ينطبق على هذه السورة من ناحية سبب نزولها ، ووقت نزولها ما سبق ذكره عن سورة « الزمل » . فهناك روايات بأنها هي أول ما نزل بعد سورة العلق ، ورواية أخرى بأنها نزلت بعد الجهر بالدعوة وإيذاء المشركين للنبي - صلى الله عليه وسلم - .

قال البخاري ، حدثنا يحيى ، حدثنا وكيع ، عن علي بن المبارك ، عن يحيى بن أبي كثير قال : سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن عن أول ما نزل من القرآن ؟ فقال : « يا أيها المدثر » .. قلت : يقولون « اقرأ باسم ربك الذي خلق » فقال أبو سلمة : سألت جابر بن عبد الله عن ذلك ، وقلت له مثل ما قلت لي ، فقال جابر : لا أحديثك إلا ما حدثنا به رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « جاورت بحراء فلما قضيت جواري هبطت فنوديت ، فنظرت عن يميني فلم أر شيئاً ، ونظرت عن شمالي فلم أر شيئاً ، ونظرت أمامي فلم أر شيئاً ، ونظرت خلفي فلم أر شيئاً ، رفعت رأسي فرأيت شيئاً . فتأيت خديجة فقلت : « دثروني وصوبوا عليّ ماء بارداً » قال : فدثروني وصوبوا عليّ ماء بارداً . قال : فتزلت : « يا أيها المدثر . قم فأنذر . وربك فكبر » .. وقد رواه مسلم من طريق عقيل ، عن ابن شهاب ، عن أبي سلمة . قال : أخبرني جابر بن عبد الله ، أنه سمع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يحدث عن فترة الوحي ، فقال في حديثه : فيينا أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء ، رفعت بصري قبل السماء ، فإذا الملك الذي جاءني بحراء ، قاعد على كرسي بين السماء والأرض ، فجنيت منه حتى هويت إلى الأرض فجنيت إلى أهلي فقلت : زملوني ، فدثروني ، فأنزل الله تعالى : « يا أيها المدثر . قم فأنذر ... » إلى - والرجز فاهجر » قال أبو سلمة : والرجز الأوثان . ثم حمي الوحي وتتابع .. ورواه البخاري من هذا الوجه أيضاً .. وهذا لفظ البخاري .

وعلق ابن كثير في التفسير على هذا الحديث بقوله : « وهذا السياق هو المحفوظ ، وهو يقتضي أنه قد نزل الوحي قبل هذا لقوله : « فإذا الملك الذي جاءني بحراء » وهو جبريل ، حين أنه بقوله ... « اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم » .. ثم إنه حصل بعد هذا فترة ، ثم نزل الملك بعد هذا . ووجه الجمع أن أول شيء نزل بعد فترة الوحي هذه السورة .. »

فهذه رواية . وهناك رواية أخرى .. قال الطبراني : حدثنا محمد بن علي بن شعيب السمسار ، حدثنا

الحسن بن بشر البجلي ، حدثنا المعافى بن عمران ، عن إبراهيم بن يزيد ، سمعت ابن أبي مليكة يقول : سمعت ابن عباس يقول : إن الوليد بن المغيرة صنع لقريش طعماً ، فلما أكلوا منه قال : ما تقولون في هذا الرجل ؟ فقال بعضهم : ساحر . وقال بعضهم : ليس بساحر . وقال بعضهم : كاهن . وقال بعضهم : ليس بكاهن . وقال بعضهم : شاعر . وقال بعضهم : ليس بشاعر . وقال بعضهم : بل سحر يؤثر . فأجمع رأيهم على أنه سحر يؤثر . فبلغ ذلك النبي - صلى الله عليه وسلم - فحزن ، وقنع رأسه ، وتدثر . فأُنزل الله تعالى : « يا أيها المدثر . قم فأنذر . وربك فكبر . وثيابك فطهر . والرجز فاهجر ، ولا تمنن تستكثر . ولربك فاصبر .. » وتكاد تكون هذه الرواية هي ذاتها التي رويت عن سورة « المزمل » .. مما يجعلنا لا نستطيع الجزم بشيء عن أيتهما هي التي نزلت أولاً . والتي نزلت بهذه المناسبة أو تلك .

غير أن النظر في النص القرآني ذاته يوحي بأن مطلع هذه السورة إلى قوله تعالى : « ولربك فاصبر » ربما يكون قد نزل ميكراً في أوائل أيام الدعوة . شأنه شأن مطلع سورة المزمل إلى قوله تعالى : « واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلاً » ، رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذة وكيلاً » .. وهذا وذلك لإعداد نفس الرسول - صلى الله عليه وسلم - للنهوض بالتبعية الكبرى ، ومواجهة قريش بعد ذلك بالدعوة جهاراً وكافة ، مما سيجرب عليه مشاق كثيرة متنوعة ، تحتاج مواجهتها إلى إعداد نفسي سابق .. ويكون ما تلا ذلك في سورة المدثر ، وما تلا هذا في سورة المزمل ، قد نزلا بعد فترة بمناسبة تكذيب القوم وعنادهم ، وإيذائهم للنبي - صلى الله عليه وسلم - بالاتهام الكاذب والكيد اللثيم .

إلا أن هذا الاحتمال لا ينفي الاحتمال الآخر ، وهو أن يكون كل من المطلعين قد نزل متصلاً بما تلاه في هذه السورة وفي تلك ، بمناسبة واحدة ، هي التكذيب ، واغتمام رسول الله - صلى الله عليه وسلم - للكيد الذي كادته قريش ودبرته .. ويكون الشأن في السورتين هو الشأن في سورة القلم على النحو الذي بيناه هناك .

° ° °

وأياً ما كان السبب والمناسبة فقد تضمنت هذه السورة في مطلعها ذلك النداء العلوي بانتداب النبي - صلى الله عليه وسلم - لهذا الأمر الجليل ، وانتزاعه من النوم والتدثر والدفع إلى الجهاد والكفاح والمشقة : « يا أيها المدثر . قم فأنذر .. » مع توجيهه - صلى الله عليه وسلم - إلى التهيؤ لهذا الأمر العظيم ، والاستعانة عليه بهذا الذي وجهه الله إليه : « وربك فكبر . وثيابك فطهر . والرجز فاهجر . ولا تمنن تستكثر . ولربك فاصبر .. » وكان ختام التوجيه هنا بالصبر كما كان هناك في سورة المزمل !

وتضمنت السورة بعد هذا تهديداً ووعيداً للمكذبين بالآخرة ، وبحرب الله المباشرة ، كما تضمنت سورة المزمل سواء : « فإذا نقر في الناقور ، فذلك يومئذ يوم عسير ، على الكافرين غير سیر . ذرني ومن خلقت وحيداً . وجعلت له مالا ممدوداً ، وبنين شهوداً ، ومهدت له تمهيداً ، ثم يطمع أن أزيد . كلا ! إنه كان لآياتنا عتيداً . سأرهقه صعوداً .. »

وتعين سورة المدثر أحد المكذبين بصفته ، وترسم مشهداً من مشاهد كيده - على نحو ما ورد في سورة القلم ، وربما كان الشخص المعني هنا وهناك واحداً ، قيل : إنه الوليد بن المغيرة - ( كما سيأتي تفصيل الروايات عند مواجهة النص ) وتذكر سبب حرب الله سبحانه وتعالى له : « إنه فكّر وقدر . فقتل ! كيف قدر ؟ ثم قتل : كيف قدر ؟ ثم نظر ، ثم عبس وبسر . ثم أدير واستكبر . فقال : إن هذا إلا سحر يؤثر . إن هذا إلا قول البشر .. » ثم تذكر مصيره : « أسأليه سقر . وما أدراك ما سقر ، لا تبق ، ولا تذر . لواحة للبشر .

عليها تسعة عشر ..

وبمناسبة مشهد سقر . والقائمين عليها التسعة عشر . وما أثاره هذا العدد من بلبلة وفتنة وتساؤل وشك واستهزاء في أوساط المشركين وضعاف الإيمان ، تحدثت السورة عن حكمة الله في ذكر هذا العدد ، ثم تفتح كوة على حقيقة غياب الله ، واختصاصه بهذا الغيب . وهي كوة تلقي ضوءاً على جانب من التصور الإيماني لحقيقة غياب الله المكنون : « وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة . وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ، ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ، ويزداد الذين آمنوا إيماناً ، ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون ، وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون : ماذا أراد الله بهذا مثلاً ؟ كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء ، وما يعلم جنود ربك إلا هو ، وما هي إلا ذكرى للبشر .. »

ثم يصل أمر الآخرة وسقر ومن عليها بمشاهد كونية حاضرة ، ليجمع على القلوب إحياء هذه وتلك في معرض الإيقاظ والتحذير : « كلا والقمر . والليل إذا أدبر . والصبح إذا أسفر . إنها لإحدى الكبر . نذيراً للبشر . لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر .. »

كما يعرض مقام المجرمين ومقام أصحاب اليمين ، حيث يعترف المكذبون اعترافاً طويلاً بأسباب استحقاقهم للآزهان والقيظ في يوم الجزاء والحساب ، يعقب عليه بكلمة الفصل في أمرهم الذي لا تنفعهم فيه شفاع شافع : « كل نفس بما كسبت رهينة . إلا أصحاب اليمين . في جنات يتساءلون عن المجرمين . ما سلككم في سقر ؟ قالوا : لم نك من المصلين . ولم نك نطعم المسكين . وكنا نخوض مع الخائضين . وكنا نكذب بيوم الدين . حتى أتانا اليقين . فما تنفعهم شفاع الشافعين .. »

وفي ظل هذا المشهد المخزي ، والاعتراف المهين ، يتساءل مستنكراً موقف المكذبين من الدعوة إلى التذكرة والنجاة من هذا المصير ، ويرسم لهم مشهداً ساخراً يثير الضحك والزراية من نفارهم الحيواني الشموس : « فاهلم عن التذكرة معرضين ؟ كأنهم حمر مستنفرة . فرت من قسوة ! .. »

ويكشف عن حقيقة الغرور الذي يساورهم فيمنعهم من الاستجابة لصوت المذكر الناصح . « بل يريد كل امرئ منهم أن يؤتى صحفاً منشرة » . فهو الحسد للنبي - صلى الله عليه وسلم - والرغبة في أن يؤتى كل منهم الرسالة ! والسبب الدفين الآخر هو قلة التقوى : « كلا ! بل لا يخافون الآخرة .. »

وفي الختام يجيء التقرير الحازم الذي لا مجاملة فيه : « كلا ! إنه تذكرة . فمن شاء ذكره » ورد الأمر كله إلى مشيئة الله وقدره : « وما يذكرون إلا أن يشاء الله هو أهل التقوى وأهل المغفرة .. »

\* \* \*

وهكذا تمثل السورة حلقة من حلقات الكفاح النفسي الذي كافحه القرآن للجاهلية وتصوراتها في قلوب قريش ، كما كافح العناد والكيد والإغراض الناشئ عن العمد والقصد بشتى الأساليب .. والمشايات كثيرة بين اتجاهات هذه السورة واتجاهات سورة المزمل ، وسورة القلم ، مما يدل على أنها جميعاً نزلت متقاربة ، لمواجهة حالات متشابهة .. وذلك باستثناء الشطر الثاني من سورة المزمل ، وقد نزل لشأن خاص بالرياضة الروحية للرسول - صلى الله عليه وسلم - وطائفة من الذين معه كما تقدم .

\* \* \*

وهذه السورة قصيرة الآيات . سريعة الجريان . منوعة الفواصل والقوافي . يتند إيقاعها أحياناً ، ويجري

لاهثاً أحياناً ! وبخاصة عند تصوير مشهد هذا المكذب وهو يفكر ويقدر ويعبس ويسر .. وتصوير مشهد سقر . لا تنبي ولا تذر . لوحاة للبشر .. ومشهد فرارهم كأنهم حمر مستنفرة . فرت من قسورة !

وهذا التنوع في الإيقاع والقافية بتنوع المشاهد والظلال يجعل للسورة مذاقاً خاصاً ؛ ولا سيما عند رد بعض القوافي ورجعها بعد انتهائها كقافية الراء الساكنة : المدثر . أنذر . فكبر .. وعودتها بعد قسرة : قدر . بسر . استكبر . سقر ... وكذلك الانتقال من قافية إلى قافية في الفقرة الواحدة مفاجأة ولكن لهدف خاص . عند قوله : « فإلهم عن التذكرة معرضين ؟ كأنهم حمر مستنفرة . فرت من قسورة » .. ففي الآية الأولى كان يسأل ويستنكر . وفي الثانية والثالثة كان يصور ويسخر ! وهكذا ...  
والآن نأخذ في الاستعراض التفصيلي للسورة :

• • •

« يا أيها المدثر . قم فأنذر . وربك فكبر . وثيابك فطهر . والرجز فاهجر . ولا تمنن تستكثر . ولربك فاصبر » ..

إنه النداء العلوي الجليل ، للأمر العظيم الثقيل .. نذارة هذه البشرية وإيقاظها ، وتخليصها من الشر في الدنيا ، ومن النار في الآخرة ؛ وتوجيهها إلى طريق الخلاص قبل فوات الأوان .. وهو واجب ثقيل شاق ، حين يناط بفرد من البشر - مهما يكن نبياً رسولاً - فالبشرية من الضلال والعصيان والتمرد والعنوة والعناد والإصرار والالتواء والتفصي من هذا الأمر ، بحيث تجعل من الدعوة أصعب وأثقل ما يكلفه إنسان من المهام في هذا الوجود !

« يا أيها المدثر . قم فأنذر » .. والإنذار هو أظهر ما في الرسالة ، فهو تنبيه للخطر القريب الذي يترصد للغافلين السادرين في الضلال وهم لا يشعرون . وفيه تتجلى رحمة الله بالعباد ، وهم لا ينقصون في ملكه شيئاً حين يضلون ، ولا يزيدون في ملكه شيئاً حين يهتدون . غير أن رحمته اقتضت أن يمنحهم كل هذه العناية ليخلصوا من العذاب الأليم في الآخرة ، ومن الشر الموبق في الدنيا . وأن يدعوهم رسله ليغفر لهم ويدخلهم جنته من فضله !

ثم يوجه الله رسوله في خاصة نفسه بعد إذ كلفه نذارة غيره :

يوجهه إلى تكبير ربه : « وربك فكبر » .. ربك وحده .. فهو وحده الكبير ، الذي يستحق التكبير . وهو توجيه يقرر جانباً من التصور الإيماني لمعنى الألوهية ، ومعنى التوحيد .

إن كل أحد ، وكل شيء ، وكل قيمة ، وكل حقيقة .. صغير .. والله وحده هو الكبير .. وتتوارى الأجرام والأحجام ، والقوى والقوى ، والأحداث والأحوال ، والمعاني والأشكال ؛ وتنمحي في ظلال الجلال والكمال ، لله الواحد الكبير المتعال .

وهو توجيه للرسول - صلى الله عليه وسلم - ليواجه نذارة البشرية ، ومتاعبها وأهوالها وأثقالها ، بهذا التصور ، وبهذا الشعور ، فيستصغر كل كيد ، وكل قوة ، وكل عقبة ، وهو يستشعر أن ربه الذي دعاه ليقوم بهذه النذارة ، هو الكبير .. ومشاق الدعوة وأهوالها في حاجة دائمة إلى استحضار هذا التصور وهذا الشعور .

ويوجهه إلى التطهر : « وثيابك فطهر » .. وطهارة الثياب كناية في الاستعمال العربي عن طهارة القلب والخلق والعمل .. طهارة الذات التي تحتويها الثياب ، وكل ما يلزم بها أو يمسخها .. والطهارة هي الحالة المناسبة للتلقي من الملائكة الأعلى . كما أنها ألصق شيء بطبيعة هذه الرسالة . وهي بعد هذا وذلك ضرورية لملازمة الإنذار

والتبليغ ، ومزاولة الدعوة في وسط التيارات والأهواء والمداخل والدروب ؛ وما يصاحب هذا ويلابسه من أدران ومقاذر وأخلاق وشوائب ، تحتاج من الداعية إلى الطهارة الكاملة كي يملك استنقاذ الملوئين دون أن يتلوث ، وملابسة المدنس من غير أن يتدنس .. وهي لفظة دقيقة عميقة إلى ملابسات الرسالة والدعوة والقيام على هذا الأمر بين شتى الأوساط ، وشتى البيئات ، وشتى الظروف ، وشتى القلوب !

ويوجهه إلى هجران الشرك وموجبات العذاب : « والرجز فاهجر » .. والرسول - صلى الله عليه وسلم - كان هاجراً للشرك ولوجبات العذاب حتى قبل النبوة . فقد عافت فطرته السليمة ذلك الانحراف ، وهذا الركام من المعتقدات الشائنة ، وذلك الرجس من الأخلاق والعادات ، فلم يعرف عنه أنه شارك في شيء من خوص الجاهلية . ولكن هذا التوجيه يعني المفاصلة وإعلان التميز الذي لا يصلح فيه ولا هوادة . فهما طريقان مفترقان لا يلتقيان . كما يعني التحرز من دنس هذا الرجز - والرجز في الأصل هو العذاب ، ثم أصبح يطلق على موجبات العذاب - تحرز التطهر من مس هذا الدنس !

ويوجهه إلى إنكار ذاته وعدم المن بما يقدمه من الجهد ، أو استكثاره واستعظامه : « ولا تمنن تستكثر » .. وهو سيقدم الكثير ، وسيزيل الكثير ، وسيلقى الكثير من الجهد والتضحية والعناء . ولكن ربه يريد منه ألا يظل يستعظم ما يقدمه ويستكثره ويمتن به .. وهذه الدعوة لا تستقيم في نفس تحس بما تبذل فيها . فالبذل فيها من الضخامة بحيث لا تحتمله النفس إلا حين تنساه . بل حين لا تستشعره من الأصل لأنها مستغرقة في الشعور بالله ؛ شاعرة بأن كل ما تقدمه هو من فضله ومن عطايه . فهو فضل يمنحها إياه ، وعطاء يختارها له ، ويوفقها لنيله . وهو اختيار واصطفاء وتكريم يستحق الشكر لله . لا المن والاستكثار .

ويوجهه أخيراً إلى الصبر . الصبر لربه : « ولربك فاصبر » .. وهي الوصية التي تنكرر عند كل تكليف بهذه الدعوة أو تثبيت . والصبر هو هذا الزاد الأصيل في هذه المعركة الشاقة . معركة الدعوة إلى الله . المعركة المزدوجة مع شبهوات النفوس وأهواء القلوب ؛ ومع أعداء الدعوة الذين تقودهم شياطين الشهوات وتدفعم شياطين الأهواء ! وهي معركة طويلة عنيفة لا زاد لها إلا الصبر الذي يقصد فيه وجه الله ، ويتجه به إليه احتساباً عنده وحده .

\* \* \*

فإذا انتهى هذا التوجيه الإلهي للنبي الكريم ، اتجه السياق إلى بيان ما ينذر به الآخرين ، في لمسة توقف الحس لليوم العسير ، الذي ينذر بمقدمه النذير :

« فإذا نقر في الناقور . فذلك يومئذ يوم عسير . على الكافرين غير يسير » ..

والنقر في الناقور ، هو ما يعبر عنه في مواضع أخرى بالنفخ في الصور . ولكن التعبير هنا أشد إيحاء بشدة الصوت ورتينه ؛ كأنه نقر يصوت ويدوي . والصوت الذي ينقر الآذان أشد وقعاً من الصوت الذي تسمعه الآذان .. ومن ثم يصف اليوم بأنه عسير على الكافرين ، ويؤكد هذا العسر بنفي كل ظل لليسر فيه : « على الكافرين غير يسير » .. فهو عسر كله . عسر لا يتخلله يسر . ولا يفصل أمر هذا العسر ، بل يدعه مجملأً مجهلاً يوحي بالاختناق والكرب والضيق .. فاجدر الكافرين أن يستمعوا للنذير ، قبل أن ينقر في الناقور ، فيواجههم هذا اليوم العسير العسير !

\* \* \*

ويتنقل من هذا التهديد العام إلى مواجهة فرد بذاته من المكذبين ؛ يبدو أنه كان له دور رئيسي خاص في

التكذيب والتبنيب للدعوة ؛ فيوجه إليه تهديداً ساحقاً ماحقاً ، ويرسم له صورة منكرة تثير الهزء والسخرية من حاله وملامح وجهه ونفسه التي تبرز من خلال الكلمات كأنها حية شاختة متحركة الملامح والسيات : « ذرني ومن خلقت وحيداً ، وجعلت له مالاً ممدوداً ، وبنين شهوداً ، ومهدت له تمهيداً ؛ ثم يطمع أن أزيد ! كلا ! إنه كان لأياتنا عنيداً . سأرهقه صعوداً . إنه فكر وقدر . فقتل ! كيف قدر ؟ ثم قتل ! كيف قدر ؟ ثم نظر ، ثم عبس وبسر ، ثم أدير واستكبر ، فقال : إن هذا إلا سحر يؤثر . إن هذا إلا قول البشر . سأصليه سقر . وما أدراك ما سقر ؟ لا تبقي ولا تذر ، لواحة للبشر ، عليها تسعة عشر... » .

وقد وردت روايات متعددة بأن المعني هنا هو الوليد بن المغيرة المخزومي . قال ابن جرير : حدثنا ابن عبد الأعلى ، حدثنا محمد بن ثور ، عن معمر ، عن عبادة بن منصور ، عن عكرمة ، أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فقرأ عليه القرآن ، فكانه رق له ، فبلغ ذلك أبا جهل بن هشام ، فأتاه فقال له : أي عم ! إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً : قال : لم ؟ قال : يعطونك ، فإنك أتيت محمداً تتعرض لما قبله ( يريد نبخث أن يثير كبريائه من الناحية التي يعرف أن الوليد أشد بها اعتزازاً ) قال : قد علمت قریش أني أكثرها مالاً ! قال : فقل فيه قولاً يعلم قومك أنك منكر لما قال ، وأنت كاره له ! قال : فإذا أقول فيه ؟ فوالله ما منكم رجل أعلم بالأشعار مني ولا أعلم برجزه ولا بقصيده ، ولا بأشعار الجن ! والله ما يشبه الذي يقوله شيئاً من هذا . والله إن لقوله الذي يقوله لحلاوة ، وإنه ليحطم ما تحته ، وإنه ليعلو وما يعلى .. قال : والله لا يرضى قومك حتى تقول فيه .. قال : فدعني حتى أفكر فيه .. فلما فكر قال : إن هذا إلا سحر يؤثره عن غيره . فترلت : « ذرني ومن خلقت وحيداً - حتى بلغ - عليها تسعة عشر » .

وفي رواية أخرى أن قریشاً قالت : لئن صبا الوليد ، لتصبون قریش كلها ! فقال أبو جهل : أنا أكفيكموه ! ثم دخل عليه ! .. وأنه قال بعد التفكير الطويل : إنه سحر يؤثر . أما ترون أنه يفرق بين المرء وأهله وولده ومواليه ؟

هذه هي الواقعة كما جاءت بها الروايات . فأما القرآن فيسوقها هذه السياقة الحية المثيرة .. يبدأ بذلك التهديد القاصم الرهيب . « ذرني ومن خلقت وحيداً » ..

والخطاب للرسول - صلى الله عليه وسلم - ومعناه خل بيني وبين هذا الذي خلقتك وحيداً مجرداً من كل شيء آخر مما يعتز به من مال كثير ممدود وبنين حاضرين شهود ونعم يتبطر بها ويختال ويطلب المزيد . خل بيني وبينه ولا تشغل بالك بمكره وكيد . فأنا سأتولى حربه .. وهنا يرتعش الحس ارتعاشة الفرع المنزل ، وهو يتصور انطلاق القوة التي لا حد لها .. قوة الجبار القهار .. لتسحق هذا المخلوق المضعف المسكين الهزيل الضئيل ! وهي الرعدة التي يطلقها النص القرآني في قلب القارئ والسامع الآمنين منها . فإبال الذي تتجه إليه وتواجهه !

ويطيل النص في وصف حال هذا المخلوق ، وما آتاه الله من نعمه وآلائه ، قبل أن يذكر إعراضه وعناده . فهو قد خلقه وحيداً مجرداً من كل شيء حتى من ثيابه ! ثم جعل له مالاً كثيراً ممدوداً . ورزقه بنين من حوله حاضرين شهوداً ، فهو منهم في أنس وعزوة . ومهد له الحياة تمهيداً ويسرها له تيسيراً .. « ثم يطمع أن أزيد » .. فهو لا يقنع بما أوتي ، ولا يشكر ويكتفي .. أم لعله يطمع في أن ينزل عليه الوحي وأن يعطى كتاباً كما سيجيء في آخر السورة : « بل يريد كل امرئ منهم أن يؤتى صحفاً منشرة » .. فقد كان ممن يحسدون الرسول -

صلى الله عليه وسلم - على إعطائه النبوة .

وهنا يردعه ردةً غنيماً عن هذا الطمع الذي لم يقدم حسنة ولا طاعة ولا شكراً لله يرجو بسببه المزيد :  
« كلا ! » ، وهي كلمة ردع وتبكيث - « إنه كان لآياتنا عنيداً » .. فعائد دلائل الحق وموجبات الإيمان .  
ووقف في وجه الدعوة ، وحارب رسولها ، وصد عنها نفسه وغيره ، وأطلق حوالها الأضاليل .  
ويعقب على الردع بالوعيد الذي يبدل اليسر عسراً ، والتمهيد مشقة !  
« سأرهقه صعوداً » ..

وهو تعبير مصور لحركة المشقة . فالتصعيد في الطريق هو أشق السير وأشدّه إرهاقاً . فإذا كان دفعاً من غير إرادة من المصعد كان أكثر مشقة وأعظم إرهاقاً . وهو في الوقت ذاته تعبير عن حقيقة . فالذي ينحرف عن طريق الإيمان السهل الميسر الودود ، يندب في طريق وعر شاق مبتوت ، ويقطع الحياة في قلق وشدة وكربة وضيق ، كأنما يصعد في السماء ، أو يصعد في وعر صلد لا ري فيه ولا زاد ، ولا راحة ولا أمل في نهاية الطريق !  
ثم يرسم تلك الصورة المبدعة المثيرة للسخرية والرجل يكذ ذهنه ! ويعصر أعصابه ! ويقبض جبينه !  
وتكلم ملامحه وقسماته .. كل ذلك ليجد عيباً يعيب به هذا القرآن ، وليجد قولاً يقوله فيه :  
« إنه فكر وقدر . فقتل ! كيف قدر ؟ ثم قتل ! كيف قدر ؟ ثم نظر . ثم عبس وبسر . ثم أدبر واستكبر . فقال : إن هذا إلا سحر يؤثر . إن هذا إلا قول البشر » ..

لمحة لمحة . وخطرة خطرة . وحركة حركة . يرسمها التعبير ، كما لو كانت ريشة تصور ، لا كلمات تعبر ، بل كما لو كانت فيلماً متحركاً يلتقط المشهد لمحة لمحة !!!  
لقطة وهو يفكر ويدبر ومعه دعوة هي قضاء « فقتل ! » واستنكار كله استهزاء « كيف قدر ؟ » ثم تكرر الدعوة والاستنكار لزيادة الإيحاء بالتكرار .

ولقطة وهو ينظر هكذا وهكذا في جد مصطنع متكلف يوحي بالسخرية منه والاستهزاء .  
ولقطة وهو يقطب حاجبيه عابساً ، ويقبض ملامح وجهه بأسراً ، ليستجمع فكره في هيئة مضحكة !  
وبعد هذا المخاض كله ؟ وهذا الحرق كله ؟ لا يفتح عليه بشيء .. إنما يدبر عن النور ويستكبر عن الحق ..  
فيقول : « إن هذا إلا سحر يؤثر . إن هذا إلا قول البشر ! »

إنها لمحات حية يثبثها التعبير القرآني في المخيلة أقوى مما تثبثها الريشة في اللوحة ؛ وأجمل مما يعرضها الفيلم المتحرك على الأنظار ! وإنها لتدع صاحبها سخرية الساخرين أبد الدهر ، وثبتت صورته الزرية في صلب الوجود ، تتملأها الأجيال بعد الأجيال !

فإذا انتهى عرض هذه اللوحات الحية الشاخسة لهذا المخلوق المضحك ، عقب عليها بالوعيد المفزع :  
« سأصليه سقر » .. وزاد هذا الوعيد تهويلاً بتجهيل سقر : « وما أدراك ما سقر ؟ » .. إنها شيء أعظم وأهول من الإدراك ! ثم عقب على التجهيل بشيء من صفتها أشد هولاً : « لا تبقي ولا تذر » .. فهي تكنس كنساً ، وتبلع بلعاً ، وتمحو محواً ، فلا يقف لها شيء ، ولا يبقى وراءها شيء ، ولا يفضل منها شيء !  
ثم هي تتعرض للبشر وتلوح : « لواحطة للبشر » .. كما قال في سورة المعارج : « تدعو من أدبر وتولى » ..  
فهي تدل على نفسها ، وكأنما تقصد إثارة الفزع في النفوس ، بمنظرها المخيف !  
ويقوم عليها حراس عدتهم : « تسعة عشر » .. لا ندري أهم أفراد من الملائكة الغلاظ الشداد ، أم صفوف



أم أنواع من الملائكة وصنوف . إنما هو خبر من الله سندي شأنه فيما يجيء ..

\*\*\*

فأما المؤمنون فقد تلقوا كلمات الله بالتسليم اللائق بمن وثق بربه ، وتأدب معه أدب العبد مع الرب فلم يعد يماري في خبره وقوله . وأما المشركون فتلقفوا هذا العدد بقلوب خاوية من الإيمان ، عارية من التوفيق لله ، خالية من الجد في تلقي هذا الأمر العظيم . وراحوا يتهاون عليه ويسخرون منه ، ويتخذونه موضعاً للتندر والمزاح ... قال قائل منهم : أليس يشكّل كل عشرة منكم بواحد من هؤلاء التسعة عشر ؟ ! وقال قائل : لا بل اكفوني أتم أمر اثنين منهم وعليّ الباقي أنا أكفيكمهم ! وبمثل هذه الروح المطموسة المغلفة القاضية تلقوا هذا القول العظيم الكريم .

عندئذ نزلت الآيات التالية تكشف عن حكمة الله في الكشف عن هذا الجانب من الغيب ، وذكر هذا العدد ، وترد علم الغيب إلى الله ، وتقرر ما وراء ذكر سقر وحراسها من غاية ينتهي الموقف إليها :

« وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة . وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ، ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ، ويزداد الذين آمنوا إيماناً ، ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون ، وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون : ماذا أراد الله بهذا مثلاً ؟ كذلك يضل الله من يشاء ، ويهدي من يشاء ، وما يعلم جنود ربك إلا هو ، وما هي إلا ذكرى للبشر ... »

تبدأ الآية بتقرير حقيقة أولئك التسعة عشر الذين تمارى فيهم المشركون :

« وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة .. »

فهم من ذلك الخلق الغيب الذي لا يعلم طبيعته وقوته إلا الله ، وقد قال لنا عنهم : إنهم « لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون » فقرر أنهم يطيعون ما يأمرهم به الله ، وأن بهم القدرة على فعل ما يأمرهم . فهم إذن مزودون بالقوة التي يقدرون بها على كل ما يكلفهم الله إياه . فإذا كان قد كلفهم القيام على سقر ، فهم مزودون من قبله سبحانه بالقوة المطلوبة لهذه المهمة ، كما يعلمها الله ، فلا مجال لقهرهم أو مغالبتهم من هؤلاء البشر المضعوفين ! وما كان قولهم عن مغالبتهم إلا وليد الجهل الغليظ بحقيقة خلق الله وتدبيره للأمور .

« وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا .. »

فهم الذين يثير ذكر العدد في قلوبهم رغبة الجدل ؛ ولا يعرفون مواضع التسليم ومواضع الجدل . فهذا الأمر الغيبي كله من شأن الله ، وليس لدى البشر عنه من علم كثير ولا قليل ، فإذا أخبر الله عنه خبراً فهو المصدر الوحيد لهذا الطرف من الحقيقة ، وشأن البشر هو تلقي هذا الخبر بالتسليم ، والاطمئنان إلى أن الخير في ذكر هذا الطرف وحده ، بالقدر الذي ذكره ، وأن لا مجال للجدل فيه ، فالإنسان إنما يجادل فيما لديه عنه علم سابق يناقض الخبر الجديد أو يعايره . أما لماذا كانوا تسعة عشر (أيأ كان مدلول هذا العدد) فهو أمر يعلمه الله الذي ينسق الوجود كله ، ويخلق كل شيء بقدر . وهذا العدد كغيره من الأعداد . والذي ينبغي الجدل يمكنه أن يجادل وأن يعترض على أي عدد آخر وعلى أي أمر آخر بنفس الاعتراض .. لماذا كانت السماوات سبعاً ؟ لماذا كان خلق الإنسان من صلصال كالفخار وخلق الجنان من مارج من نار ؟ لماذا كان حمل الجنين تسعة أشهر ؟ لماذا تعيش السلاحف آلاف السنين ؟ لماذا ؟ لماذا ؟ لماذا ؟ والجواب : لأن صاحب الخلق والأمر يريد ويفعل ما يريد ! هذا هو فصل الخطاب في مثل هذه الأمور ..

« ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ، ويزداد الذين آمنوا إيماناً ، ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون .. »

فهؤلاء وهؤلاء سيجدون في عدد حراس سقر ما يدعو بعضهم إلى اليقين ويدعو البعض إلى ازدياد الإيمان . فأما الذين أوتوا الكتاب فلا بد أن لديهم شيئاً عن هذه الحقيقة ، فإذا سمعوا من القرآن استيقنوا أنه مصدق لما بين يديهم عنها . وأما الذين آمنوا فكل قول من ربهم يزيدهم إيماناً . لأن قلوبهم مفتوحة موصولة لتلقى الحقائق تلقياً مباشراً ؛ وكل حقيقة ترد إليها من عند الله تزيدها أنساً بالله .. وستشعر قلوبهم بحكمة الله في هذا العدد ، وتقديره الدقيق في الخلق ، فتزيد قلوبهم إيماناً . وثبتت هذه الحقيقة في قلوب هؤلاء وهؤلاء فلا يرتابون بعدها فيما يأتيهم من عند الله .

« وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون : ماذا أراد الله بهذا مثلاً؟ » ..

وهكذا ترك الحقيقة الواحدة أثرين مختلفين في القلوب المختلفة .. فبينما الذين أوتوا الكتاب يستيقنون ، والذين آمنوا يزيدون إيماناً ، إذا بالذين كفروا وضعاف القلوب المنافقون في حيرة يتساءلون : « ماذا أراد الله بهذا مثلاً؟ » .. فهم لا يدركون حكمة هذا الأمر الغريب . ولا يسلمون بحكمة الله المطلقة في تقدير كل خلق . ولا يطمثون إلى صدق الخبر والخير الكامن في إخراجه من عالم الغيب إلى عالم الشهادة ..

« كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء » ..

كذلك . بذكر الحقائق وعرض الآيات . فتتلقاها القلوب المختلفة تلقياً مختلفاً . ويهتدي بها فريق وفق مشيئة الله ؛ ويضل بها فريق حسب مشيئة الله . فكل أمر مرجعه في النهاية إلى إرادة الله المطلقة التي ينتهي إليها كل شيء . وهؤلاء البشر خرجوا من يد القدرة باستعداد مزدوج للهدى وللضلال ؛ فن اهتدى ومن ضل كلاهما يتصرف داخل حدود المشيئة التي خلقتهم بهذا الاستعداد المزدوج ، ويسرت لهم التصرف في هذا أو ذاك ، في حدود المشيئة الطليقة ، ووفق حكمة الله المكنونة .

وتصور طلاقة المشيئة وانتهاء كل ما يقع في هذا الوجود إليها تصوراً كاملاً واسع المدلول ، يعني العقول من الجدل الضيق حول ما يسمونه الجبر والإرادة . وهو الجدل الذي لا ينتهي إلى تصور صحيح ، بسبب أنه يتناول المسألة من زاوية ضيقة ، ويضعها في أشكال محددة نابعة من منطق الإنسان وتجاربه وتصورات المحدودة ! بينما هو يعالج قضية من قضايا الألوهية غير المحدودة !

لقد كشف الله لنا عن طريق الهدى وطريق الضلال . وحدد لنا نهجاً نسلكه فنهتدي ونسعد ونفوز . وبين لنا نهجاً ننحرف إليها فنضل ونشتى ونحسر . ولم يكلفنا أن نعلم وراء ذلك شيئاً ، ولم يهيننا القدرة على علم شيء وراء هذا . وقال لنا : إن إرادتي مطلقة وإن مشيئتي نافذة .. فعلياً أن نعالج - بقدر طاقنا - تصور حقيقة الإرادة المطلقة والمشية النافذة . وأن نلتزم التهج الهادي ونتجنب التهج المضلل . ولا نشغل في جدل عقيم حول ما لم نوهب القدرة على إدراك كنهه من الغيب المكنون . ومن ثم ننظر فترى كل ما أنفقه المتكلمون في مسألة القدر على النحو الذي تكلموا به جهداً ضائعاً لا طائل وراءه لأنه في غير ميدانه ..

إننا لا نعلم مشيئة الله الغيبية بنا ، ولكننا نعلم ماذا يطلب الله منا لنستحق فضله الذي كتبه على نفسه . وعلينا إذن أن ننقذ طاقنا في أداء ما كلفنا ، وأن ندع له هو غيب مشيئته فينا . والذي سيكون هو مشيئته ، وعندما يكون سنعرف أن هذه مشيئته لا قبل كونه ! والذي سيكون وراءه حكمة يعرفها العلم بالكل المطلق .. وهو الله وحده .. وهذا هو طريق المؤمن في التصور ومنهجه في التفكير ..

« وما يعلم جنود ربك إلا هو » ..

فهي غيب . حقيقتها . ووظيفتها . وقدرتها .. وهو يكشف عما يريد الكشف عنه من أمرها ، وقوله هو الفصل

في شأنها . وليس لقائل بعده أن يجادل أو يباحك أو يحاول معرفة ما لم يكشف الله عنه ، فليس إلى معرفة هذا من سبيل ..

« وما هي إلا ذكرى للبشر » ..

« وهي » إما أن تكون هي جنود ربك ، وإما أن تكون هي سقر ومن عليها . وهي من جنود ربك . وذكرها جاء لينبه ويحذر ، لا لتكون موضوعاً للجدل والمحاكة ! والقلوب المؤمنة هي التي تتعظ بالذكرى ، فأما القلوب الفسالة فتتخذها مباحكة وجدلاً !

\* \* \*

ويعقب على هذه الوقفة التقريرية لهذه الحقيقة من حقائق الغيب ، ولما هاج التصور الهادية والمضلة .. يعقب على هذا بربط حقيقة الآخرة ، وحقيقة سقر ، وحقيقة جنود ربك ، بظواهر الوجود المشهودة في هذا العالم ، والتي يمر عليها البشر غافلين ، وهي تضي بتقدير الإرادة الخالقة وتديرها ، وتوحي بأن وراء هذا التقدير والتدبير قصداً وغاية ، وحساباً وجزاء :

« كلا والقمر . والليل إذا أدير . والصبح إذا أسفر . إنها لإحدى الكبر . نذيراً للبشر » ..

ومشاهد القمر ، والليل حين يدبر ، والصبح حين يسفر .. مشاهد موحية بذاتها ، تقول للقلب البشري أشياء كثيرة ، وتمس في أعماقه بأسرار كثيرة ، وتستجيش في أغواره مشاعر كثيرة . والقرآن يلمس بهذه الإشارة السريعة مكان هذه المشاعر والأسرار في القلوب التي يخاطبها ، على خبرة بمدخلها ودروبها !

وقل أن يستيقظ قلب لمشهد القمر حين يطلع وحين يسري وحين يغيب .. ثم لا يبي عن القمر شيئاً يمس له به من أسرار هذا الوجود ! وإن وقفة في نور القمر أحياناً لتغسل القلب كما لو كان يستحم بالنور !

وقل أن يستيقظ قلب لمشهد الليل عند إدباره ، في تلك الهدأة التي تسبق الشروق ، وعندما يبدأ هذا الوجود كله يفتح عينيه ويفيق .. ثم لا ينطبع فيه أثر من هذا المشهد وتدب في أعماقه خطرات رفاقة شفاقة .

وقل أن يستيقظ قلب لمشهد الصبح عند إسفاره وظهوره ، ثم لا تنبض فيه نابضة من إشراف وتفتح وانتقال شعوري من حال إلى حال ، يجعله أشد ما يكون صلاحية لاستقبال النور الذي يشرق في الضمائر مع النور الذي يشرق في النواظر .

والله الذي خلق القلب البشري يعلم أن هذه المشاهد بذاتها تصنع فيه الأعاجيب في بعض الأحيان ، وكأنها تخلفه من جديد .

وراء هذه الانبعاثات والإشراقات والاستقبالات ما في القمر ، وما في الليل ، وما في الصبح من حقيقة عجيبة هائلة يوجه القرآن إليها المدارك ، وينبه إليها العقول . ومن دلالة على القدرة المبدعة والحكمة المدبرة ، والتنسيق الإلهي لهذا الكون ، بتلك الدقة التي يحير تصورها العقول .

ويقسم الله سبحانه بهذه الحقائق الكونية الكبيرة لتنبيه الغافلين لأقدارها العظيمة ، ودلالاتها المثيرة . يقسم على أن « سقر » أو الجنود التي عليها ، أو الآخرة وما فيها ، هي إحدى الأمور الكبيرة العجيبة المنذرة للبشر بما وراءهم من خطر :

« إنها لإحدى الكبر ، نذيراً للبشر » ..

والقسم ذاته ، ومحتوياته ، والمقسم عليه بهذه الصورة .. كلها مطارق تطرق قلوب البشر بعنف وشدة ،

وتتسق مع النقر في الناقور ، وما يتركه من صدى في الشعور . ومع مطلع السورة بالنداء الموقظ : « يا أيها المدثر » والأمر بالندارة : « قم فأنذر » .. فالجو كله نقر وطرق وخطر !!

\* \* \*

وفي ظل هذه الإيقاعات المثيرة الخطيرة يعلن تبعه كل نفس لذاتها وعلى ذاتها ؛ ويدع للنفوس أن تختار طريقها ومصيرها ، ويعلم لها أنها مأخوذة بما تكسبه باختيارها ، مرهونة بأعمالها وأوزارها :

« لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر . كل نفس بما كسبت رهينة » ..

فكل فرد يحمل هم نفسه وتبعها ، ويضع نفسه حيث شاء أن يضعها ، يتقدم بها أو يتأخر ، ويكرمها أو يهينها . فهي رهينة بما تكسب ، مقيدة بما تفعل . وقد بين الله للنفوس طريقه لتسلك إليه على بصيرة ، وهو إعلان في مواجهة المشاهد الكونية الموحية ، ومشاهد سقر التي لا تبقي ولا تذر .. له وقفه وله قيسته !

وعلى مشهد النفوس الراهنة بما كسبت ، المقيدة بما فعلت ، يعلن إطلاق أصحاب اليمين من العقاب ، وإرسالهم من القيد ، وتحويلهم حق سؤال المجرمين عما انتهى بهم إلى هذا المصير :

« إلا أصحاب اليمين ، في جنات يتساءلون عن المجرمين : ما سلككم في سقر ؟ قالوا : لم نك من المصلين ، ولم نك نطعم المسكين ، وكنا نخوض مع الخائضين ، وكنا نكذب بيوم الدين ، حتى آتانا اليقين » ..

وانطلاق أصحاب اليمين وانفلاتهم من الرهن والقيد موكول إلى فضل الله الذي يبارك حسناتهم ويضاعفها . وإعلان ذلك في هذا الموقف وعرضه يلمس القلوب لمسة مؤثرة . يلمس قلوب المجرمين المكذبين ، وهم يرون أنفسهم في هذا الموقف المهين ، الذي يعترفون فيه فيطيلون الاعتراف ، بينما المؤمنون الذين كانوا لا يحفلونهم في الدنيا ، ولا يبالونهم ، في موقف الكرامة والاستعلاء ، يسألونهم سؤال صاحب الشأن المفوض في الموقف : « ما سلككم في سقر ؟ » .. ويلمس قلوب المؤمنين الذين كانوا يلاقون من المجرمين ما يلاقون في الأرض ، وهم يجدون أنفسهم اليوم في هذا المقام الكريم وأعداءهم المستكبرين في ذلك المقام المهين .. وقوة المشهد تلقي في نفوس الفريقين أنه قائم اللحظة وأنهم فيه قائمون .. وتطوي صفحة الحياة الدنيا بما فيها كأنه ماض انتهى وولى !

والاعتراف الطويل المفصل يتناول الجرائر الكثيرة التي اتهمت بالمجرمين إلى سقر ، يعترفون بها هم بأنفسهم في ذلة المستكين أمام المؤمنين :

« قالوا : لم نك من المصلين » .. وهي كناية عن الإيمان كله ، تشير إلى أهمية الصلاة في كيان هذه العقيدة ، وتجعلها رمز الإيمان ودليله ، يدل إنكارها على الكفر ، ويعزل صاحبها عن صف المؤمنين .

« ولم نك نطعم المسكين » .. وهذه تلي عدم الإيمان ، بوصفها عبادة الله في خلقه ، بعد عبادته - سبحانه - في ذاته . ويدل ذكرها بهذه القوة في مواضع شتى على الحالة الاجتماعية التي كان القرآن يواجهها ، وانقطاع الإحسان للفقير في هذه البيئة القاسية ، على الرغم من الفخر بالكرم في مواضع المفاخرة والاختيال ، مع تركه في مواضع الحاجة والعطف الخالص البريء .

« وكنا نخوض مع الخائضين » .. وهي تصف حالة الاستهتار بأمر العقيدة ، وحقيقة الإيمان ، وأخذها مأخذ الهزل واللعب والخوض بلا مبالاة ولا احتفال . وهي أعظم الجذو وأخطر الأمر في حياة الإنسان ؛ وهي الشأن الذي ينبغي أن يفصل فيه ضميره وشعوره قبل أن يتناول أي شأن آخر من شؤون هذه الحياة ، فعلى أساسها

يقوم تصوره وشعوره وقيمه وموازينه . وعلى ضوءها يمضي في طريق الحياة . فكيف لا يقطع فيها برأي ولا يأخذها مأخذ الجد ؟ ونحوه فيها مع الخائضين ، ويلعب فيها مع اللاعبين ؟

« وكنا نكذب بيوم الدين » وهذه أس البلايا . فالذي يكذب بيوم الدين تختل في يده جميع الموازين ، وتضطرب في تقديره جميع القيم ، ويضيق في حسه مجال الحياة ، حين يقتصر على هذا العمر القصير المحدود في هذه الأرض ؛ وبقيس عواقب الأمور بما يتم منها في هذا المجال الصغير القصير ، فلا يطمئن إلى هذه العواقب ، ولا يحسب حساب التقدير الأخير الخطير .. ومن ثم تفسد مقاييسه كلها ويفسد في يده كل أمر من أمور هذه الدنيا ، قبل أن يفسد عليه تقديره للآخرة ومصيره فيها .. وينتهي من ثم إلى شر مصير . والمجرمون يقولون : إننا ظللنا على هذه الأحوال ، لا نصلي ، ولا نطعم المسكين ، ونحوه مع الخائضين ، ونكذب بيوم الدين ..

« حتى أتانا اليقين » .. الموت الذي يـ . كل شك وينهي كل ريب ، ويفصل في الأمر بلا مرد .. ولا يترك مجالاً لندم ولا توبة ولا عمل صالح .. بعد اليقين .. ويعقب السياق على الموقف السيئ المهين ، بقطع كل أمل في تعديل هذا المصير : « فما تنفعهم شفاعا الشافعين » ..

فقد قضي الأمر ، وحق القول ، وقرر المصير ، الذي يليق بالمجرمين المعترفين ! وليس هنالك من يشفع للمجرمين أصلاً . وحتى على فرض ما لا وجود له فما تنفعهم شفاعا الشافعين !

• • •

وأمام هذا الموقف المهين الميؤس منه في الآخرة ، يردهم إلى موقعهم في الفرصة المتاحة لهم في الأرض قبل مواجهة ذلك الموقف ؛ وهم يصدون عنها ويعرضون ، بل يفرون من الهدى والخير ووسائل النجاة المعروضة عليهم فيها ، ويرسم لهم صورة مضحكة تثير السخرية والعجب من أمرهم الغريب : « فما لهم عن التذكرة معرضين ؟ كأنهم حمر مستنفرة ، فرت من قسورة ؟ » ..

ومشهد حمر الوحش وهي مستنفرة تفر في كل اتجاه ، حين تسمع زئير الأسد وتحشاه . مشهد يعرفه العرب . وهو مشهد عنيف الحركة . مضحك أشد الضحك حين يشبه به الآدميون ! حين يخافون ! فكيف إذا كانوا إنما يفرون هذا النفار الذي يتحولون به من آدميين إلى حمر ، لأنهم خائفون مهذدون بل لأن مذكراً يذكركم بربهم وبمصيرهم ، ويمهد لهم الفرصة ليتقوا ذلك الموقف الزري المهين ، وذلك المصير العصيب الألم ؟ ! إنها الريشة المبدعة ترسم هذا المشهد وتسجله في صلب الكون ، تملأه النفوس ، فتخجل وتستنكف أن تكون فيه ، ويروح النافرون المعرضون أنفسهم يتوارون من الخجل ، ويظامنون من الإعراض والنفار ، مخافة هذا التصوير الحي العنيف !

• • •

تلك هيئتهم الخارجية . « حمر مستنفرة ، فرت من قسورة » ثم لا يدعهم حتى يرسم نفوسهم من الداخل ، وما يتعلج فيها من المشاعر :

« بل يريد كل امرئ منهم أن يؤتى صحفاً منشرة » ..

فهو الحسد للنبي - صلى الله عليه وسلم - أن يختاره الله ويوحى إليه ؛ والرغبة الملحة أن ينال كل منهم هذه

المنزلة ، وأن يؤتى صحفاً تنشر على الناس وتعلن .. ولا بد أن الإشارة هنا كانت بصدد الكبراء الذين شق عليهم أن يتخطاهم الوحي إلى محمد بن عبد الله ، فقالوا : « لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ؟ » .. ولقد علم الله أين يضع رسالته واختار لها ذلك الإنسان الكريم الكبير العظيم . فكان الحق الذي يغلي في الصدور ، والذي يكشف عنه القرآن ، وهو يعلل ذلك الشماس والنفار !

ثم يستمر في رسم صورة النفوس من داخلها ، فيضرب عما ذكره من ذلك الطمع والحسد ، ويذكر سبباً آخر للإعراض والجحود . وهو يردع في نفوسهم ذلك الطمع الذي لا يستند إلى سبب من صلاح ولا من استعداد لتلقي وحي الله وفضله :

« كلا ! بل لا يخافون الآخرة » ..

وعدم خوفهم من الآخرة هو الذي ينأى بهم عن التذكرة ، وينفرهم من الدعوة هذه النفرة . ولو استشعرت قلوبهم حقيقة الآخرة لكان لهم شأن غير هذا الشأن المريب !

ثم يردعهم مرة أخرى ، وهو يلقي إليهم بالكلمة الأخيرة ، ويدعهم لما يختارون لأنفسهم من طريق ومصير :

« كلا ! إنه تذكرة . فمن شاء ذكره » ..

إنه ، هذا القرآن الذي يعرضون عن سماعه ، وينفرون كالحمر ، وهم يضمرون في أنفسهم الحسد لمحمد ، والاستهتار بالآخرة .. إنه تذكرة تنبه وتذكر . فمن شاء فليذكر . ومن لم يشأ فهو وشأنه ، وهو ومصيره ، وهو وما يختار من جنة وكرامة ، أو من سقر ومهانة ..

\* \* \*

وبعد أن يثبت مشيتهم في اختيار الطريق يعقب بطلاقة المشيئة الإلهية ، وعودة الأمور إليها في النهاية . وهي الحقيقة التي يحرص القرآن على تقريرها في كل مناسبة لتصحيح التصور الإيماني من ناحية طلاقة المشيئة الإلهية وشمولها الكامل الأخير ، وراء جميع الأحداث والأمور :

« وما يذكرون إلا أن يشاء الله ، هو أهل التقوى وأهل المغفرة » ..

فكل ما يقع في هذا الوجود ، مشدود إلى المشيئة الكبرى ، يمضي في اتجاهها وفي داخل مجالها . فلا يقع أن يشاء أحد من خلقه ما يتعارض مع مشيئته ، ومشيئته تسيطر على أقدار الوجود كله ، وهي التي أنشأته وأنشأت نواحيه وسننه ، فهو يمضي بكل ما فيه وكل من فيه في إطار من تلك المشيئة المطلقة من كل إطار ومن كل حد ومن كل قيد .

والذكر توفيق من الله يسره لمن يعلم من حقيقة نفسه أنه يستحق التوفيق . والقلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقبلها كيف يشاء . فإذا علم من العبد صدق النية وجهه إلى الطاعات .

والعبد لا يعرف ماذا يشاء الله به . فهذا من الغيب المحجوب عنه . ولكنه يعرف ماذا يريد الله منه ، فهذا مما بينه له . فإذا صدقت نيته في النهوض بما كلف أعانه الله ووجهه وفق مشيئته الطليقة .

والذي يريد القرآن أن يطبعه في حس المسلم هو طلاقة هذه المشيئة ، وإحاطتها بكل مشيئة ، حتى يكون التوجه إليها من العبد خالصاً ، والاستسلام لها محضاً .. فهذه هي حقيقة الإسلام القلبية التي لا يستقر في قلب بدونها . وإذا استقرت فيه كيفيته تكييفياً خاصاً من داخله ، وأنشأت فيه تصوراً خاصاً يحكمهم إليه في كل أحداث الحياة .. وهذا هو المقصود ابتداء من تقرير طلاقة المشيئة الإلهية وشمولها عقب الحديث عن كل وعد

بجنة أو نار ، ويهذى أو ضلال .

فأما أخذ هذا الإطلاق ، والانحراف به إلى جدل حول الجبر والاختيار ، فهو اقتطاع لجانب من تصور كلي وحقيقة مطلقة ، والتحيز بها في درب ضيق مغلق لا ينتهي إلى قول مريح . لأنها لم تنجى في السياق القرآني لمثل هذا التحيز في الدرب الضيق المغلق !

« وما يذكرون إلا أن يشاء الله » .. فهم لا يصادمون بمشيئتهم مشيئة الله ، ولا يتحركون في اتجاه ، إلا بإرادة من الله ، تقدرهم على الحركة والاتجاه .

والله « هو أهل التقوى » .. يستحقها من عباده . فهم مطالبون بها ..

« وأهل المغفرة » .. يتفضل بها على عباده وفق مشيئته .

والتقوى تستأهل المغفرة ، والله – سبحانه – أهل لها جميعاً .

\* \* \*

بهذه التسبيحة الخاشعة تحتم السورة ، وفي النفس منها تطلع إلى وجه الله الكريم ، أن يشاء بالتوفيق إلى الذكر ، والتوجيه إلى التقوى ، والتفضل بالمغفرة .

« هو أهل التقوى وأهل المغفرة » ..

\* \* \*

## (٧٥) سُورَةُ الْقِيَامَةِ مَكِّيَّةٌ وَآيَاتُهَا أَرْبَعُونَ

### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَا أَقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَمَةِ ۝ وَلَا أَقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ۝ أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ تَجْمَعَ عِظَامَهُ ۝ بَلَىٰ قَدَرِينِ ۝ عَلَىٰ أَنْ تُسَوَّىٰ بَنَانُهُ ۝ بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ۝ يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَمَةِ ۝ فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ ۝ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ۝ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ۝ يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُ ۝ كَلَّا لَا وَزَرَ ۝ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ۝ يُنْبِئُوا الْإِنْسَانَ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۝ بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ۝ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِرَهُ ۝

لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ۝ إِنْ عَلَيْنَا جُمُوعُهُ وَقُرْءَانُهُ ۝ فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاتَّبِعْ قُرْءَانَهُ ۝ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيِّنَاتِهِ ۝

كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ۝ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ۝ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ۝ تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ۝

كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ النَّفْسُ الرَّاقِيَّ ۝ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ۝ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ۝ وَالْتَفَتِ إِلَىٰ آلِهَا بِالسَّاقِ ۝ إِنَّ رَبَّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ۝ فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّىٰ ۝ وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ بِتَمَطُّيٍّ ۝

أَوَّلَىٰ لَكَ فَأَوَّلَىٰ ۝ ثُمَّ أَوَّلَىٰ لَكَ فَأَوَّلَىٰ ۝ أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ۝ أَلَيْسَ لَكَ نُفُثَةٌ مِّنْ



مَنْ يُمْئِي ۝ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ خَلْقِكَ فَسْوًى ۝ فَعَلَّ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ۝ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقْدِرٍ عَلَى أَنْ يُخْشِيَ الْمُؤْمِنِينَ ۝

هذه السورة الصغيرة تحشد على القلب البشري من الحقائق والمؤثرات والصور والمشاهد ، والإيقاعات واللمسات ، ما لا قبل له بمواجهته ولا التفلت منه .. تحشد بها بقوة ، في أسلوب خاص ، يجعل لها طابعاً قرآنياً مميزاً ، سواء في أسلوب الأداء التعبيري ، أو أسلوب الأداء الموسيقي ، حيث يجتمع هذا وذلك على إيقاع تأثير شعوري قوي ، تصعب مواجهته ويصعب التفلت منه أيضاً !

إنها تبدأ في الآيتين الأوليين منها بإيقاع عن القيامة ، وإيقاع عن النفس : « لا أقسم بيوم القيامة ولا أقسم بالنفس اللوامة » .. ثم يستطرد الحديث فيها متعلقاً بالنفس ومتعلقاً بالقيامة ، من المطلع إلى الختام ، تزواج بين النفس وبين القيامة حتى تنتهي . وكأن هذا المطلع إشارة إلى موضوع السورة . أو كأنه اللازمة الإيقاعية التي ترتد إليها كل إيقاعات السورة ، بطريقة دقيقة جميلة ..

من تلك الحقائق الكبيرة التي تحشد بها هذه السورة في مواجهة القلب البشري ، وتضرب بها عليه حصاراً لا مهرب منه .. حقيقة الموت القاسية الرهيبة التي تواجه كل حي ، فلا يملك لها رداً ، ولا يملك لها أحداً من حوله دعفاً . وهي تنكرر في كل لحظة ، ويواجهها الكبار والصغار ، والأغنياء والفقراء ، والأقوياء والضعاف ، ويقف الجميع منها موقفاً واحداً .. لا حيلة . ولا وسيلة . ولا قوة . ولا شفاعة . ولا دفع . ولا تأجيل .. مما يوحي بأنها قادمة من جهة عليا لا يملك البشر معها شيئاً . ولا مفر من الاستسلام لها ، والاستسلام لإرادة تلك الجهة العليا .. وهذا هو الإيقاع الذي تمس به السورة القلوب وهي تقول : « كلا ! إذا بلغت التراقي ، وقيل : من راق ؟ وظن أنه الفراق . والتفت الساق بالساق .. إلى ربك يومئذ المساق » ..

ومن تلك الحقائق الكبيرة التي تعرضها السورة ، حقيقة النشأة الأولى ، ودلالاتها على صدق الخبر بالنشأة الأخرى ، وعلى أن هناك تدبيراً في خلق هذا الإنسان وتقديره . وهي حقيقة يكشف الله للناس عن دقة أدوارها وتتابعها في صناعة مبدعة ، لا يقدر عليها إلا الله ، ولا يدعيها أحد ممن يكذبون بالآخرة ويتبارون فيها . فهي قاطعة في أن هناك لها واحداً يدبر هذا الأمر ويقدره ، كما أنها بينة لا ترد على يسر النشأة الآخرة ، وإيحاء قوي بضرورة النشأة الآخرة ، تمهيداً مع التقدير والتدبير الذي لا يترك هذا الإنسان سدى ، ولا يدع حياته وعمله بلا وزن ولا حساب .. وهذا هو الإيقاع الذي تمس السورة به القلوب وهي تقول في أولها : « أيعسب الإنسان أن لن نجمع عظامه ؟ » ثم تقول في آخرها : « أيعسب الإنسان أن يترك سدى ؟ ألم يك نطفة من مني يمئى ؟ ثم كان علقة مخلق فسوى ؟ فجعل منه الزوجين : الذكر والأنثى ؟ أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى ؟ » ..

ومن المشاهد المؤثرة التي تحشد بها السورة ، وتواجه بها القلب البشري مواجهة قوية .. مشهد يوم القيامة وما يجري فيه من انقلابات كونية ، ومن اضطرابات نفسية ، ومن حيرة في مواجهة الأحداث الغالبة حيث يتجلى الهول في صمم الكون ، وفي أغوار النفس وهي تروغ من هنا ومن هناك كالغفار في المصيدة ! وذلك رداً على تساؤل الإنسان عن يوم القيامة في شك واستبعاد ليومها الغيب ، واستهانة بها ولجاج في الفجور . فيجاء الرد في إيقاعات سريعة ، ومشاهد سريعة ، وومضات سريعة : « بل يريد الإنسان ليفجر أمامه . يسأل :

أيان يوم القيامة ؟ فإذا برق البصر ، وخسف القمر ، وجمع الشمس والقمر ، يقول الإنسان يومئذ : أين المفر ؟ كلا ! لا وذر ، إلى ربك يومئذ المستقر ، ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر . بل الإنسان على نفسه بصيرة ، ولو ألقى معاذيره ! ..

ومن هذه المشاهد مشهد المؤمنين المطمئنين إلى ربهم ، المتطلعين إلى وجهه الكريم في ذلك الهول . ومشهد الآخرين المقطوعي الصلة بالله ، وبالرجاء فيه ، المتوقعين عاقبة ما أسلفوا من كفر ومعصية وتكذيب . وهو مشهد يعرض في قوة وحيوية كأنه حاضر لحظة قراءة القرآن . وهو يعرض رداً على حب الناس للعاجلة ، وإهمالهم للآخرة . وفي الآخرة يكون هذا الذي يكون : « كلا ! بل تحبون العاجلة ، وتذرون الآخرة . وجوه يومئذ ناضرة ، إلى ربها ناظرة . وجوه يومئذ باسرة ، تظن أن يفعل بها فاقرة ! » ..

وفي ثانيا السورة وحقاتها تلك ومشاهدها تعرض أربع آيات تحتوي توجيهاً خاصاً للرسول - صلى الله عليه وسلم - وتعليماً له في شأن تلقي هذا القرآن . ويبدو أن هذا التعليم جاء بمناسبة حاضرة في السورة ذاتها . إذ كان الرسول - صلى الله عليه وسلم - يخاف أن ينسى شيئاً مما يوحى إليه ، فكان حرصه على التحرز من النسيان يدفعه إلى استذكار الوحي فقرة فقرة في أثناء تلقيه ، وتحريك لسانه به ليستوثق من حفظه . فجاءه هذا التعليم : « لا تحرك به لسانك لتعجل به ، إن علينا جمعه وقرآنه ، فإذا قرأناه ، فاتبع قرآنه ، ثم إن علينا بيانه » .. جاءه هذا التعليم ليطمئنه إلى أن أمر هذا الوحي ، وحفظ هذا القرآن ، وجمعه ، وبيان مقاصده .. كل أولئك موكول إلى صاحبه . ودوره هو ، هو التلقي والبلاغ . فليطمئن بالاً ، وليلتق الوحي كاملاً ، فيجده في صدره منقوشاً ثابتاً .. وهكذا كان .. فأما هذا التعليم فقد ثبت في موضعه حيث نزل .. أليس من قول الله ؟ وقول الله ثابت في أي غرض كان ؟ ولأي أمر أراد ؟ وهذه كلمة من كلماته تثبت في صلب الكتاب شأنها شأن بقية الكتاب .. ودلالة إثبات هذه الآيات في موضعها هذا من السورة دلالة عميقة موحية على حقيقة لطيفة في شأن كل كلمات الله في أي اتجاه .. وفي شأن هذا القرآن وتضمنه لكل كلمات الله التي أوحى بها إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - لم يخرم منها حرف ، ولم تند منها عبارة . فهو الحق والصدق والتخرج والوقار !

\* \* \*

وهكذا يشعر القلب - وهو يواجه هذه السورة - أنه محاصر لا يهرب . مأخوذ بعمله لا يفلت . لا ملجأ له من الله ولا عاصم . مقدرة نشأته وخطواته بعلم الله وتديبره ، في النشأة الأولى وفي النشأة الآخرة سواء ، بينا هو يلهو ويلعب ويغتر ويتبطر : « فلا صدق ولا صلى ولكن كذب وتولى . ثم ذهب إلى أهله يتمطى » .. وفي مواجهة تلك الحشود من الحقائق والمؤثرات واللمسات والإبهاات يسمع التهديد الملفوف : « أولى لك فأولى . ثم أولى لك فأولى » فيكون له وقعه ومعناه !

وهكذا تعالج السورة عناد هذا القلب وإعراضه وإصراره وهوه . وتشعره بالجد الصارم الحازم في هذا الشأن ، شأن القيامة ، وشأن النفس ، وشأن الحياة المقدرة بحساب دقيق . ثم شأن هذا القرآن الذي لا يخرم منه حرف ، لأنه من كلام العظيم الجليل ، الذي تتجاوب جنبات الوجود بكلماته ، وتثبت في سجل الكون الثابت ، وفي صلب هذا الكتاب الكريم .

\* \* \*

وقد عرضنا نحن لحقائق السورة ومشاهدها فرادى لمجرد البيان . وهي في نسق السورة شيء آخر . إذ أن تتابعها في السياق ، والمزاوجة بينها هنا وهناك ، ولمسة القلب بجانب من الحقيقة مرة ، ثم العودة إليه بالجانب

الآخر بعد فترة .. كل ذلك من خصائص الأسلوب القرآني في مخاطبة القلب البشري ؛ مما لا يبلغ إليه أسلوب آخر ، ولا طريقة أخرى ..

فلنأخذ في مواجهة السورة كما هي في سياقها القرآني الخاص :

\* \* \*

« لا أقسم بيوم القيامة ، ولا أقسم بالنفس اللوامة ، أychبب الإنسان أن لن يجمع عظامه ؟ بلى قادرين على أن نسوي بنانه ، بل يريد الإنسان ليفجر أمامه ، يسأل : أياي يوم القيامة ؟ فإذا برق البصر ، وخبف القمر ، وجمع الشمس والقمر .. يقول الإنسان يومئذ : أين المفر ؟ كلا لا وزر . إلى ربك يومئذ المستقر ، ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر ، بل الإنسان على نفسه بصيرة ، ولو ألقى معاذيره » ..

هذا التلويح بالقسم مع العدول عنه أوقع في الحسن من القسم المباشر ؛ وهذا الوقع هو المقصود من العبارة ، وهو يتم أحسن تمام بهذا الأسلوب الخاص ، الذي يتكرر في مواضع مختلفة من القرآن .. ثم تبرز من وراءه حقيقة القيامة وحقيقة النفس اللوامة .

وحقيقة القيامة سيرد عنها الكثير في مواضعه في السورة . فأما النفس اللوامة ففي التفسيرات المأثورة أقوال متنوعة عنها .. فعن الحسن البصري : إن المؤمن والله ما تراه إلا يلوم نفسه : ما أردت بكلمتي ؟ ما أردت بأردت بحديث نفسي ؟ وإن الفاجر يمضي قدماً ما يعاتب نفسه .. وعن الحسن : ليس أحد من أهل السماوات والأرضين إلا يلوم نفسه يوم القيامة .. وعن عكرمة : تلوم على الخير والشر : لو فعلت كذا وكذا ! كذلك عن سعيد بن جبير .. وعن ابن عباس : هي النفس اللؤوم . وعنه أيضاً : اللوامة المذمومة . وعن مجاهد : تندم على ما فات وتلوم عليه .. وعن قتادة : الفاجرة .. وقال جرير : وكل هذه الأقوال متقاربة المعنى ، والأشبه بظاهر التنزيل أنها تلوم صاحبها على الخير والشر ، وتندم على ما فات .

ونحن نختار في معنى « النفس اللوامة » قول الحسن البصري : « إن المؤمن والله ما تراه إلا يلوم نفسه : ما أردت بكلمتي ؟ ما أردت بأردت بحديث نفسي ؟ وإن الفاجر يمضي قدماً ما يعاتب نفسه » .. فهذه النفس اللوامة المتيقظة التقية الخائفة المتوجسة التي تحاسب نفسها ، وتلتفت حولها ، وتبين حقيقة هواها ، وتحذر خداع ذاتها هي النفس الكريمة على الله ، حتى ليذكرها مع القيامة . ثم هي الصورة المقابلة للنفس الفاجرة . نفس الإنسان الذي يريد أن يفجر ويمضي قدماً في الفجور ، والذي يكذب ويتولى ويذهب إلى أهله يتمطى دون حساب لنفسه ودون تلوم ولا تخرج ولا مبالاة !

« لا أقسم بيوم القيامة ، ولا أقسم بالنفس اللوامة » .. على وقوع هذه القيامة ، ولكنه لما عدل عن القسم ، عدل عن ذكر المقسم به ، وجاء به في صورة أخرى كأنها ابتداء لحديث بعد التنبيه إليه بهذا المطلع الموقظ :

« أychبب الإنسان أن لن يجمع عظامه ؟ بلى قادرين على أن نسوي بنانه » ..

وقد كانت المشكلة الشعورية عند المشركين هي صعوبة تصورهم لجمع العظام البالية ، الذاهبة في التراب ، المتفرقة في الترى ، لإعادة بعث الإنسان حياً ! ولعلها لا تزال كذلك في بعض النفوس إلى يومنا هذا ! والقرآن يرد على هذا الحساب بعدم جمع العظام مؤكداً وقوعه : « بلى ! قادرين على أن نسوي بنانه » .. والبنان أطراف الأصابع ؛ والنص يؤكد عملية جمع العظام ، بما هو أرقى من مجرد جمعها ، وهو تسوية البنان ، وتركيبه في موضعه كما كان ! وهي كتابة عن إعادة التكوين الإنساني بأدق ما فيه ، وإكماله بحيث لا تضعيه منه

بنان ، ولا تختل عن مكانها ، بل تسوى تسوية ، لا ينقص معها عضو ولا شكل هذا العضو ، مهما صغر ودق ! ويكتفي هنا بهذا التقرير المؤكد ، وسيجيء في نهاية السورة دليل آخر من واقع النشأة الأولى . إنما يخلص هنا إلى الكشف عن العلة النفسية في هذا الحساب ، وتوقع عدم جمع العظام .. إن هذا الإنسان يريد أن يفجر ، ويمضي قدماً في الفجور ، ولا يريد أن يصد شيء عن فجوره ، ولا أن يكون هناك حساب عليه وعقاب . ومن ثم فهو يستبعد وقوع البعث ، ويستبعد مجيء يوم القيامة :

« بل يريد الإنسان ليفجر أمامه . يسأل أيان يوم القيامة ؟ » ..

والسؤال بأيان - هذا اللفظ المديد الجرس - يوحي باستبعاده لهذا اليوم .. وذلك تمشياً مع رغبته في أن يفجر ويمضي في فجوره ، لا يصدده شبح البعث وشبح الآخرة .. والآخرة للجام للنفس الراغبة في الشر ، ومصداً للقلب المحب للفجور . فهو يحاول إزالة هذا المصد ، وإزاحة هذا اللجام ، لينطلق في الشر والفجور بلا حساب ليوم الحساب .

ومن ثم كان الجواب على التهكم بيوم القيامة واستبعاد موعدها ، سريعاً خاطفاً حاسماً ، ليس فيه تريث ولا إبطاء حتى في إيقاع النظم ، وجرس الألفاظ . وكان مشهداً من مشاهد القيامة تشترك فيه الحواس والمشاعر الإنسانية ، والمشاهد الكونية :

« فإذا برق البصر . وخسف القمر ، وجمع الشمس والقمر . يقول الإنسان يومئذ أين المقر ؟ » .

فالبصر يخطف ويتقلب سريعاً سريعاً تقلب البرق وخطفه . والقمر يخسف ويطمس نوره . والشمس تقترن بالقر بعد اقتراق . ويختل نظامهما الفلكي المعهود ، حيث ينفرط ذلك النظام الكوني الدقيق .. وفي وسط هذا الذعر والانقلاب ، يتساءل الإنسان المرعوب : « أين المقر ؟ » ويبدو في سؤاله الارتباك والفزع ، وكأنما ينظر في كل اتجاه ، فإذا هو مسدود دونه ، مأخوذ عليه !

ولا ملجأ ولا وقاية ، ولا مفر من قهر الله وأخذه ، والرجعة إليه ، والمستقر عنده ؛ ولا مستقر غيره :

« كلا ! لا وزر . إلى ربك يومئذ المستقر » ..

وما كان يرغب فيه الإنسان من المضي في الفجور بلا حساب ولا جزاء ، لن يكون يومئذ ، بل سيكون كل ما كسبه محسوباً ، وسيذكر به إن كان نسيه ، ويؤخذ به بعد أن يذكره ويراه حاضراً :

« ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر » ..

بما قدمه من عمل قبل وفاته ، وبما أخره وراءه من آثار هذا العمل خيراً كان أم شراً . فمن الأعمال ما يخلف وراءه آثاراً تضاف لصاحبها في ختام الحساب !

ومهما اعتذر الإنسان بشتى الماذير عما وقع منه ، فلن يقبل منها عذر ، لأن نفسه موكولة إليه ، وهو موكل بها ، وعليه أن يهديها إلى الخير ويقودها . فإذا انتهى بها إلى الشر فهو مكلف بها وحجة عليها :

« بل الإنسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره » ..

وما يلاحظ أن كل شيء سريع قصير : الفقر . والفواصل . والإيقاع الموسيقي . والمشاهد الخاطفة . وكذلك عملية الحساب : « ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر » هكذا في سرعة وإجمال .. ذلك أنه رد على استطالة الأمد والاستخفاف بيوم الحساب !

ثم يحىء الآيات الأربع الخاصة بتوجيه الرسول - صلى الله عليه وسلم - في شأن الوحي وتلقي هذا القرآن : « لا تحرك به لسانك لتعجل به . إن علينا جمعه وقرآنه . فإذا قرأناه فاتبع قرآنه . ثم إن علينا بيانه » .. وبالإضافة إلى ما قلناه في مقدمة السورة عن هذه الآيات ، فإن الإيحاء الذي تركه في النفس هو تكفل الله المطلق بشأن هذا القرآن : وحياً وحفظاً وجمعاً وبياناً ؛ وإسناده إليه سبحانه وتعالى بكلية . ليس للرسول - صلى الله عليه وسلم - من أمره إلا حمله وتبليغه . ثم لفه الرسول - صلى الله عليه وسلم - وشدة حرصه على استيعاب ما يوحى إليه ؛ وأخذه مأخذ الجذ الخالص ، وخشيته أن ينسى منه عبارة أو كلمة ، مما كان يدعو إلى متابعة جبريل عليه السلام في التلاوة آية آية وكلمة كلمة يستوثق منها أن شيئاً لم يفته ، ويتثبت من حفظه له فيها بعد !

وتسجيل هذا الحادث في القرآن المثلو له قيمته في تعميق هذه الإيحاءات التي ذكرناها هنا وفي مقدمة السورة بهذا الخصوص .

۔ ۔ ۔

ثم يمضي سياق السورة في عرض مشاهد القيامة وما يكون فيها من شأن النفس اللوامة ، فيذكرهم بحقيقة نفوسهم وما يعتلج فيها من حب للدنيا وانشغال ، ومن إهمال للآخرة وقلة احتفال ؛ ويواجههم بموقفهم في الآخرة بعد هذا وما ينتهي إليه حالهم فيها . ويعرض لهم هذا الموقف في مشهد حي قوي الإيحاء عميق الإيقاع : « كلا . بل تحبون العاجلة ، وتذرون الآخرة . وجوه يومئذ ناضرة ، إلى ربها ناظرة ؛ وجوه يومئذ باسرة ، تظن أن يفعل بها فاقرة » ..

وأول ما يلحظ من ناحية التناسق في السياق هو تسمية الدنيا بالعاجلة في هذا الموضع . ففضلاً عن إيحاء اللفظ بقصر هذه الحياة وسرعة انقضائها - وهو الإيحاء المقصود - فإن هناك تناسقاً بين ظل اللفظ وظل الموقف السابق المعارض في السياق ، وقول الله تعالى لرسوله - صلى الله عليه وسلم - « لا تحرك به لسانك لتعجل به » .. فهذا التحريك وهذه العجلة هي أحد ظلال السمة البشرية في الحياة الدنيا .. وهو تناسق في الحس لطيف دقيق يلحظه التعبير القرآني في الطريق !

ثم نخلص إلى الموقف الذي يرسمه هذا النص القرآني الفريد :

« وجوه يومئذ ناضرة . إلى ربها ناظرة » ..

إن هذا النص ليثير إشارة سريعة إلى حالة تعجز الكلمات عن تصويرها ؛ كما يعجز الإدراك عن تصورها بكل حقيقتها . ذلك حين يعد الموعودين السعداء بحالة من السعادة لا تشبهها حالة . حتى لتتضاءل إلى جوارها الجنة بكل ما فيها من ألوان النعيم !

هذه الوجوه الناضرة .. نضرها أنها إلى ربها ناظرة ..

إلى ربها .. ؟ ! فأى مستوى من الرفعة هذا ؟ أي مستوى من السعادة ؟

إن روح الإنسان لتستمتع أحياناً بلحمة من جمال الإبداع الإلهي في الكون أو النفس ، تراها في الليلة القمرية . أو الليل الساجي . أو الفجر الوليد . أو الظل المديد . أو البحر العباب . أو الصحراء المناسبة . أو الروض البهيح . أو الطلعة البهية . أو القلب النبيل . أو الإيمان الواثق . أو الصبر الجميل .. إلى آخر مطالع الجمال في هذا الوجود .. فتغمرها النشوة ، وتفيض بالسعادة ، وترف بأجنحة من نور في عوالم مجنحة طليقة . وتتوارى

عنها أشواك الحياة ، وما فيها من الم وقبح ، وثقله طين وعرامة لحم ودم ، وصراع شهوات وأهواء ..

فكيف ؟ كيف بها وهي تنظر - لا إلى جمال صنع الله - ولكن إلى جمال ذات الله ؟

ألا إنه مقام يحتاج أولاً إلى مد من الله . ويحتاج ثانياً إلى تثبيت من الله . ليملك الإنسان نفسه ، فيثبت ، ويستمتع بالسعادة ، التي لا يحيط بها وصف ، ولا يتصور حقيقتها إدراك !

« وجوه يومئذ ناضرة .. إلى ربها ناظرة .. »

وما لها لا تنتضر وهي إلى جمال ربها تنظر ؟

إن الإنسان لينظر إلى شيء من صنع الله في الأرض . من طلعة بهية ، أو زهرة ندية ، أو جناح رفاف ، أو روح نبيل ، أو فعل جميل . فإذا السعادة تفيض من قلبه على ملامحه ، فيبدو فيها الوضاعة والنضارة . فكيف بها حين تنظر إلى جمال الكمال . مطلقاً من كل ما في الوجود من شواغل عن السعادة بالجمال ؟ فما تبلغ الكينونة الإنسانية ذلك المقام ، إلا وقد خلصت من كل شائبة تصدها عن بلوغ ذلك المرتقى الذي يعز على الخيال ! كل شائبة لا فيما حولها فقط ، ولكن فيها هي ذاتها من دواعي النقص والحاجة إلى شيء ما سوى النظر إلى الله .. فأما كيف تنظر ؟ وبأي جراحة تنظر ؟ وبأي وسيلة تنظر ؟ .. فذلك حديث لا يخطر على قلب يمس طائف من الفرح الذي يطلعه النص القرآني ، في القلب المؤمن ، والسعادة التي يفيضها على الروح ، والتشوف والتطلع والانطلاق !

فما بال أناس يحرمون أرواحهم أن تعانق هذا النور الفاضل بالفرح والسعادة ؟ ويشغلونها بالجدل حول مطلق ، لا تدركه العقول المقيدة بمألوفات العقل ومقراته ؟ !

إن ارتقاء الكينونة الإنسانية وانطلاقها من قيود هذه الكينونة الأرضية المحدودة ، هو فقط محط الرجاء في تفانها بالحقيقة الطليقة يومذاك . وقبل هذا الانطلاق سيعز عليها أن تتصور - مجرد تصور - كيف يكون ذلك اللقاء .

وإذن فقد كان جدلاً ضائعاً ذلك الجدل الطويل المديد الذي شغل به المعتزلة أنفسهم ومعارضهم من أهل السنة والمتكلمين حول حقيقة النظر والرؤية في مثل ذلك المقام .

لقد كانوا يقيسون بمقاييس الأرض ؛ ويتحدثون عن الإنسان المثقل بمقررات العقل في الأرض ؛ ويتصورون الأمر بالمبدار المحدود المجال .

إن مدلول الكلمات ذاته مقيد بما تدركه عقولنا وتصوراتنا المحدودة . فإذا انطلقت وتحررت من هذه التصورات فقد تغير طبيعة الكلمات . فالكلمات ليست سوى رموز يختلص ما ترمز إليه بحسب التصورات الكامنة في مدارك الإنسان . فإذا تغيرت طاقته تغير معها رصيده من التصورات ، وتغيرت معها طبيعة مدلول الكلمات . ونحن نتعامل في هذه الأرض بتلك الرموز على قدر حالنا ! فالنا نخوض في أمر لا يثبت لنا منه حتى مدلول الكلمات ؟ !

فلنتطلع إلى فيض السعادة الغامر الهادئ ، وفيض الفرح المقدس الطهور ، الذي ينطلق من مجرد تصورها لحقيقة الموقف على قدر ما نملك . ولنشغل أرواحنا بالتطلع إلى هذا الفيض ؛ فهذا التطلع ذاته نعمة . لا تفوقها إلا نعمة النظر إلى وجهه الكريم ..

« وجوه يومئذ باسرة ، تظن أن يفعل بها فاقرة » .

وهي الوجوه الكالحة المتقبضة النعيسة ، المحجوبة عن النظر والتطلع ، بخطاياها وارثكاسها وكثافتها وانطماسها . وهي التي يشغلها ويحزنها ويخلع عليها البسر والكلوحة توقعها أن تحل بها الكارثة القاصمة للظهر ، المحطمة للفقار .. الفاقرة . وهي من التوقع والتوحيش في كرب وكلوحة وتقبض وتنغيص ..

فهذه هي الآخرة التي يذرونها ويهملونها ، ويتجهون إلى العاجلة يحبونها ويحفلونها . ووراءهم هذا اليوم الذي تختلف فيه المصائر والوجوه ، هذا الاختلاف الشاسع البعيد ! ! ! من وجوه يومئذ ناضرة ، إلى ربها ناظرة إلى وجوه يومئذ باسرة ، تظن أن يفعل بها فاقرة ! ! !

° ° °

وإذا كانت مشاهد القيامة .. إذا برق البصر ، وخسف القمر ، وجمع الشمس والقمر ، وقال الإنسان يومئذ أين المفر . ولا مفر . وإذا اختلفت المصائر والوجوه ، ذلك الاختلاف الشاسع البعيد ، فكانت وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ، ووجوه يومئذ باسرة تظن أن يفعل بها فاقرة ..

إذا كانت تلك المشاهد تستمد قوتها وإيقاعها في النفس ، من قوة الحقيقة الكامنة فيها ، وقوة الأداء القرآني الذي يشخصها ويحييها ، فإن السورة بعد عرض تلك المشاهد تقرب وتقرب حتى تلمس حس المخاطبين بمشهد آخر حاضر واقع مكرور ، لا تمر لحظة حتى يواجههم في هذه الأرض بقوته ووضوحه ووزنه الثقيل !

إنه مشهد الموت . الموت الذي ينتهي إليه كل حي ، والذي لا يدفعه عن نفسه ولا عن غيره حي . الموت الذي يفرق الأحياء ، ويمضي في طريقه لا يتوقف ، ولا يتلفت ، ولا يستجيب لصرخة ملهوف ، ولا لحسرة مفارق ، ولا لرغبة راغب ولا لخوف خائف ! الموت الذي يصرع الجبابرة بنفس السهولة التي يصرع بها الأقزام ، ويظهر بها المتسلطين كما يقهر المستضعفين سواء ! الموت الذي لا حيلة للبشر فيه وهم مع هذا لا يتدبرون القوة القاهرة التي تجريه :

« كلا ! إذا بلغت التراقي ، وقيل : من راقٍ ؟ وظن أنه الفراق ، والتفت الساق بالساق . إلى ربك يومئذ المساق » ..

إنه مشهد الاحتضار ، يواجههم به النص القرآني كأنه حاضر ، وكأنه يخرج من ثنايا الألفاظ ويتحرك كما تخرج ملامح الصورة من خلال لمسات الريشة !

« كلا إذا بلغت التراقي » .. وحين تبلغ الروح التراقي يكون النزاع الأخير ، وتكون السكرات المذهلة ، ويكون الكرب الذي تزوغ منه الأبصار .. ويتلفت الحاضرون حول المحتضر يتلمسون حيلة أو وسيلة لاستفاد الروح المكروب : « وقيل : من راقٍ ؟ » لعل رُقية تفيد ! .. وتلوى المكروب من السكرات والنزع .. « والتفت الساق بالساق » .. وبطلت كل حيلة ، وعجزت كل وسيلة ، وتبين الطريق الواحد الذي يساق إليه كل حي في نهاية المطاف : « إلى ربك يومئذ المساق » ..

إن المشهد ليكاد يتحرك وينطق . وكل آية ترسم حركة . وكل فقرة تخرج لمحة . وحالة الاحتضار ترسم ويرتسم معها الجزع والحيرة واللهفة ومواجهة الحقيقة القاسية المريرة ، التي لا دافع لها ولا راد .. ثم تظهر النهاية التي لا مفر منها .. « إلى ربك يومئذ المساق » ..

ويسدل الستار على المشهد الفاجع ، وفي العين منه صورة ، وفي الحس منه أثر ، وعلى الجو كله وجوم صامت مرهوب .

وفي مواجهة المشهد المكروب الملهوف الجاد الواقع يعرض مشهد اللاهين المكذبين ، الذين لا يستعملون بعمل ولا طاعة ، بل يقدمون المعصية والتولي ، في عبث وهو ، وفي اختيال بالمعصية والتولي :

« فلا صدق ولا صلي ، ولكن كذب وتولي ، ثم ذهب إلى أهله يتمطي » ! ..

وقد ورد أن هذه الآيات تعني شخصاً معيناً بالذات ، قيل هو أبو جهل « عمرو بن هشام » .. وكان يجيء أحياناً إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يسمع منه القرآن . ثم يذهب عنه ، فلا يؤمن ولا يطيع ، ولا يتأدب ولا يخشى ؛ ويؤذي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالقول ، ويصد عن سبيل الله .. ثم يذهب مختلاً بما يفعل ، فخوراً بما ارتكب من الشر ، كأنما فعل شيئاً يذكر ..

والتعبير القرآني يتحكم به ، ويسخر منه ، ويشير السخرية كذلك ، وهو يصور حركة اختياله بأنه « يتمطي » ! يطم في ظهره ويتعجب وتعجباً ثقيلاً كريهاً !

وكم من أبي جهل في تاريخ الدعوة إلى الله ، يسمع ويعرض ، ويتفنن في الصد عن سبيل الله ، والأذى للدعاة ، ويمكر مكر السيئ ، ويتولى وهو فخور بما أوقع من الشر والسوء ، وبما أفسد في الأرض ، وبما صد عن سبيل الله ، وبما مكر لدينه وعقيدته وكاد !

والقرآن يواجه هذه الخيلاء الشريرة بالتهديد والوعيد :

« أولى لك فأولى . ثم أولى لك فأولى » ..

وهو تعبير اصطلاحي يتضمن التهديد والوعيد ، وقد أمسك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بخناق أبي جهل مرة ، وهزه ، وهو يقول له : « أولى لك فأولى . ثم أولى لك فأولى » .. فقال عدو الله : أتوعدي يا محمد ؟ والله لا تستطيع أنت ولا ربك شيئاً . وإني لأعز من مشي بين جبليها ! ! فأخذه الله يوم بدر بيد المؤمنين بمحمد - صلى الله عليه وسلم - وبرب محمد القوي القهار المتكبر . ومن قبله قال فرعون لقومه : « ما علمت لكم من إله غيري » .. وقال : « أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي ؟ » .. ثم أخذه الله كذلك .

وكم من أبي جهل في تاريخ الدعوات يعتز بعشيرته وبقوته وبسلطانه ، ويحسبها شيئاً ؛ وينسى الله وأخذه . حتى يأخذه أهون من بعوضة ، وأحقر من ذبابة .. إنما هو الأجل الموعود لا يستقدم لحظة ولا يستأخر .

• • •

وفي النهاية يمس القلوب بحقيقة أخرى واقعية في حياتهم ، لها دلالتها على تدبير الله وتقديره لحياة الإنسان . ولها دلالتها كذلك على النشأة الآخرة التي ينكرونها أشد الإنكار . ولا مفر من مواجهتها ، ولا حيلة في دفع دلالتها :

« أحسب الإنسان أن يترك سدى ؟ ألم يك نطفة من مني يمني ؟ ثم كان علقة فخلق فسوى ؟ فجعل منه الزوجين : الذكر والأنثى ؟ أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى ؟ » ..

وهذا المقطع الأخير العميق الإيقاع ، يشتمل على لفتات عميقة إلى حقائق كبيرة . ما كان المخاطبون بهذا القرآن يخطرونها على بالهم في ذلك الزمان . وأولى هذه الفتات تلك اللفتة إلى التقدير والتدبير في حياة الإنسان :

« أحسب الإنسان أن يترك سدى » ..

فلقد كانت الحياة في نظر القوم حركة لا علة لها ولا هدف ولا غاية .. أرحام تدفع وقبور تبلع .. وبين هاتين لحو ولعب ، وزينة وتفاحر ، ومتاع قريب من متاع الحيوان .. فأما أن يكون هناك ناموس ، وراءه هدف ،



ووراء الهدف حكمة ؛ وأن يكون قدوم الإنسان إلى هذه الحياة وفق قدر يجري إلى غاية مقدرة ، وأن ينتهي إلى حساب وجزاء ، وأن تكون رحلته على هذه الأرض ابتلاء ينتهي إلى الحساب والجزاء .. أما هذا التصور الدقيق المتناسق ، والشعور بما وراءه من ألوهية قادرة مدبرة حكيمة ، تفعل كل شيء بقدر ، وتنتهي كل شيء إلى نهاية .. أما هذا فكان أبعد شيء عن تصور الناس ومداركهم ، في ذلك الزمان .

والذي يميز الإنسان عن الحيوان ، هو شعوره باتصال الزمان والأحداث والغايات . وبوجود الهدف والغاية من وجوده الإنساني ، ومن الوجود كله من حوله . وارتقاؤه في سلم الإنسانية يتبع نمو شعوره هذا وسعته ، ودقة تصوره لوجود الناموس ، وارتباط الأحداث والأشياء بهذا الناموس . فلا يعيش عمره لحظة لحظة ، ولا حادثة حادثة ، بل يرتبط في تصوره الزمان والمكان والماضي والحاضر والمستقبل . ثم يرتبط هذا كله بالوجود الكبير ونواميسه . ثم يرتبط هذا كله بإرادة عليا خالقة مدبرة لا تخلق الناس عبثاً ولا تتركهم سدى . وهذا هو التصور الكبير الذي نقل القرآن الناس إليه منذ ذلك العهد البعيد ، نقلة هائلة بالقياس إلى التصورات السائدة إذ ذاك وما تزال هائلة بالقياس إلى سائر التصورات الكونية التي عرفتھا الفلسفة قديماً وحديثاً<sup>١</sup>

وهذه اللمسة : « أحسب الإنسان أن يترك سدى » .. هي إحدى لمسات القرآن التوجيهية للقلب البشري ، كي يتلفت ويستحضر الروابط والصلات ، والأهداف والغايات ، والعلل والأسباب ، التي تربط وجوده بالوجود كله ، وبالإرادة المدبرة للوجود كله .

وفي غير تعقيد ولا غموض يأتي بالدلائل الواقعة البسيطة التي تشهد بأن الإنسان لن يترك سدى .. إنها دلائل نشأته الأولى :

« ألم يك نطفة من مني يعني ؟ ثم كان علقه فخلق فسوى ؟ فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى ؟ » .

فما هذا الإنسان ؟ مم خلق ؟ وكيف كان ؟ وكيف صار ؟ وكيف قطع رحلته الكبيرة حتى جاء إلى هذا الكوكب ؟

ألم يك نطفة صغيرة من الماء ، من مني يعني ويراق ؟ ألم تتحول هذه النطفة من خلية واحدة صغيرة إلى علقه ذات وضع خاص في الرحم ، تعلق بجداره لتعيش وتستمد الغذاء ؟ فن ذا الذي ألهمها هذه الحركة ؟ ومن ذا الذي أودعها هذه القدرة ؟ ومن ذا الذي وجهها هذا الاتجاه ؟

ثم من ذا الذي خلقها بعد ذلك جنيناً معتدلاً منسق الأعضاء ؟ مؤلفاً جسمه من ملايين الملايين من الخلايا الحية ، وهو في الأصل خلية واحدة مع بويضة ؟ والرحلة المديدة التي قطعها من الخلية الواحدة إلى الجنين السوي - وهي أطول بمراحل من رحلته من مولده إلى مماته - والتغيرات التي تحدث في كيانه في الرحلة الجنينية أكثر وأوسع مدى من كل ما يصادفه من الأحداث في رحلته من مولده إلى مماته ! فن ذا الذي قاد هذه الرحلة المديدة ، وهو خليقة صغيرة ضعيفة ، لا عقل لها ولا مدارك ولا تجارب ؟ !

ثم في النهاية . من ذا الذي جعل من الخلية الواحدة .. الذكر والأنثى .. أي إرادة كانت لهذه الخلية في أن تكون ذكراً ؟ وأي إرادة لتلك في أن تكون أنثى ؟ أم من ذا الذي يزعم أنه تدخل فقاد خطواتهما في ظلمات الرحم إلى هذا الاختيار ؟ !

(١) كتاب : فكرة الإسلام عن الكون والحياة والإنسان ( بحث أرجو التوفيق لإخراجه ) .

إنه لا مفر من الإحساس باليد اللطيفة المدبرة التي قادت النطفة المراقبة في طريقها الطويل ، حتى انتهت بها إلى ذلك المصير .. « فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى » ..

وأمام هذه الحقيقة التي تفرض نفسها فرضاً على الحس البشري ، يبيء الإيقاع الشامل لجملة من الحقائق التي تعالجها السورة :

« أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى ؟ » ..

بلى ! سبحانه ! فإنه لقادر على أن يحيي الموتى !

بلى ! سبحانه ! فإنه لقادر على النشأة الأخرى !

بلى ! سبحانه ! وما يملك الإنسان إلا أن يخشع أمام هذه الحقيقة التي تفرض نفسها فرضاً .

وهكذا تنتهي السورة بهذا الإيقاع الحاسم الجازم ، القوي العميق ، الذي يملأ الحس ويفيض ، بحقيقة الوجود الإنساني وما وراءها من تدبير وتقدير ..

\* \* \*

## (٧٦) سُورَةُ الْاِنْسَانِ مَكِّيَّةٌ وَاَيَاتُهَا اِحْدَى ثَلَاثُونَ

### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْعًا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ  
فَعَلَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾

إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلًا وَأَغْلَاقًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ الْآبَرَارَ يُشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾  
عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾  
وَيُطْعَمُونَ أَلْطَعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نَنْطَعِمُكَ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا  
شُكْرًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَطَطِيرًا ﴿١٠﴾

فَوَقَّعْنَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّعْنَاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَّعْنَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُتَكَبِّرِينَ  
فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلُّهَا وَذُلَّتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾  
وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِغَانِيَةٍ مِّنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا ﴿١٥﴾ قَوَارِيرًا مِّنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾  
وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ \* وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ  
إِذَا رَأَوْهُمْ حَبَسَتْهُمْ لَوْلُؤًا مُّثَوَّرًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٍ  
خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُوءٌ أَسَاوِرٌ مِّنْ فِضَّةٍ وَسَقْلَاهُمْ رُحْمًا شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُم جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ  
مَشْكُورًا ﴿٢٢﴾

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا ﴿٦٦﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَطْعَمْ مِنْهُمْ ءَائِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ وَأَذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٦٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٦٩﴾  
 إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٧٠﴾ نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٧١﴾  
 إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾ وَمَا تَسَاءَلُونَ إِلَّا أَنَّ بَسَاءَ اللَّهِ ۖ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٧٣﴾ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٧٤﴾

في بعض الروايات أن هذه السورة مدنية ، ولكنها مكية ؛ ومكتبتها ظاهرة جداً ، في موضوعها وفي سياقها ، وفي سماتها كلها . لهذا رجحنا الروايات الأخرى القائلة بمكيتها . بل نحن نلمح من سياقها أنها من بواكير ما نزل من القرآن المكي .. تشي بهذا صور النعم الحسية المفصلة الطويلة ، وصور العذاب الغليظ ، كما يشي به توجيه الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى الصبر لحكم ربه ، وعدم إطاعة آثم منهم أو كفور ؛ مما كان يتزل عند اشتداد الأذى على الدعوة وأصحابها في مكة ، مع إهمال المشركين وتثبيت الرسول - صلى الله عليه وسلم - على الحق الذي نزل عليه ، وعدم الميل إلى ما يدهنون به .. كما جاء في سورة القلم ، وفي سورة المزمل ، وفي سورة المدثر ، مما هو قريب من التوجيه في هذه السورة .. واحتمال أن هذه السورة مدنية - في نظرنا - هو احتمال ضعيف جداً ، يمكن عدم اعتباره !

\* \* \*

والسورة في مجموعها هتاف رخوي ندي إلى الطاعة ، والالتجاء إلى الله ، وابتغاء رضاه ، وتذكر نعمته ، والإحساس بفضله ، واثقاء عذابه ، واليقظة لابتنائه ، وإدراك حكمته في الخلق والإنعام والابتلاء والإملاء .. وهي تبدأ بلمسة رفيقة للقلب البشري : أين كان قبل أن يكون ؟ من الذي أوجده ؟ ومن الذي جعله شيئاً مذكوراً في هذا الوجود ؟ بعد أن لم يكن له ذكر ولا وجود : « هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً ؟ » ..

تتلوها لمسة أخرى عن حقيقة أصله ونشأته ، وحكمة الله في خلقه ، وتزويده بطاقاته ومداركه : « إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً » ..  
 ولمسة ثالثة عن هدايته إلى الطريق ، وعونه على الهدى ، وتركه بعد ذلك لمصيره الذي يختاره : « إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً » ..

وبعد هذه اللمسات الثلاث الموحية ، وما تثيره في القلب من تفكير عميق ، ونظرة إلى الوراء . ثم نظرة إلى الأمام ، ثم التخرج والتدبر عند اختيار الطريق .. بعد هذه اللمسات الثلاث تأخذ السورة في الهتاف للإنسان وهو على مفرق الطريق لتحذيره من طريق النار .. وترغيبه في طريق الجنة ، بكل صور الترغيب ، وبكل

هوائف الراحة والمتاع والنعم والتكريم : « إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالاً وسعيراً . إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً . عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيراً » ..

وقبل أن تمضي في عرض صور المتاع ترسم سمات هؤلاء الأبرار في عبارات كلها انعطاف ورقة وجمال وخشوع يناسب ذلك النعم الهائل الرغيد : « يوفون بالنذر ، ويخافون يوماً كان شره مستطيراً ، ويطعمون الطعام - على حبه - مسكيناً ويتيمماً وأسيراً . إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً . إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريراً » ..

ثم تعرض جزاء هؤلاء القائمين بالعزائم والتكاليف ، الخائفين من اليوم العبوس القمطرير ، الخيرين المطمعين على حاجتهم إلى الطعام ، يبتغون وجه الله وحده ، لا يريدون شكوراً من أحد ، إنما يتقون اليوم العبوس القمطرير !

تعرض جزاء هؤلاء الخائفين الوجيلين المطمعين المؤثرين . فإذا هو الأمن والرخاء والنعم اللين الرغيد : « فوقاهم الله شر ذلك اليوم ، ولقاهم نضرة وسرورا ، وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا . متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمساً ولا زهرياً . ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلاً . ويطاف عليهم بأنيّة من فضة وأكواب كانت قوارير ، قوارير من فضة قدروها تقديراً . ويسقون فيها كأساً كان مزاجها زنجبيلاً ، عينا فيها تسمى سلسبيلاً . ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً . وإذا رأيت ثم رأيت نعيماً وملكاً كبيراً . عليهم ثياب سندس خضر وإستبرق ، وحلوا أساور من فضة وسقاهم رهم شرباً طهوراً . إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكوراً » .

فإذا انتهى معرض النعم اللين الرغيد المطمئن الهائل الودود ، اتجه الخطاب إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لتثبيته على الدعوة - في وجه الإعراض والكفر والتكذيب - وتوجيهه إلى الصبر وانتظار حكم الله في الأمر ؛ والاتصال بربه والاستمداد منه كلما طال الطريق : « إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلاً . فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثماً أو كفوراً . واذكر اسم ربك بكرة وأصيلاً ، ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلاً طويلاً » ..

ثم تذكيرهم باليوم الثقيل الذي لا يحسبون حسابه ؛ والذي يخافه الأبرار ويتقونه ، والتلويع لهم بهوان أمرهم على الله ، الذي خلقهم ومنحهم ما هم فيه من القوة ، وهو قادر على الذهاب بهم ، والإتيان بقوم آخرين ؛ لولا تفضله عليهم بالبقاء ، لتمضي مشيئة الابتلاء . ويلوح لهم في الختام بعاقبة هذا الابتلاء : « إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوماً ثقيلاً . نحن خلقناهم وشددنا أسرهم وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلاً . إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً . وما تشاءون إلا أن يشاء الله ، إن الله كان عليماً حكيماً . يدخل من يشاء في رحمته والظالمين أعد لهم عذاباً أليماً » ..

• • •

تبدأ السورة بالتذكير بنشأة الإنسان وتقدير الله في هذه النشأة ، على أساس الابتلاء ، وتحتم بيان عاقبة الابتلاء ، كما اقتضت المشيئة منذ الابتداء . فتوحي بذلك البدء وهذا الختام بما وراء الحياة كلها من تدبير وتقدير ، لا ينبغي معه أن يمضي الإنسان في استهتاره . غير واع ولا مدرك ، وهو مخلوق ليعتلى ، وموهوب نعمة الإدراك لينجح في الابتلاء .

وبين المطلع والختام ترد أطول صورة قرآنية لمشاهد النعم . أو من أطولها إذا اعتبرنا ما جاء في سورة الواقعة

من صور النعيم ، وهو نعيم حسي في جملته ، ومعه القبول والتكريم ، وهو بتفصيله هذا وحسينه يوحى بمحيطه ، حيث كان القوم قريبي عهد بالجاهلية ، شديدي التعلق بمتاع الحواس ، يبههم هذا اللون ويعجبهم ، ويثير تطلعهم ورغبتهم . وما يزال هذا اللون من المتاع يثير تطلع صنوف من الناس ، ويصلح جزاء لهم يرضي أعمق رغباتهم . والله أعلم بخلق ما يصلح لهم وما يصلح قلوبهم ، وما يليق بهم كذلك وفق تكوينهم وشعورهم . وهناك ما هو أعلى منه وأرق كالذي جاء في سورة القيامة : « وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة » .. والله أعلم بما يصلح للعباد في كل حال .

° ° °

« هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً ؟ إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً . إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً » ..

هذا الاستفهام في مطلع السورة إنما هو للتقريب ؛ ولكن وروده في هذه الصيغة كأنما ليسأل الإنسان نفسه : ألا يعرف أنه أتى عليه حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً ؟ ثم ألا يتدبر هذه الحقيقة ويتملاها ؟ ثم ألا يفعل تدبرها في نفسه شيئاً من الشعور باليد التي دفعته إلى مسرح الحياة ، وسلطت عليه النور ، وجعلته شيئاً مذكوراً بعد أن لم يكن شيئاً مذكوراً ؟

إنها إحياءات كثيرة تنبض من وراء صيغة الاستفهام في هذا المقام . وهي إحياءات رفيقة وعميقة تثير في النفس تأملات شتى :

واحدة منها تتجه بالنفس إلى ما قبل خلق الإنسان ووجوده ابتداء . يعيش فيها مع هذا الكون وقد خلا من الإنسان .. كيف تراه كان ؟ .. والإنسان مخلوق مغرور في نفسه وفي قيمته ، حتى لينسى أن هذا الكون كان وعاش قبل أن يوجد هو بأداه وأزمان طوال . ولعل الكون لم يكن يتوقع خلق شيء يسمى « الإنسان » .. حتى انبثق هذا المخلوق من إرادة الله فكان !

وواحدة منها تتجه إلى اللحظة التي انبثق فيها هذا الوجود الإنساني . وتضرب في تصورات شتى لهذه اللحظة التي لم يكن يعلمها إلا الله ، والتي أضافت إلى الكون هذه الخليقة الجديدة ، المقدر أمرها في حساب الله قبل أن تكون ! المحسوب دورها في خط هذا الكون الطويل !

وواحدة منها تتجه إلى تأمل يد القدرة وهي تدفع بهذا الكائن الجديد على مسرح الوجود ؛ وتعدده لدوره ، وتعدله دوره ، وتربط خيوط حياته بمحور الوجود كله ؛ وتهيئ له الظروف التي تجعل بقاءه وأداء دوره ممكناً وميسوراً ؛ وتتابعه بعد ذلك في كل خطوة ، ومعها الخيط الذي تشده به إليها مع سائر خيوط هذا الكون الكبير !

وإحياءات كثيرة وتأملات شتى ، يطلقها هذا النص في الضمير .. ينتهي منها القلب إلى الشعور بالقصد والغاية والتقدير ، في المنشأ وفي الرحلة وفي المصير .

فأما امتداد هذا الإنسان بعد ذلك وبقاؤه فكانت له قصة أخرى :

« إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً » ..

والأمشاج : الأخطاط . وربما كانت هذه إشارة إلى تكون النطفة من خلية الذكر وبويضة الأنثى بعد التلقيح . وربما كانت هذه الأخطاط تعني الوراثة الكامنة في النطفة ، والتي يمثلها ما يسمونه علمياً « الجينات » وهي

وحدات الوراثة الحاملة للصفات المميزة لجنس الإنسان أولاً ولصفات الجنين العائلية أخيراً . وإليها يعزى سير النطفة الإنسانية في رحلتها لتكوين جنين إنسان ، لا جنين أي حيوان آخر . كما تعزى إليها وراثة الصفات الخاصة في الأسرة .. ولعلها هي هذه الأمشاج المختلطة من وراثات شتى ..

خلقته يد القدرة هكذا من نطفة أمشاج ، لا عبثاً ولا جزافاً ولا تسلياً ، ولكنه خلق ليبتلى ويمتحن ويختبر . والله سبحانه يعلم ما هو ؟ وما اختباره ؟ وما ثمرة اختباره ؟ ولكن المراد أن يظهر ذلك على مسرح الوجود ، وأن ترتب عليه آثاره المقدرة في كيان الوجود ، وأن تتبعه آثاره المقدرة . ويجزى وفق ما يظهر من نتائج ابتلائه . ومن ثم جعله سمياً بصيراً . أي زوده بوسائل الإدراك ، ليستطيع التلقي والاستجابة . وليدرك الأشياء والقيم ويحكم عليها ويختار . ويجتاز الابتلاء وفق ما يختار ..

وإذن فإن إرادة الله في امتداد هذا الجنس وتكرر أفراده بالوسيلة التي قدرها ، وهي خلقته من نطفة أمشاج .. كانت وراءها حكمة . وكان وراءها قصد . ولم تكن فلتة .. كان وراءها ابتلاء هذا الكائن واختباره . ومن ثم وهب الاستعداد للتلقي والاستجابة ، والمعرفة والاختبار .. وكان كل شيء في خلقه وتزويده بالمدارك وابتلائه في الحياة .. بمقدار !

ثم زوده إلى جانب المعرفة ، بالقدرة على اختيار الطريق ، وبين له الطريق الواصل . ثم تركه ليختاره ، أو ليضل ويشرد فيها وراءه من طرق لا تؤدي إلى الله :  
« إنا هديناه السبيل : إما شاكراً وإما كفوراً » ..

وعبر عن الهدى بالشكر . لأن الشكر أقرب خاطر يرد على قلب المهتدي ، بعد إذ يعلم أنه لم يكن شيئاً مذكوراً ، فأراد ربه له أن يكون شيئاً مذكوراً . وهب له السمع والبصر . وزوده بالقدرة على المعرفة . ثم هداه السبيل . وتركه يختار .. الشكر هو الخاطر الأول الذي يرد على القلب المؤمن في هذه المناسبة . فإذا لم يشكر فهو الكفور .. بهذه الصيغة الموغلة في الدلالة على الكفران .

ويشعر الإنسان بجديّة الأمر ودقته بعد هذه اللمسات الثلاث . ويدرك أنه مخلوق لغاية . وأنه مشدود إلى محور . وأنه مزود بالمعرفة فحاسب عليها . وأنه هنا ليبتلى ويجتاز الابتلاء . فهو في فترة امتحان يقضيها على الأرض ، لا في فترة لعب ولهو وإهمال ! ويخرج من هذه الآيات الثلاث القصار بذلك الرصيد من التأملات الرفيعة العميقة ، كما يخرج منها مثل الظهر بالتيعة والجد والوقار في تصور هذه الحياة ، وفي الشعور بما وراءها من نتائج الابتلاء ! وتغير هذه الآيات الثلاث القصار من نظرته إلى غاية وجوده ، ومن شعوره بحقيقة وجوده ، ومن أخذه للحياة وقيمها بوجه عام .

\* \* \*

ومن ثم يأخذ في عرض ما ينتظر الإنسان بعد الابتلاء ، واختياره طريق الشكر أو طريق الكفران . فأما ما ينتظر الكافرين ، فيجمله إجمالاً ، لأن ظل السورة هو ظل الرخاء الظاهر في الصورة والإيقاع . وظل الهتاف المغربي بالنعم المريح . فأما العذاب فيشير إليه في إجمال :

« إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالاً وسعيراً » ..

سلاسل للأقدام ، وأغلالاً للأيدي ، وناراً تنسعر يلقى فيها بالمسلسلين المغلولين !  
ثم يسارع السياق إلى رخاء النعم :

« إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً . عيناً يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيراً » ..

وهذه العبارة تفيد أن شراب الأبرار في الجنة ممزوج بالكافور ، يشربونه في كأس تغترف من عين تفجر لهم تفجيراً ، في كثرة ووفرة .. وقد كان العرب يمزجون كؤوس الخمر بالكافور حيناً وبالزنجبيل حيناً زيادة في التلذذ بها ، فهم أولاء يعلمون أن في الجنة شراباً طهوراً ممزوجاً بالكافور ، على وفر وسعة . فاما مستوى هذا الشراب ففهم أنه أحلى من شراب الدنيا ، وأن لذة الشعور به تتضاعف وترق ، ونحن لا نملك في هذه الأرض أن نحدد مستوى ولا نوعاً للذة المتاع هناك . فهي أوصاف للتقريب . يعلم الله أن الناس لا يملكون سواها لتصور هذا الغيب المحجوب .

والتعبير يسميهم في الآية الأولى « الأبرار » ويسميهم في الآية الثانية « عباد الله » .. إيناساً وتكريماً وإعلاناً للفضل تارة ، وللقرب من الله تارة ، في معرض النعم والتكريم .  
ثم يعرف هؤلاء الأبرار عباد الله الذين قسم لهم هذا المتاع :

« يوفون بالنذر ، ويخافون يوماً كان شره مستطيراً ، ويطعمون الطعام – على حبه – مسكيناً ويتيماً وأسيراً . إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءً ولا شكوراً . إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريراً » ..  
وهي صورة وضيئة شفافة لقلوب مخلصة جادة عازمة على الوفاء لله بتكاليف العقيدة ، مع رحمة ندية بعباده الضعاف ، وإيثار على النفس ، وتخرج وخشية لله ، ورغبة في رضاه ، وإشفاق من عذابه تبعته التقوى والجد في تصور الواجب الثقيل .

« يوفون بالنذر » يفعلون ما اعتزموا من الطاعات ، وما التزموا من الواجبات . فهم يأخذون الأمر جدّاً خالصاً لا يحاولون التفلت من تبعاته ، ولا التفصي من أعبائه ، ولا التخلي عنه بعد اعتزامه . وهذا معنى أنهم يوفون بالنذر . فهو أعم من المعنى العرفي المتبادر من كلمة « النذر » .

« ويخافون يوماً كان شره مستطيراً » .. فهم يدركون صفة هذا اليوم ، الذي يتفشى شره ويصيب الكثيرين من المقصرين والمسيئين . فيخافون أن يأنهم شيء من شره . وهذه سمة الأتقياء ، الشاعرين بثقل الواجب وضخامة التكاليف ، الخائفين من التقصير والقصور ، مهما قدما من القرب والطاعات .

« ويطعمون الطعام – على حبه – مسكيناً ويتيماً وأسيراً » ..

وهي تصور شعور البر والعطف والخير مثلاً في إطعام الطعام ، مع حبه بسبب الحاجة إليه . فمثل هذه القلوب لا يقال عنها : إنها تحب الطعام الذي تطعمه للضعاف المحاويج على اختلاف أنواعهم . إلا أن تكون في حاجة هي إلى هذا الطعام ، ولكنها تؤثر به المحاويج .

وهذه الفتنة تشي بقسوة البيئة في مكة بين المشركين ، وأنها كانت لا تفضي بشيء للمحاويع الضعاف ، وإن كانت تبذل في مجالات المفاخرة الشيء الكثير . فأما الأبرار عباد الله فكانوا واحة ظليلة في هذه الهاجرة الشحيحة . وكانوا يطعمون الطعام بأريحية نفس ، ورحمة قلب ، وخلوص نية . واتجاه إلى الله بالعمل ، يحكيه السياق من حالهم ، ومن منطوق قلوبهم .

« إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءً ولا شكوراً . إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريراً » ..

فهي الرحمة الفائضة من القلوب الرقيقة الرفيقة ، تنجى إلى الله تطلب رضاه . ولا تتبغى بها جزء من الخلق ولا شكراً ، ولا تقصد بها استعلاء على المحتاجين ولا خيلاء . كما تتقي بها يوماً عبوساً شديد العبوس ، تتوقعه



وتخشاه ، وتقيه بهذا الوقاء . وقد دهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عليه وهو يقول : « اتق النار ولو بشق تمرة » ..

وقد كان إطعام الطعام هكذا مباشرة هو وسيلة التعبير عن هذه العاطفة النبيلة الكريمة ، ووسيلة الإشباع لحاجات المحاويع . ولكن صور الإحسان ووسائله قد تتغير بحسب البيئات والظروف ، فلا تظل في هذه الصورة البدائية المباشرة . إلا أن الذي يجب الاحتفاظ به هو حساسية القلوب ، وحوية العاطفة ، والرغبة في الخير ابتغاء وجه الله ، والتجرد عن البواث الأرضية من جزاء أو شكر أو نفع من منافع الحياة ! ولقد تنظم الضرائب ، وتفرض التكاليف ، وتخصص للضمان الاجتماعي ، ولإسعاف المحاويع ، ولكن هذا إنما يفي بشطر واحد من مزايا الاتجاه الإسلامي الذي ترمز إليه تلك الآيات ، والذي توخاه بفريضة الزكاة .. هذا الشطر هو كفاية حاجة المحتاجين .. هذا شطر .. والشطر الآخر هو تهذيب أرواح الباذلين ، ورفعها إلى ذلك المستوى الكريم . وهو شطر لا يجوز إغفاله ولا التهور من شأنه فضلاً على أن تنقلب المعايير فيوصم ويقبح ويشوه ، ويقال : إنه إذلال للآخذين وإفساد للمواهبين .

إن الإسلام عقيدة قلوب ، ومنهج تربية لهذه القلوب . والعاطفة الكريمة تهذب صاحبها وتنفع من يوجهها إليه من إخوانه . فتفي بشطري التربية التي يقصد إليها هذا الدين . ومن ثم كان ذلك التصوير الكريم لذلك الشعور الكريم . « فوqاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسروراً » ..

يعجل السياق بذكر وقايتهم من شر ذلك اليوم الذي كانوا يخافونه ، ليطمئنهم في الدنيا وهم يتلقون هذا القرآن ويصدقونه ! ويذكر أنهم تلقوا من الله نضرة وسروراً ، لا يوماً عبوساً قمطريراً . جزءاً وافقاً على خشيتهم وخوفهم ، وعلى نداوة قلوبهم ونضرة مشاعرهم .

ثم يمضي بعد ذلك في وصف مناعم الجنة التي وجدوها : « وجزاهم بما صبروا جنة وحريراً » .. جنة يسكنونها وحريراً يلبسونه .

« متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمساً ولا زمهرياً » .. فهم في جلسة مريحة مطمئنة والجو حولهم رخاء ناعم دائي في غير حر ، ندي في غير برد . فلا شمس تلهب النسائم ، ولا زمهري وهو البرد القارس ! ولنا أن نقول : إنه عالم آخر ليست فيه شمسنا هذه ولا شمس أخرى من نظائرها .. وكفى ! « ودانية عليهم ظلالها . وذلت قطوفها تذليلاً » .. وإذا دنت الظلال ودنت القطوف فهي الراحة والاسترواح على أمتع ما يمتد إليه الخيال !

فهذه هي الهيئة العامة لهذه الجنة التي جرى الله بها عباده الأبرار الذين رسم لهم تلك الصورة المرفهة اللطيفة الوضيئة في الدنيا .. ثم تأتي تفصيلات المناعم والخدمات .. « ويطاف عليهم بآنية من فضة ، وأكواب كانت قوارير ، قوارير من فضة قدروها تقديراً . ويسقون فيها كأساً كان مزاجها زنجبيلاً . عينا فيها تسمى سلسبيلاً » ..

فهم في متاعهم . متكئين على الأرائك بين الظلال الوارفة والقطوف الدانية والجو الرائث .. يطاف عليهم بأشربة في آنية من فضة ، وفي أكواب من فضة كذلك ، ولكنها شفة كالقوارير ، مما لم تعهده الأرض في آنية الفضة . وهي بأحجام مقدرة تقديراً يحقق المتاع والجمال . ثم هي تمزج بالزنجبيل كما مزجت مرة بالكافور .

وهي كذلك تملأ من عين جارية تسمى سلسيلاً ، لشدة غزوبتها واستساعتها لدى الشاربين !  
وزيادة في المتاع فإن الذين يطوفون بهذه الأواني والأكواب بالشراب هم غلمان صباح الوجه ، لا يفعل  
فيهم الزمن ، ولا تدرّكهم السن ؛ فهم مخلدون في سن الصبابة والصبابة والوضاءة . وهم هنا وهناك كاللؤلؤ  
المشتور :

« يطوف عليهم ولدان مخلدون ، إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً » ..

ثم يحمل السياق خطوط المنظر ، ويلقي عليه نظرة كاملة تلخص وقعه في القلب والنظر :  
« وإذا رأيت - ثم - رأيت نعيماً وملكاً كبيراً » ..

نعيماً وملكاً كبيراً . هو الذي يعيش فيه الأبرار المقربون عباد الله هؤلاء ، على وجه الإجمال والعموم !

ثم يخصص مظهراً من مظاهر النعم والملك الكبير ؛ كأنه تعليل لهذا الوصف وتفسير :

« عاليهم ثياب سندس خضر وإستبرق ، وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شراباً طهوراً » ..

والسندس الحرير الرقيق ، والإستبرق الحرير السميك المبطن .. وهم في هذه الزينة وهذا المتاع ، يتلقونه  
كله من « ربههم » فهو عطاء كريم من معط كريم . وهذه تضاف إلى قيمة ذلك النعم !

ثم يتلقون عليه الود والتكريم :

« إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكوراً » ..

يتلقون هذا النطق من الملأ الأعلى . وهو يعدل هذه المناعم كلها ، ويمنحها قيمة أخرى فوق قيمتها ..

وهكذا ينتهي ذلك العرض المفصل والثناء الموحى للقلوب ، اختلفا إلى ذلك النعم الطيب والفرار  
من السلاسل والأغلال والسعير .. وهما طريقان . طريق مؤد إلى الجنة هذه وطريق مؤد إلى السعير !

\* \* \*

وبعد انتهاء هذا اختلفا إلى الجنة ونعيمها الهنيء الرغيد ، يعالج حالة المشركين المصيرين على العناد والتكذيب ،  
الذين لا يدركون حقيقة الدعوة ، فيساومون عليها الرسول - صلى الله عليه وسلم - لعله يكف عنها ، أو عما  
يؤذيهم منها . وبين المساومة للنبي - صلى الله عليه وسلم - وفئة المؤمنين به وإبذائهم ، والصد عن سبيل الله ،  
والإعراض عن الخير والجنة والنعم .. بين هذا كله ينجي المقطع الأخير في السورة يعالج هذا الموقف بطريقة  
القرآن الكريم :

« إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلاً . فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثماً أو كفوراً . واذكر اسم ربك  
بكرة وأصيلاً . ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلاً طويلاً » ..

وفي هذه الآيات الأربع تكن حقيقة كبيرة من حقائق الدعوة الإيمانية . حقيقة ينبغي أن يعيش فيها الدعاة  
إلى الله طويلاً ، وأن يتعمقوها تعمقاً كاملاً ، وأن ينظروا بتدبر في مدلولاتها الواقعية والنفسية والإيمانية الكبيرة .  
لقد كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يواجه المشركين بالدعوة إلى الله وحده . وهو لم يكن يواجه في  
نفوسهم مجرد عقيدة . ولو كان الأمر كذلك لكان أيسر كثيراً . فإن عقيدة الشرك المهلهلة التي كانوا عليها لم  
تكن من القوة والثبات بحيث يصمدون بها هكذا لعقيدة الإسلام القوية الواضحة البسيطة . إنما كانت الملابس  
التي تحيط بالعقيدة وبالموقف هي التي تقود إلى تلك المعارضة العنيدة ، التي شهدت بها الروايات التاريخية ،  
وحكاها القرآن في مواضع منه شتى .. كانت المكانة الاجتماعية ، والاعتزاز بالقيم السائدة في البيئة ، وما يتلبس

بها كذلك من مصالح مادية .. هي العنصر الأول الذي يقود إلى التثبيت بالعقيدة الروحية الظاهرة البطلان ، في وجه العقيدة القوية الظاهرة الاستقامة .. ثم كانت صور الحياة الجاهلية ومتاعها ولذائها وشهواتها إلى جانب ذلك تزيد المقاومة والعناد والتأني على العقيدة الجديدة ، وما فيها من اتجاهات أخلاقية وقيم رفيعة ، لا تسمح بانطلاق الغرائز والشهوات ؛ ولا بالحياة العابثة الماجنة المطلقة من كوابح الأخلاق .

وهذه الأسباب - سواء ما يتعلق منها بالمكانة والقيم الاجتماعية والسلطان والمال والمصالح ، وما يتعلق منها بالآلِف والعادة وصور الحياة التقليدية ، وما يتعلق منها بالانطلاق من القيم والقيود الأخلاقية - كانت قائمة في وجه الدعوة الأولى ، وهي قائمة في وجه الدعوة في كل أرض وفي كل جيل . وهي تمثل العناصر الثابتة في معركة العقيدة ، التي يجعلها معركة عنيدة لا تنتهي من قريب ؛ وتجعل مشاقها وتكاليفها والثبات عليها من أعسر التكليف .

ومن ثم ينبغي للدعاة إلى دين الله في أي أرض وفي أي زمان أن يعيشوا طويلاً في الحقيقة الكبيرة الكامنة في تلك الآيات ، وملابسات نزولها على الرسول - صلى الله عليه وسلم - فهي ملابسات معركة واحدة يخوضها كل صاحب دعوة إلى الله ، في أي أرض وفي أي زمان !

لقد تلقى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - التكليف من ربه لينذر ، وقيل له : « يا أيها المدثر . قم فأندر » .. فلما أن نهض بالتكليف واجهته تلك العوامل والأسباب التي تصد القوم عن الدعوة الجديدة ، وتثير في نفوسهم التثبيت بما هم عليه - على شعورهم بونه وهلملته - وتقودهم إلى العناد الشديد ، ثم إلى الدفاع العنيد عن معتقداتهم وأوضاعهم ومكائهم ومصالحهم . وألوف حياتهم ، ولذائهم وشهواتهم .. إلى آخر ما تهدده الدعوة الجديدة أشد التهديد .

وأخذ هذا الدفاع العنيد صوراً شتى ، في أولها إيذاء القلة المؤمنة التي استجابت للدعوة الجديدة ، ومحاولة فنتها عن عقيدتها بالتعذيب والتهديد . ثم تشويه هذه العقيدة وإثارة الغبار حولها وحول نبيها - صلى الله عليه وسلم - بشتى التهم والأساليب . كي لا ينضم إليها مؤمنون جدد . فنع الناس عن الانضمام إلى راية العقيدة قد يكون أيسر من فتنة الذين عرفوا حقيقتها وذاقوها !

وفي الوقت ذاته راحوا يحاولون مع صاحب الدعوة - صلى الله عليه وسلم - طرقاً شتى من الإغراء - إلى جانب التهديد والإيذاء - ليلتقي بهم في منتصف الطريق ؛ ويكف عن الحملة الساحقة على معتقداتهم وأوضاعهم وتقاليدهم ؛ ويصالحهم ويصالحونه على شيء يرتضيه ويرتضونه ! كما تعود الناس أن يلتقوا في منتصف الطريق عند الاختلاف على المصالح والمغانم وشؤون هذه الأرض المعهودة<sup>١</sup> .

وهذه الوسائل ذاتها أو ما يشبهها هي التي يواجهها صاحب الدعوة إلى الله في كل أرض وفي كل جيل ! والنبي - صلى الله عليه وسلم - ولو أنه رسول ، حفظه الله من الفتنة ، وعصمه من الناس .. إلا أنه بشر يواجه الواقع الثقيل في قلة من المؤمنين وضعف . والله يعلم منه هذا ، فلا يدعه وحده ، ولا يدعه لمواجهة الواقع الثقيل بلا عون ومدد وتوجيه إلى معالم الطريق .

وهذه الآيات تتضمن حقيقة هذا العون والمدد والتوجيه :

« إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلاً » .

(١) يراجع في هذا الجزء تفسير سورة القلم : « ودوا لو تدهن فيدهنون » ..

وهي اللفظة الأولى إلى مصدر التكليف بهذه الدعوة ، وينبوع حقيقتها .. إنها من الله . هو مصدرها الوحيد . وهو الذي نزل بها القرآن . فليس لها مصدر آخر ، ولا يمكن أن تختلط حقيقتها بشيء آخر لا يفيض من هذا ينبوع . وكل ما عدا هذا المصدر لا يتلقى عنه ، ولا يُستمد منه ، ولا يُستعار لهذه العقيدة منه شيء ، ولا يخلط بها منه شيء .. ثم إن الله الذي نزل هذا القرآن وكلف بهذه الدعوة لن يتركها . ولن يترك الداعي إليها ، وهو كلفه ، وهو نزل القرآن عليه .

ولكن الباطل يتبجح ، والشر ينتفش ، والأذى يصيب المؤمنين ، والفتنة ترصد لهم ، والصد عن سبيل الله يملكه أعداء الدعوة ويقومون به ويصرون عليه ، فوق إصرارهم على عقيدتهم وأوضاعهم وتقاليدهم وفسادهم وشرهم الذي يلجون فيه ! ثم هم يعرضون المصالحة ، وقسمة البلد بلدين ، والالتقاء في منتصف الطريق .. وهو عرض يصعب رده ورفضه في مثل تلك الظروف العصبية !

هنا نجيء اللفظة الثانية :

« فاصبر لحكم ربك ، ولا تطع منهم آثماً أو كفوراً » ..

إن الأمور مرهونة بقدر الله . وهو يمهّل الباطل ، ويملي للشر ، ويطيّل أمد المحنة على المؤمنين والابتلاء والتمحيص .. كل أولئك لحكمة يعلمها ، يجري بها قدره ، وينفذ بها حكمه .. « فاصبر لحكم ربك » .. حتى يجيء موعدة المرسوم .. اصبر على الأذى والفتنة . واصبر على الباطل يغلب ، والشر ينتفج . ثم اصبر أكثر على ما أوتيته من الحق الذي نزل به القرآن عليك . اصبر ولا تستمع لما يعرضونه من المصالحة والالتقاء في منتصف الطريق على حساب العقيدة : « ولا تطع منهم آثماً أو كفوراً » .. فهم لا يدعونك إلى طاعة ولا إلى بر ولا إلى خير . فهم آثمون كفار . يدعونك إلى شيء من الإثم والكفر إذن حين يدعونك إلى الالتقاء بهم في منتصف الطريق ! وحين يعرضون عليك ما يظنونهم يرضيك ويغريك ! وقد كانوا يدعونه باسم شهوة السلطان ، وباسم شهوة المال ، وباسم شهوة الجسد . فيعرضون عليه مناصب الرياسة فيهم والثراء ، حتى يكون أغنى من أغنانهم ، كما يعرضون عليه الحسان الفاتنات ، حيث كان عتبة بن ربيعة يقول له : « ارجع عن هذا الأمر حتى أزوجه ابنتي ، فأني من أجمل قریش بنات ! » .. كل الشهوات التي يعرضها أصحاب الباطل لشراء الدعاة في كل أرض وفي كل جيل !

« فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثماً أو كفوراً » .. فإنه لا لقاء بينك وبينهم ؛ ولا يمكن أن تقام نقطة للعبور عليها فوق الهوة الواسعة التي تفصل منبهك عن منبههم ، وتصورك للوجود كله عن تصورهم ، وحقل عن باطلهم ، وإيمانك عن كفرهم ، ونورك عن ظلماتهم ، ومعرفتك بالحق عن جاهليتهم !

اصبر ولو طال الأمد ، واشتدت الفتنة وقوي الإغراء ، وامتند الطريق ..

ولكن الصبر شاق ، ولا بد من الزاد والمدد المعين :

« واذكر اسم ربك بكرة وأصيلاً ، ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلاً طويلاً » .

هذا هو الزاد . اذكر اسم ربك في الصباح والمساء ، واسجد له بالليل وسبحه طويلاً .. إنه الاتصال بالمصدر الذي نزل عليك القرآن ، وكلفك الدعوة ، هو ينبوع القوة ومصدر الزاد والمدد .. الاتصال به ذكرًا وعبادة ودعاءً وتسبيحاً .. ليلاً طويلاً .. فالطريق طويل ، والعبء ثقيل . ولا بد من الزاد الكثير والمدد الكبير . وهو هناك ، حيث يلتقي العبد بربه في خلوة وفي نجاة ، وفي تطوع وفي أنس ، تفيض منه الراحة على التعب والضنى ، وتفيض منه القوة على الضعف والقلّة . وحيث تنفض الروح عنها صغائر المشاعر والشواغل ، وترى

عظمة التكليف ، وضخامة الأمانة . فتستصغر ما لاقت وما تلاقي من أشواك الطريق !

إن الله رحيم ، كلف عبده الدعوة ، ونزل عليه القرآن ، وعرف متاع العبء ، وأشواك الطريق . فلم يدع نبيه - صلى الله عليه وسلم - بلا عون أو مدد . وهذا هو المدد الذي يعلم - سبحانه - أنه هو الزاد الحقيقي الصالح لهذه الرحلة المضنية في ذلك الطريق الشائك .. وهو هو زاد أصحاب الدعوة إلى الله في كل أرض وفي كل جيل . فهي دعوة واحدة . ملابساتها واحدة . وموقف الباطل منها واحد ، وأسباب هذا الموقف واحدة . ووسائل الباطل هي ذاتها ووسائله . فلتكن وسائل الحق هي الوسائل التي علم الله أنها وسائل هذا الطريق .

والحقيقة التي ينبغي أن يعيش فيها أصحاب الدعوة إلى الله هي هذه الحقيقة التي لقنها الله لصاحب الدعوة الأولى - صلى الله عليه وسلم - هي أن التكليف بهذه الدعوة تنزل من عند الله . فهو صاحبها . وأن الحق الذي تنزلت به لا يمكن مزجه بالباطل الذي يدعو إليه الأثمون الكفار . فلا سبيل إلى التعاون بين حقها وباطلهم ، أو الالتقاء في منتصف الطريق بين القائم على الحق والقائمين على الباطل . فهما نهجان مختلفان ، وطريقان لا يلتقيان . فأما حين يغلب الباطل بقوته وجمعه على قلة المؤمنين وضعفهم ، لحكمة يراها الله .. فالصبر حتى يأتي الله بحكمه . والاستمداد من الله والاستعانة بالدعاء والتسبيح - ليلاً طويلاً - هي الزاد المضمون لهذا الطريق .. إنها حقيقة كبيرة لا بد أن يدركها ويعيش فيها رواد هذا الطريق ..

\* \* \*

ثم يمضي السياق في تأكيد الاقتراق بين منهج الرسول - صلى الله عليه وسلم - ومنهج الجاهلية . بما يقرره من غفلتهم عن رؤية الخير لأنفسهم ، ومن تفاهة اهتماماتهم ، وصغر تصوراتهم .. يقول :

« إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوماً ثقيلاً » ..

إن هؤلاء ، القريب المطامح والاهتمامات ، الصغار المطالب والتصورات .. هؤلاء الصغار الزهيد الذين يستغرقون في العاجلة ويذرون وراءهم يوماً ثقيلاً . ثقيلاً بتبعاته . ثقيلاً بتأنيجه . ثقيلاً بوزنه في ميزان الحقيقة .. إن هؤلاء لا يطاعون في شيء ولا يتبعون في طريق ، ولا يلتقون مع المؤمنين في هدف ولا غاية ، ولا يؤبه لما هم فيه من هذه العاجلة ، من ثراء وسلطان ومتاع ، فإنما هي العاجلة ، وإنما هو المتاع القليل ، وإنما هم الصغار الزهيدون !

ثم توحى الآية بغفلتهم عن رؤية الخير لأنفسهم . فهم يختارون العاجلة ، ويذرون اليوم الثقيل الذي ينتظرهم هناك بالسلال والأغلال والسعير ، بعد الحساب العسير !

فهذه الآية استطراد في تثبيت الرسول - صلى الله عليه وسلم - والمؤمنين معه ، في مواجهة هؤلاء الذين أوتوا من هذه العاجلة ما يحبون . إلى جانب أنها تهديد ملفوف لأصحاب العاجلة باليوم الثقيل .

\* \* \*

يتلو ذلك التهوين من أمرهم عند الله الذي أعطاهم ما هم فيه من قوة وبأس ، وهو قادر على الذهاب بهم وتبديل غيرهم منهم . ولكنه يتركهم لحكمة يجري بها قدره القديم :

« نحن خلقناهم وشددنا أسرهم ، وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلاً » ..

وهذه اللفتة تذكر هؤلاء الذين يعتزون بقوتهم ، بمصدر هذه القوة ، بل بمصدر وجودهم ابتداء . ثم تطمئن الذين آمنوا - وهم في حالة الضعف والقلة - إلى أن واهب القوة هو الذي يتسبون إليه وينهضون بدعوته . كما

تقرر في نفوسهم حقيقة قدر الله وما وراءه من حكمة مقصودة ، هي التي تجري وفقها الأحداث حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين .

« وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلاً » .. فهم لا يعجزون الله بقوتهم ، وهو خلقهم وأعطاهم إياها . وهو قادر على أن يخلق أمثالهم في مكانهم .. فإذا أمهلهم ولم يبدل أمثالهم فهو فضله ومنته وهو قضاؤه وحكمته ..

ومن هنا تكون الآية استطراداً في تثبيت الرسول - صلى الله عليه وسلم - ومن معه ؛ وتقريراً لحقيقة موقفهم وموقف الآخرين .. كما أنها لمسة لقلوب هؤلاء المستغرقين في العاجلة ، المغترين بقوة أسرارهم ، ليذكروا نعمة الله ، التي يتبطرون بها فلا يشكرونها ؛ وليشعروا بالابتلاء الكامن وراء هذه النعمة . وهو الابتلاء الذي قرره لهم في مطلع السورة .

\* \* \*

ثم يوقظهم إلى الفرصة المتاحة لهم ، والقرآن يعرض عليهم ، وهذه السورة منه تذكرهم :  
« إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً » ..

ويعقب على هذه اللفتة بإطلاق المشيئة ، ورد كل شيء إليها ، ليكون الاتجاه الأخير إليها ، والامتسالم الأخير لحكمها ؛ وليبرأ الإنسان من قوته إلى قوتها ، ومن حوله إلى حولها .. وهو الإسلام في صميمه وحقيقته :  
« وما تشاءون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليماً حكيماً » ..

ذلك كي تعلم قلوب البشر أن الله هو الفاعل المختار ، المتصرف القهار ، فتتعلم كيف تتجه إليه وتستسلم لقدره . . وهذا هو مجال هذه الحقيقة الذي تجري فيه في مثل هذه النصوص . مع تقرير ما شاءه الله لهم من منحهم القدرة على إدراك الحق والباطل ، والاتجاه إلى هذا أو ذاك وفق مشيئة الله ، العليم بحقيقة القلوب ، وما أعان به العباد من هبة الإدراك والمعرفة ، وبيان الطريق ، وإرسال الرسل ، وتنزيل القرآن ... إلا أن هذا كله ينتهي إلى قدر الله ، الذي يلجأ إليه الملتهج ، فيوفقه إلى الذكر والطاعة ، فإذا لم يعرف في قلبه حقيقة القدرة المسيطرة ، ولم يلجأ إليها لتعينه وتيسره ، فلا هدى ولا ذكر ، ولا توفيق إلى خير ...  
ومن ثم فهو :

« يدخل من يشاء في رحمته ، والظالمين أعد لهم عذاباً أليماً » ..

فهي المشيئة المطلقة تتصرف بما تريد . ومن إرادتها أن يدخل في رحمته من يشاء ، ممن يلتجئون إليه ، يطلبون عوناً على الطاعة ، وتوفيقاً إلى الهدى .. والظالمين أعد لهم عذاباً أليماً . وقد أملى لهم وأمهلهم ليتوبوا إلى هذا العذاب الأليم !

وهذا الختام يلتزم مع المطلع ، ويصور نهاية الابتلاء ، الذي خلق الله له الإنسان من نقطة أمشاج ، ووهبه السمع والأبصار ، وهده السبيل إما إلى جنة وإما إلى نار ..

\* \* \*

## (٧٧) سُورَةُ الْمُرْسَلَاتِ مَكِّيَّةٌ وَآيَاتُهَا خَمْسُونَ

### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ① قَالَعَصِفْتَ عَصْفًا ② وَالنَّشْرِ نَشْرًا ③ قَالَفَرَقْتَ فَرَقًا ④ فَالْمُقَلَّبَاتِ ⑤ ذِكْرًا ⑥ عَذْرًا أَوْ تَذْرًا ⑦ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ ⑧

فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ⑨ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ⑩ وَإِذَا الْجِبَالُ سُفِفَتْ ⑪ وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِنَتْ ⑫ لَا إِلَهَ يَوْمَ أُحِلَّتْ ⑬ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ⑭ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ ⑮ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ⑯

أَلَمْ نُنَبِّكَ الْأَوَّلِينَ ⑰ ثُمَّ نَبِّعُهُمُ الْآخِرِينَ ⑱ كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ⑲ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ⑳

أَلَمْ تَخْلُقْهُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ㉑ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ㉒ إِلَى قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ㉓ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْفَعْلُ ㉔

وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ㉕

أَلَمْ تَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ㉖ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا ㉗ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شُعْبَحَ وَأَسْقَيْنَكُم مَّاءً فُرَاتًا ㉘

وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ㉙

أَنْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ㉚ أَنْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعْبٍ ㉛ لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ الْهَبِ ㉜

إِنَّمَا تَرَى بِسْرِكَ أَلْفُصْرًا ㉝ كَأَنَّهُ رَجُلٌ هَلَلَتْ صُفْرًا ㉞ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ㉟

هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ ㊱ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَرِدُونَ ㊲ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ㊳

هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ ㊴ جَعَلْنَاهُ وَالْأَوَّلِينَ ㊵ فَإِنْ كَانَ لَكُم كَيْدٌ فَكِيدُوا ㊶ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ㊷

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلِّ وَعُيُونٍ ﴿١١﴾ وَقَوْمَهُمْ يَسْتَهْوُونَ ﴿١٢﴾ كُلُّوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾ إِنَّا  
كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾  
كُلُّوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ تُجْرِمُونَ ﴿١٦﴾ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٧﴾  
وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَرَأَيْتُمْ لَا يَرْكَعُونَ ﴿١٨﴾ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾  
فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾

هذه السورة حادة الملامح ، عنيفة المشاهد ، شديدة الإيقاع ، كأنها سياط لازعة من نار . وهي تقف القلب وقفة المحاكمة الرهيبة ، حيث يواجه بسيل من الاستفهامات والاستنكارات والتهديدات ، تنفذ إليه كالسهم المسنونة !

وتعرض السورة من مشاهد الدنيا والآخرة ، وحقائق الكون والنفس ، ومناظر الهول والعذاب ما تعرض . وعقب كل معرض ومشهد تلفح القلب المذنب لفحة كأنها من نار : « ويل يومئذ للمكذبين » !  
ويتكرر هذا التعقيب عشر مرات في السورة . وهو لازمة الإيقاع فيها . وهو أنسب تعقيب للملامح الحادة ، ومشاهد العنيفة ، وإيقاعها الشديد .

وهذه اللازمة تذكروا باللازمة المكررة في سورة « الرحمن » عقب عرض كل نعمة من نعم الله على العباد :  
« فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ » .. كما تذكروا باللازمة المكررة في سورة « القمر » عقب كل حلقة من حلقات العذاب : « فكيف كان عذابي ونذر ؟ » .. وتكرارها هنا على هذا النحو يعطي السورة سمة خاصة ، وطعماً مميزاً .. حاداً ..

وتتوالى مقاطع السورة وفواصلها قصيرة سريعة عنيفة ، متعددة القوافي . كل مقطع بقافية . ويعود السياق أحياناً إلى بعض القوافي مرة بعد مرة . ويتلقى الحس هذه المقاطع والفواصل والقوافي بلذعها الخاص ، وعنفها الخاص . واحدة إثر واحدة . وما يكاد يفيق من إيقاع حتى يعاجله إيقاع آخر ، بنفس العنف وبنفس الشدة .  
ومنذ بداية السورة والجو عاصف ثائر بمشهد الرياح أو الملائكة : « والمرسلات عرفاً . فالعاصفات عصفاً . والناشرات نشرأً فالفارقات فرقا . فالملقيات ذكراً ، عذراً أو نذراً » .. وهو افتتاح يلتئم مع جو السورة وظلها تمام الالتئام .

وللقرآن في هذا الباب طريقة خاصة في اختيار إطار للمشاهد في بعض السور من لون هذه المشاهد وقوتها .. وهذا نموذج منها ، كما اختار إطاراً من الضحى والليل إذا سجي لمشاهد الرعاية والحنان والإيواء في « سورة الضحى » وإطاراً من العاديات الصابحة الصاخبة المثيرة للغباء لمشاهد بعثرة القبور وتحصيل ما في الصدور في « سورة «والعاديات» .. وغيرها كثير .

(١) تراجع فصل التناسق الفني في كتاب : التصوير الفني .. دار الشروق .



وكل مقطع من مقاطع السورة العشرة بعد هذا المطلع ، يمثل جولة أو رحلة في عالم ، تتحول السورة معه إلى مساحات عريضة من التأملات والمشاعر والخواطر والتأثرات والاستجابات .. أعرض بكثير جداً من مساحة العبارات والكلمات ، وكأنما هذه سهام تشير إلى عوالم شتى !

والجولة الأولى تقع في مشاهد يوم الفصل . وهي تصور الانقلابات الكونية الهائلة في السماء والأرض ، وهي الموعد الذي تنتهي إليه الرسل بحسابها مع البشر : « فإذا النجوم طمست . وإذا السماء فرجت . وإذا الجبال نسفت . وإذا الرسل أقتت . لأي يوم أجلت ؟ ليوم الفصل . وما أدراك ما يوم الفصل ؟ ويل يومئذ للمكذبين ! » .

والجولة الثانية مع مصارع الغابرين ، وما تشير إليه من سنن الله في المكذبين : « ألم نهلك الأولين ؟ ثم نتبعهم الآخرين ؟ كذلك نفعل بالمجرمين . ويل يومئذ للمكذبين ! » ..

والجولة الثالثة مع النشأة الأولى وما توحى به من تقدير وتدير : « ألم تخلقكم من ماء مهين ؟ فجعلناه في قرار مكين ؟ إلى قدر معلوم ؟ فقد رنا نعم القادرون . ويل يومئذ للمكذبين ! » ..

والجولة الرابعة في الأرض التي تضم أبناءها إليها أحياء وأمواتاً ، وقد جهزت لهم بالاستقرار والماء الحي : « ألم نجعل الأرض كفاتاً ؟ أحياء وأمواتاً ، وجعلنا فيها رواسي شامخات وأسقيناكم ماء فراتاً ؟ ويل يومئذ للمكذبين ! » ..

والجولة الخامسة مع المكذبين وما يلقونه يوم الفصل من عذاب وتأنيب : « انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون . انطلقوا إلى ظل ثلاث شعب ! لا ظليل ولا يغني من اللهب . إنها ترمي بشر كالكفر كأنه جمالة صفر . ويل يومئذ للمكذبين ! » .

والجولة السادسة والسابعة استطراد مع موقف المكذبين ، ومزيد من التأنيب والترذيل : « هذا يوم لا ينطقون ، ولا يؤذن لهم فيعتذرون . ويل يومئذ للمكذبين ! هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين . فإن كان لكم كيد فكيدون . ويل يومئذ للمكذبين ! » ..

والجولة الثامنة مع المتقين ، وما أعد لهم من نعم : « إن المتقين في ظلال وعيون ، وفواكه مما يشتهون . كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون . إنا كذلك نجزي المحسنين . ويل يومئذ للمكذبين ! » ..

والجولة التاسعة خطفة سريعة مع المكذبين في موقف التأنيب : « كلوا وتمتعوا قليلاً إنكم مجرمون . ويل يومئذ للمكذبين ! » ..

والجولة العاشرة خطفة سريعة مع المكذبين في موقف التكذيب : « وإذا قيل لهم : اركعوا لا يركعون . ويل يومئذ للمكذبين ! » .

والخاتمة بعد هذه الجولات والاستعراضات والوخزات والإيقاعات : « فبأي حديث بعده يؤمنون ؟ » ..

\* \* \*

وهكذا يمضي القلب مع سياق السورة السريع ، وكأنه يلهث مع إيقاعها وصورها ومشاهدها . فأما الحقائق الموضوعية في السورة فقد تكرر ورودها في سور القرآن – والمكية منها بوجه خاص – ولكن الحقائق القرآنية تعرض من جوانب متعددة ، وفي أضواء متعددة ، وبطعوم ومذاقات متعددة ، وفق الحالات النفسية التي تواجهها ، ووفق مداخل القلوب وأحوال النفوس التي يعلمها منزل هذا القرآن على رسوله ، فتبدو في كل حالة

جديدة ، لأنها تستجيش في النفس استجابات جديدة .

وفي هذه السورة جدة في مشاهد جهنم . وجدة في مواجهة المكذبين بهذه المشاهد . كما أن هناك جدة في أسلوب العرض والخطاب كله . ومن ثم تبرز شخصية خاصة للسورة . حادة الملامح . لاذعة المذاق . لاهثة الإيقاع !

والآن نستعرض السورة في سياقها القرآني بالتفصيل :

\* \* \*

« والمرسلات عرفاً . فالعاصفات عصفاً . والناشرات نشرأ . فالفارقات فرقاً . فالمليقات ذكراً : عذراً أو نذراً .. إن ما توعدون لواقع » ..

القضية قضية القيامة التي كان يعسر على المشركين تصور وقوعها ، والتي أكدها لهم القرآن الكريم بشتى المؤكدات في مواضع منه شتى . وكانت عنايته بتقرير هذه القضية في عقولهم ، وإقرار حقيقتها في قلوبهم مسألة ضرورة لا بد منها لبناء العقيدة في نفوسهم على أصولها ، ثم لتصحيح موازين القيم في حياتهم جميعاً . فالاعتقاد باليوم الآخر هو حجر الأساس في العقيدة السبأوية ، كما أنه حجر الأساس في تصور الحياة الإنسانية . وإليه مرد كل شيء في هذه الحياة ، وتصحيح الموازين والقيم في كل شأن من شؤونها جميعاً .. ومن ثم اقتضت هذا الجهد الطويل الثابت لتقريرها في القلوب والعقول .

والله سبحانه يقسم في مطلع هذه السورة على أن هذا الوعد بالآخرة واقع . وصيغة القسم توحى ابتداء بأن ما يقسم الله به هو من مجاهيل الغيب ، وقواه المكنونة ، المؤثرة في هذا الكون وفي حياة البشر . وقد اختلف السلف في حقيقة مدلولها . فقال بعضهم : هي الرياح إطلاقاً . وقال بعضهم هي الملائكة إطلاقاً . وقال بعضهم : إن بعضها يعني الرياح وبعضها يعني الملائكة .. مما يدل على غموض هذه الألفاظ ومدلولاتها . وهذا الغموض هو أنسب شيء للقسم بها على الأمر الغيبي المكنون في علم الله . وأنه واقع كما أن هذه المدلولات الغيبية واقعة ومؤثرة في حياة البشر .

« والمرسلات عرفاً » .. عن أبي هريرة أنها الملائكة . وروي مثل هذا عن مسروق وأبي الضحى ومجاهد في إحدى الروايات ، والسدي والربيع بن أنس ، وأبي صالح في رواية ( والمعنى حينئذ هو القسم بالملائكة المرسله أرسلأ متوالية ، كأنها عرف الفرس في إرسالها وتتابعها ) .

وهكذا قال أبو صالح في العاصفات والناشرات والفارقات والمليقات .. إنها الملائكة .

وروي عن ابن مسعود .. المرسلات عرفاً . قال : الريح . ( والمعنى على هذا أنها المرسله متوالية كعرف الفرس في امتدادها وتتابعها ) وكذا قال في العاصفات عصفاً والناشرات نشرأ . وكذلك قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وأبو صالح في رواية .

وتوقف ابن جرير في المرسلات عرفاً هل هي الملائكة أو الرياح . وقطع بأن العاصفات هي الرياح . وكذلك الناشرات التي تنشر السحاب في آفاق السماء .

وعن ابن مسعود : « فالفارقات فرقاً فالمليقات ذكراً ، عذراً أو نذراً » يعني الملائكة . وكذا قال : ابن عباس ومسروق ومجاهد وقتادة والربيع بن أنس والسدي والثوري بلا خلاف . فإنها تنزل بأمر الله على الرسل ، تفرق بين الحق والباطل . وتلقي إلى الرسل وحياً فيه إغذار إلى الخلق وإنذار .

ونحن نلحق أن التهلل بالتهلل ملحوظ في هذه الأمور المقسم بها كالشأن في الذاريات ذرواً . وفي النازعات غرقاً .. وأن هذا الخلاف في شأنها دليل على إيمانها . وأن هذا الإيمان عنصر أصيل فيها في موضعها هذا . وأن الإيحاء المجلل في التلويع بها هو أظهر شيء في هذا المقام . وأنها هي بذاتها تحدث هزة شعورية بإيحاء جرسها وتتابع إيقاعها ، والظلال المباشرة التي تلقىها . وهذه الانتفاضة والهزة اللتان تحدثهما في النفس هما أليق شيء بموضوع السورة واتجاهها .. وكل مقطع من مقاطع السورة بعد ذلك هو هزة ، كالذي يمسك بخناق أحد فبزه هزاً ، وهو يستجوبه عن ذنب ، أو عن آية ظاهرة ينكرها ، ثم يطلقه على الوعيد والتهديد : « ويل يومئذ للمكذبين » ..

\* \* \*

بعد ذلك نجيء الهزة العنيفة بمشاهد الكون المتقلبة في يوم الفصل الذي هو الموعد المضروب للرسل لعرض حصيلة الرسالة في البشرية جميعاً :

« فإذا النجوم طمست ، وإذا السماء فرجت ، وإذا الجبال نسفت ، وإذا الرسل أقتت . لأي يوم أجلت ؟ ليوم الفصل . وما أدراك ما يوم الفصل ؟ ويل يومئذ للمكذبين » ..

يوم تطمس النجوم فيذهب نورها ، وتفرج السماء أي تشق ، وتسف الجبال فهي هباء .. وقد وردت مشاهد هذا الانقلاب الكوني في سور شتى من القرآن . وكلها توحى بانفراط عقد هذا الكون المنظور ، انفراطاً مصحوباً بقرقرة ودوي وانفجارات هائلة ، لا عهد للناس بها فيما يرونه من الأحداث الصغيرة التي يستهلونها ويروعون بها من أمثال الزلازل والبراكين والصواعق .. وما إليها .. فهذه أشبه شيء - حين تقاس بأهوال يوم الفصل - بلعب الأطفال التي يفرقونها في الأعياد ، حين تقاس إلى القنابل الذرية والهيدروجينية ! وليس هذا سوى مثل للتقريب . وإلا فالهول الذي ينشأ من تفجر هذا الكون وتناثره على هذا النحو أكبر من التصور البشري على الإطلاق !

وإلى جانب هذا الهول في مشاهد الكون ، تعرض السورة أمراً عظيماً آخر مؤجلاً إلى هذا اليوم .. فهو موعد الرسل لعرض حصيلة الدعوة . دعوة الله في الأرض طوال الأجيال .. فالرسل قد أقتت لهذا اليوم وضرب لها الموعد هناك ، لتقديم الحساب الختامي عن ذلك الأمر العظيم الذي يرجع السماوات والأرض والجبال . للفصل في جميع القضايا المعلقة في الحياة الأرضية ، والقضاء بحكم الله فيها ، وإعلان الكلمة الأخيرة التي تنتهي إليها الأجيال والقرون ..

وفي التعبير تهويل لهذا الأمر العظيم ، يوحى بضخامة حقيقته حتى لتتجاوز مدى الإدراك :

« وإذا الرسل أقتت . لأي يوم أجلت ؟ ليوم الفصل . وما أدراك ما يوم الفصل ؟ » ..

وظاهر من أسلوب التعبير أنه يتحدث عن أمر هائل جليل . فإذا وصل هذا الإيقاع إلى الحس بروعته وهوله ، الذي يرجع هول النجوم المطموسة والسماء المشقوقة والجبال المنسوفة . ألقى بالإيقاع الرعيب ، والإنذار المخيف :

« ويل يومئذ للمكذبين ! » ..

وهذا الإنذار من العزيز الجبار ، في مواجهة الهول السائد في الكون ، والجلال المائل في مجلس الفصل بمحضر الرسل ، وهم يقدمون الحساب الأخير في الموعد المضروب لهم .. هذا الإنذار في هذا الأوان له طعمه وله وزنه وله وقعه المزلزل الرهيب ..

\* \* \*

ويعود بهم من هذه الجولة في أهوال يوم الفصل ، إلى جولة في مصارع الغابرين : الأولين والآخرين ..  
« ألم نهلك الأولين ؟ ثم نتبعهم الآخرين ؟ كذلك فعل المجرمين . ويل يومئذ للمكذبين ! » .

هكذا في ضربة واحدة تتكشف مصارع الأولين وهم حشود . وفي ضربة واحدة تتكشف مصارع الآخرين وهم حشود . وعلى مد البصر تبدى المصارع والأشلاء . وأمامها ينطلق الوعيد ناطقاً بسنة الله في الوجود :  
« كذلك فعل المجرمين ! » فهي السنة الماضية التي لا تحيد .. وبينما المجرمون يتوقعون مصرعاً كمصارع الأولين والآخرين ، يحيى الدعاء بالهلاك ، ويحيى الوعيد بالثبور : « ويل يومئذ للمكذبين » ..

\* \* \*

ومن الجولة في المصارع والأشلاء ، إلى جولة في الإنشاء والإحياء ، مع التقدير والتدبير ، للصغير والكبير :  
« ألم تخلفكم من ماء مهين ؟ فجعلناه في قرار مكين ؟ إلى قدر معلوم ؟ فقدركم فنعم القادرون . ويل يومئذ للمكذبين » ..

وهي رحلة مع النشأة الجنينية طويلة عجيبة ، يحملها هنا في لمسات معدودة . ماء مهين . يودع في قرار الرحم المكين . إلى قدر معلوم وأجل مرسوم . وأمام التقدير الواضح في تلك النشأة ومراحلها الدقيقة يحيى التعقيب الموحى بالحكمة العليا التي تتولى كل شيء بقدره في إحكام مبارك جميل : « فقدركم فنعم القادرون » وأمام التقدير الذي لا يقلت منه شيء يحيى الوعيد المعهود : « ويل يومئذ للمكذبين » ..

\* \* \*

ثم جولة في هذه الأرض ، وتقدير الله فيها حياة البشر ، وإيداعها الخصائص الميسرة لهذه الحياة :  
« ألم نجعل الأرض كفافاً ؟ أحياء وأمواتاً ؟ وجعلنا فيها رواسي شامخات وأسقيناكم ماء فراثاً ؟ ويل يومئذ للمكذبين » ..

ألم نجعل الأرض كفافاً تحتضن بنينا أحياء وأمواتاً . « وجعلنا فيها رواسي شامخات » ثابتات سامقات ، تتجمع على قممها السحب ، وتنحدر عنها مساقط الماء العذب . أف يكون هذا إلا عن قدرة وتقدير ، وحكمة وتدبير ؟ أفبعد هذا يكذب المكذبون ؟ : « ويل يومئذ للمكذبين ! » ..

\* \* \*

وعندئذ - بعد عرض تلك المشاهد ، وامتلأ الحس بالتأثرات التي تسكبها في المشاعر - ينتقل السياق فجأة إلى موقف الحساب والجزاء . فنسمع الأمر الرهيب للمكذبين ، ليأخذوا طريقهم إلى العذاب الذي كانوا به يكذبون ، في تأنيب مرير وإيلام عسير :

« انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون . انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب . لا ظليل ولا يغني من اللهب . إنها ترمي بشرر كالقصر . كأنه جمالة صفر . ويل يومئذ للمكذبين ! » ..

اذهوا إطلاقاً بعد الارتبان والاحتباس في يوم الفصل الطويل . ولكن إلى أين ؟ إنه انطلاق خير منه الارتبان ..  
« انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون » .. فهذا هو ذا أمامكم حاضر مشهود . « انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب » .. إنه ظل لدخان جهنم تمتد ألسنته في ثلاث شعب . ولكنه ظل خير منه الوهج : « لا ظليل ولا يغني من اللهب » .. إنه ظل خائق حار لافح . وتسميته بالظل ليست إلا امتداداً للتهم ، وتمنية بالظل تتكشف عن حر جهنم ! انطلقوا . وإنكم لتعرفون إلى أين ! وتعرفونها هذه التي تنطلقون إليها . فلا حاجة إلى ذكر اسمها . . إنها

ترمي بشر كالقصر . كأنه جمالة صفر .. فالشر يتتابع في حجم البيت من الحجر . ( وقد كان العرب يطلقون كلمة القصر على كل بيت من حجر وليس من الضروري أن يكون في ضخامة ما نعهد الآن من قصور ) فإذا تتابع بدا كأنه جمال صفر ترتع هنا وهناك ! هذا هو الشر فكيف بالنار التي ينطلق منها الشر ؟ ! وفي اللحظة التي يستغرق فيها الحس بهذا الهول ، يجيء التعقيب المعهود : « ويل يومئذ للمكذبين ! » .

\* \* \*

ثم يأخذ في استكمال المشهد بعد عرض الهول المادي في صورة جهنم ، بعرض الهول النفسي الذي يفرض الصمت والكظم ..

« هذا يوم لا ينطقون . ولا يؤذن لهم فيعتذرون .. »

فاهول هنا يكمن في الصمت الرهيب ، والكبت الرعيب ، والخشوع المهيب ، الذي لا يتخلله كلام ولا اعتذار . فقد انقضى وقت الجدل ومضى وقت الاعتذار : « ويل يومئذ للمكذبين ! » .. وفي مشاهد أخرى يذكر حسرتهم وندامتهم وحلفهم ومعاذيرهم .. واليوم طويل يكون فيه هذا ويكون فيه ذلك - على ما قال ابن عباس رضي الله عنهما - ولكنه هنا يثبت هذه اللقطة الصامتة الرهيبة ، لمناسبة في الموقف وظل في السياق .

\* \* \*

« هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين . فإن كان لكم كيد فكيّدون . ويل يومئذ للمكذبين ! » .. هذا يوم الفصل لا يوم الاعتذار . وقد جمعناكم والأولين أجمعين . فإن كان لكم تدبير فدبروه ، وإن كان لكم قدرة على شيء فافعلوه ! ولا تدبير ولا قدرة . إنما هو الصمت الكظم ، على التائب الأليم .. ويل يومئذ للمكذبين ! » ..

\* \* \*

فإذا انتهى مشهد التائب للمجرمين ، اتجه الخطاب بالترقيم للمتقين : « إن المتقين في ظلال وعيون ، وفواكه مما يشتهون . كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون . إنا كذلك نجزي المحسنين . ويل يومئذ للمكذبين ! » ..

إن المتقين في ظلال .. ظلال حقيقة في هذه المرة ! لا ظل ذي ثلاث شعب لا ظليل ولا يغني من اللهب ! وفي عيون من ماء لا في دخان خائق يبعث الظمأ الحرور : « وفواكه مما يشتهون » .. وهم يتلقون فوق هذا النعم الحسي التكريم العلوي على مرأى ومسمع من الجموع : « كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون . إنا كذلك نجزي المحسنين » وبالطف هذا التكريم من العلي العظيم « ويل يومئذ للمكذبين ! » .. يقابل هذا النعم والتكريم !

\* \* \*

وهنا تعرض في خطفة سريعة رقعة الحياة الدنيا التي طويت في السياق . فإذا نحن في الأرض مرة أخرى . وإذا التبكيت والترذيل يوجهان للمجرمين !

« كلوا وتمتعوا قليلاً إنكم مجرمون . ويل يومئذ للمكذبين ! » ..

وهكذا تختلط الدنيا بالآخرة في فترتين متواليتين ، وفي مشهدين معروضين كأنهما حاضران في أوان ، وإن كانت تفرق بينهما أزمان وأزمان . فبينما كان الخطاب موجهاً للمتقين في الآخرة ، إذا هو موجه للمجرمين في

## الجزء التاسع والعشرون

الدنيا . وكأنما ليقال لهم : اشهدوا الفارق بين الموقنين .. وكلوا وتمتعوا قليلاً في هذه الدار ، لتحرموا وتعذبوا طويلاً في تلك الدار .. ويل يومئذ للمكذبين ! » .

\* \* \*

ثم يتحدث معجباً من أمر القوم وهم يدعون إلى الهدى فلا يستجيبون :  
« وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون . ويل يومئذ للمكذبين ! » ..  
مع أنهم يبصرون هذا التبصير ، وينذرون هذا النذير ..  
« فبأي حديث بعده يؤمنون ؟ » ..

والذي لا يؤمن بهذا الحديث الذي يهز الرواسي ، وبهذه الهزات التي تزلزل الجبال ، لا يؤمن بحديث بعده أبداً . إنما هو الشقاء والتعاسة والمصير البائس ، والويل المدخر لهذا الشقي المتعوس !

\* \* \*

إن السورة بذاتها ، بينائها التعبيري ، وإيقاعها الموسيقي ، ومشاهدها العنيفة ، ولذعها الحاد .. إنها بذاتها حملة لا يثبت لها قلب ، ولا يتأسك لها كيان .  
فسبحان الذي نزل القرآن ، وأودعه هذا السلطان !

\* \* \*

## انتهى الجزء التاسع والعشرون

ويليه الجزء الثلاثون  
مبدوءاً بسورة النبأ